معالم

مجلة فصلية تعنى بترجمة مستجدات الفكر العالمي
تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية - الجزائر

العدد 6
2013

من بابل إلى مانهاتن

أ. عز الدين ميهوبي

فكر ودراسات

أصل التدخل لحماية المدنيين واستعمالاته:

أ.س. روبيرت
ترجمة: د. محمد العربي ولد خليفة

لسانيات

شركة الهند الشرقية من التجارة إلى اللسانيات

بقلم: كابيل راج
ترجمة: د. محمد قماري

أدب وتراث

لا حياة هنا:

للروائية الافريقية آفا آنا عيدو
ترجمة: أ. عمارة زينب

مجلة فصلية تعنى بالترجمة
تصدر عن المجلس الأعلى للغة العربية

في

هذا العدد

مســـارات ومذاهب:

قوة التنظير
و فاعلية الحركة

العدد السادس / ربيع
2013

مدير النشر

الأستاذ/عز الدين ميهوبي

رئيس التحرير

الدكتـور محمد قمـاري

المراسلات

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرنكلين روزفلت الجزائر

الهاتف:230724 21 (213+)

الناسوخ:230707 21 (213+)

ص.ب: 575 ديدوش مراد الجزائر

البريد الإلكتروني:

maalem.csla@gmail.com

رقم الإيداع: 2009-6012

الترقيـم الدولي الموحد للمجلات (ر.د.م.د) :

2170-0052

LOGO

مَعـالم

هيئة التحرير

- **أ. موسى زمولي**
- **أ. د.صالـح بلعيد**
- **أ. مهندس طه زروقي**
- **أ. فتيحة خلـوت**
- **أ. مهندس عبد الكريم شريفي**

العدد السادس

الهيئة الاستشارية :

- خولة طالب الإبراهيمي
- محمد بن عمرو الزرهوني
- عبد القادر بوزيدة
- محمد هناد
- رشيد بن مالك
- أحمد برغدة
- بوزيد بومدين
- إنعام بيوض
- السعيد بوطاجين
- مختار نويوات

معايير النشر:

- أن يتقيد المترجم بالضوابط العلمية والأكاديمية المتعارف عليها.
- أن تكون الأعمال غير منشورة من قبل.
- أن ترسل النصوص مرفقة بقرص مسجل باسم رئيس المجلس أو مدير التحرير على العنوان المذكور أدناه.
- أن توضع الهوامش والمراجع في آخر المقالة.

ملاحظة: المقالات التي ترد إلى المجلة، لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

كلمة العدد

من بابل إلى مانهاتن..

بقلم: عزالدين ميهوبي
رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

حين قرأتُ أنّ قاموس اللغة العربية يتجاوز اثني عشر مليونا وثلاثمائة ألف كلمة، ويمكن اشتقاق ما يربو عن 95 مليون فعل، ضربتُ أخماسي بأسداسي، لأنّ المأساة كبيرة عندما يعلم الخلق أننا – نحن العرب– لا نستخدم سوى 0,04 بالمائة من المعجم العربي (..) وهي محصّلة دراسة قمتُ بها منذ عامين حول الأمن اللغوي والحروب اللغوية في العالم، وثّقتها في كتاب ضخم بعنوان "**جنائز اللغات: من برج بابل إلى أبراج مانهاتن**" ويتضمن معلومات وحقائق وأرقاما منها أنّ قاموس أكسفورد الإنجليزي يضمّ مليون كلمة بينها 40 بالمائة تمثّل رصيدا وافدا ضمن منهج الإقتراض اللغوي، أما الفرنسية فمعجمها لا يتجاوز المائة ألف كلمة، وهي لغة مهددة بالانقراض بعد أربعين عامًا إذا استمرّت في التمسّك بمنطق "اللغة النقيّة" التي ستموت اختناقا، بالرّغم من ارتفاع أصوات الأكاديميّة الفرنكفونيّة، المطالبة بضرورة دخول سوق اللغات والاقتراض منها لضمان استمراريّة لغة لاماراتين..

لقد انتشرت في العالم مفردات ومفاهيم جديدة ذات صلة باللّغة، وتحولت إلى عنصر حاسم في تبيان شكل الدولة وهوية المجتمع. وانبرى كثير من الباحثين والمختصين في الألسنية واللّغويات إلى تعقب نشوء اللّغة وانتشارها والتهديدات التي تتعرض لها، وتحديد ظروف انتعاشها أو موتها. ومن بين المفاهيم والعناوين التي طبعت المسألة اللّغوية في العالم بروز ما أطلق عليه "**الأمن اللّغوي**" و"**الحرب اللّغوية**" و"**صدام اللغات**" و"**الهجوم اللّغوي**" و"**التلوث اللّغوي**" و"**الاقتراض اللّغوي**" و"**الافتراس اللّغوي**" و"**السوق اللّغوية**" و"**وضع نظام لغوي عالمي جديد**" و"**موت اللّغة**" و"**لغة الوطن ولغة المواطنين**" و"**التعايش اللّغوي**" و"**لتنوع اللّغوي**" و"**التفاعل اللّغوي**" و"**لحقوق اللّغوية**" و"**اللغات الطبيعية**" و"**اللغات**

المصطنعة" وغيرها من المصطلحات التي انتشرت بصورة واسعة، وبدرجة أخص في البلدان التي تعيش تنوعا لغويا يصل أحيانا إلى صراع بين لغة مهيمنة وأخرى مقاوِمة من أجل البقاء أو ساعية إلى الانتشار.

ولأن اللّغة كائن اجتماعي يولد ويكبر ويشيخ وقد يموت بالهجر أو النّشوز الثقافي (..)، فإن الأبحاث العلمية تتجه اليوم، بعد أن تساءلت عما إذا كانت **اللّغة مخلوقة أو مبتكرة،** إلى دراسة ظاهرة انتشار اللّغة وموتها وكذا وضع ملامح حروب لغوية سرية ومعلنة، وأصدرت بهذا الشأن اليونيسكو عددا من التقارير التي **شخصت واقع اللغات في العالم، ونبهت إلى ضرورة حماية لغات الأقليات، والحفاظ عليها باعتبارها من التراث الإنساني.** وقد تحوّلت الشبكة العنكبوتيّة (الأنترنيت) في السنوات الأخيرة إلى عيّادة لغويّة (..) تعالج فيها الألسنة الآيلة للموت والانقراض، وليس أدلّ على ذلك من وجود أكثر من خمسمائة لغة في العالم متداولة في الأنترنيت، وتحوّلت إلى أداة للتواصل بين شعوب كثيرة، وبدرجة أخص في إفريقيا وأمريكا اللاتينيّة، مما جعل المراهنين على سيادة الفرنسيّة والاسبانيّة يشعرون بشيء من الإحباط..

وإذا كانت كل اللّغات تعيش حالة تفاعل مع التحولات التي يشهدها العالم، فاللّغة العربية عرفت بفعل حرب أفغانستان 2001 التي أعقبت أحداث 11 سبتمبر، انتشارا واسعا لها في كثير من بلدان العالم، وبدرجة أخص لدى الأمريكيين الذين زاد إقبالهم على تعلمها، وأسهم في ذلك قرار الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الذي أطلق في 2006 «**المبادرة اللّغوية للأمن القومي** National Security Langage Initiative»، تدعو إلى ضرورة تعلم عدد من اللغات منها اللّغة العربية التي عُدّت "**لغة إستراتيجية ومصيرية**" لا غنى عنها، لفهم العرب والمسلمين، والحصول على جواب لسؤال محيّر لماذا يكرهون أمريكا؟.

فاللّغة، وإن تعددت المفاهيم، وتنوعّت التعريفات اللسانية والثقافية والاجتماعية والدينية، هي كما يقول الكاتب محمّد سليم "إنتاج اجتماعي لا يتبلور إلا في امتداد الزمن، وهي إنتاج جمعي يتحقق أيضا في الزمن، **ولم يحدث أبدا في التاريخ أن اخترعت لغة، ثم جيء بها للناس وقيل لهم: عليكم أن تستبدلوا لغتكم بهذه؛ اتركوا تلك وتكلموا هذه**". فوجود ستة آلاف لغة أو يزيد، يجعل السؤال قائما، هل البشرية بحاجة إلى كلّ هذا العدد أم تكفيها لغة واحدة؟. هو سؤال مردود عليه، لأنّ العالم اليوم يعيش حروبا بأسلحة مختلفة منها اللغة، وهي عنيفة جدّا وإن لم تظهر للعيان..

وإذا كان بعض الناس متشائمين من حال العربية ومستقبلها، فإنني متفائل، ولي في ذلك ما يبرّر هذا الشعور.. فاللغات اللاتينية تأكل من رصيد بعضها، وتتناطح فيما بينها، بينما العربية بحاجة إلى قليل من الثقة في خبراء أبنائها ليحسنوا استثمار قدراتها، وتدبّر قاموسها الأثرى بين لغات العالم..

وهناك أيضا ما يطلق عليه اللغات المصطنعة، إذ كتب الفيلسوف الفرنسي ديكارت رسالة لأحد رجال الدين في 1629 يقول فيها "**على الإنسانية أن تنشئ لغة دولية، قواعدها بسيطة، يمكننا أن نتعلمها في ساعات، لها إعراب واحد، وصرف واحد، وليس فيها استثناء ولا اختلال لغوي، والكلمات تنساق خلف بعضها إلى حدّ الالتصاق**".

وليس غريبا أن يربط كثير من الكتاب والمفكرين ابتكار لغة الإسبرانتو في السنة نفسها التي أعلن فيها هرتزل عن ميلاد الحركة الصهيونية في 1887، فهل فكرة "**الشتات**" هي التي تفرض نفسها في نشوء **حركة لغوية تهدف إلى وضع شتات لغات العالم تحت مظلة لغة واحدة هي الاسبرنتو**، ونشوء حركة صهيونية لتكون مظلة ليهود الشتات؟

الكلام يطول حول اللغة، إنّما أعجبتني فكرة لمواطن عربيّ قال إنّ لفظة "فأسقيناكموه" الواردة في القرآن، فيها حرف عطف، وفعل، وفاعل، ومفعول أول، ومفعول ثان، فهل هناك لغة غير العربية بهذه القوة؟.

نخبة التنمية ؟؟؟؟؟

د.محمّد قماري

مصطلح "النخبة" من المصطلحات السيارة، يتردد بين المهتمين بالشأن العام كما يجري في وسائل الإعلام وعلى ألسنة الساسة، غير أن انتشار هذا المصطلح وذيوعه لم يشفع له في أن يظل من المصطلحات الملتبسة الحدود، فهو لدى المستعملين لا يعني مفهوما واحدًا، شأنه في ذلك شأن كثير من المصطلحات الوافدة التي دخلت سياقات الاستعمال دونما ضبط أو تحديد. . .

وقد يكون من المناسب حينئذ، أن نعود إلى الوقوف على هذا المصطلح في سياقه الحضاري الغربي الذي ولد فيه، ونحاول الوقوف على تطوره الدَلالي، فنجد أن المعنى مستوحى من العبارة الإغريقية kalos kagathos والتي يمكن ترجمتها بـ"الجلال والجمال"، وفي هذا الفلك تدور التعريفات الغربية لمفهوم النخبة، فهي بصورة عامة، تشير إلى جماعة في المجتمع متميزة بالتفوق، وتستند في تفوقها إلى مركز اجتماعي متقدم، أو إلى قدرات فكرية أو علمية، أو إلى ثروة مالية طائلة، أو إلى مرتبة دينية، على أن ذلك لا يحول دون اجتماع بعض تلك الركائز أو جلها في آن واحد، عند بعض من يشار إليهم بالنخبة. . .

وانطلاقا من دفع الالتباس، غلب في وقتنا الحاضر إطلاق مفهوم النخبة مضافا إلى صفة، كأن يقال: النخبة الثقافية، والنخبة العلمية، ونخبة الفلاحين، ونخبة العمال، وإجمالاً يطلق على مجموعة تتولى القيادة في مجال معين من مجالات الحياة، ولعل القصد من ذلك رفع بعض ذلك الالتباس الذي أشرنا إليه. . .

لكن ظل استعمال المصطلح بالمطلق، دون تخصيص، يغلب عليه الإشارة إلى الجماعة التي تتولى قيادة المجتمع بأسره، وهنا نقول "النخبة الحاكمة" ويقابلها بالضرورة في النظم

الديمقراطية "نخبة مضادة" تعارضها أو تطرح نفسها بديلاً لها، وقد يتبادلان الدور، فتتحول "النخبة المعارضة" إلى حاكمة، والفيصل بين الأولى والثانية هو حجم الفاعلية، وتحقيق أكبر قدر من الرضا بين الناس، لأن التداول يخضع في النهاية إلى تحكيم آرائهم.

لقد خلصنا إلى هذا التحديد المصطلحي، وإن لم يكن شاملا، استجابة لضرورة علمية وعملية، فكثير من المفاهيم والمصطلحات التي تعج بها حياتنا غير منضبطة، ونحسب أننا نحسن صنعًا إذا ما أدخلناها قاموس الاستعمال قسرا بتأثير قوة الترديد، بل قد نظن أن ذلك يعفينا من واجب الحفر وراء الدلالات، ويعفينا من تسويق المصطلح بوصفه قيمة "فعالة"، تبني وتهدم، تزيل وتنشئ، لا أحرف هجاء يحملها متلق دون حمولة معانيها، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعادلة المختلة، وجاء عرضها في صورة ذلك الحيوان الذي لا يدرك قيمة ما يحمل: [مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ](الجمعة/5).

أشرنا، من قبل، إلى أن أصل مصطلح "النخبة" في السياق الغربي يدور في فلك "الجلال والجمال"، وبداهة أن الجلال والجمال بهذا المعنى مفهوم "تراكمي متحرك"، فهو أبعد ما يكون عن "الستاتيك" الذي يجعله محصورا في جيل دون جيل، أو في قطاع من المجتمع دون سواه، بل هو مفهوم "ديناميكي" عموده وقطب رحاه فكرة القيام بالواجب، والحرص على أن يتم أداء الواجب متلفعًا برداء الجلال والجمال، على اعتبار أن الواجب هو وجه العملة الآخر لنيل الحقوق. . .

إن القيام بالواجب هو الذي يصنع القيمة، ولا يصنعها الموقع المفترض لأداء ذلك الواجب، ومن هنا فالنخبة لا يتم رصدها بالضرورة على الشاطئ، حيث تتدافع الأمواج على السطح مخلفة في تدافعها الزبد الذي يذهب جفاء، فالجلال والجمال هناك يختمر في الأعماق حيث ما ينفع الناس، حيث توجد خميرة الإنتاج والنماء، تمد المجتمع بأسباب نهضته وبأسباب استمرار هذه النهضة. . .

وما من أحد مؤهل لحمل لواء هذه المهمة كأهلية "نخبة التنمية" لحمله، وهي بالضرورة النخبة العالمة والمفكرة، شرط أن لا يحدث لبس في حقيقة أمرها، فتغدو مرادفا مبتذلا يقتصر على حملة الشهادات، وتصبح وسيلة التكوين والتعليم غاية في ذاتها، فإذا طال الأمد تحولت هذه الغاية السراب إلى مجرد هيكل بيروقراطي يمنح "شهادات" دون "مؤهلات". . .

وبعد، فهذا هو العدد السادس من مجلة "معالم"، يحمل بين دفتيه مواضيع متنوعة تتقاطع في مجملها على محور "نخبة التنمية"، وهي ترسم الخطط وتصنع المساحات أمام تحرك سياسات بلدانها وشعوبها في بسط نفوذها، ومراعاة مصالحها، تحت عناوين جذابة، كما يظهر من مقال "أصل التدخل لحماية المدنيين واستعمالاته"، أو بالقدرة على تحقيق المنافسة والتفوق التي يظهرها نموذج التعليم العالي في بريطانيا في مقال "المثلث الذهبي"، حيث تظهر قوة منظومة التعليم العالي في قدرتها على المنافسة الاقتصادية والثقافية، أو من خلال الرحلة التاريخية مع تجربة شركة الهند الشرقية "من التجارة إلى اللسانيات"...

وما دامت "معالم" تعنى بالأساس بعالم الترجمة، فقد وقفت عند قضية "الترجمة الآلية" التي أسهمت في كسر الحواجز بين اللّغات وسد العجز في مجال متابعة الوتيرة السريعة للنشر، مع الاعتناء بالترجمة "المتخصصة" التي تضبط المفاهيم وتثري القواميس، وفي العدد موضوعات أخرى لسانية وأدبية وثقافية، نأمل أن تسهم في إشباع فضول المتلقين من باحثين ودارسين وطلبة. . .

والله الموفق

فكر ودراسـات

أصل التدخل لحماية المدنيين وٱستعمالاته

درا سة ل أ. س. روبيرت A.C.Robert

نقله إلى العربية د. محمد العربي ولد خليفة

من العالم الشهري عدد ماي 2012

1- تمهيد

في أقلّ من شهر سمحت الأمم المتحدة أو على الأصح مكتبها التنفيذي باستخدام القوّة في كلّ من ليبيا وساحل العاج، ولم يظهر لها أيّ مسعى لحلّ الصراع في البلدين بالطرق السلميّة ٱستنادا إلى واجب الدول حماية ساكنيها من المدنيين، فهل أنّ المنظمة الأمميّة بصدد الٱعتراف بحقّ التدخّل الانتقائي؟

أعلن السيد بان كي مون يوم 04-04-2011، أنّه أعطى أوامره لٱتخاذ الإجراءات الضرورية لمنع ٱستخدام الأسلحة الثقيلة ضد المدنيين في ساحل العاج بضع ساعات بعد هذا التصريح تدخّلت المروحيات العسكريّة التابعة للأمم المتّحدة مع القوات الفرنسية LICORNE إلى جانب الحسن وتاره ضدّ الرئيس السابق لوران كباغبو.

ظهرت أصوات هامسة في أروقة مبنى مانهاتن تبدي عدم أهلية الأمين العام للمنظمة الدولية إعطاء أوامر من نوع "ٱتخاذ الإجراءات الضرورية"[1] فهي من صلاحيات مجلس الأمن في تصويت بلا ٱعتراض أو فيتو، على الرغم من أن القرار الذي ٱتّخذه المجلس في 30-03-2011 كان محلّ إجماع، فهل أصبحت منظمة السلام الدولي مطيّة سهلة لشنّ الحروب؟

2- الأمم المتحدة وميثاقها:

بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وتأسست هيئة الامم المتّحدة على مشاهد الدمار والملايين من الضحايا المدنيين والعسكريين، ٱتفق المؤسسون على ٱعتبار السلام القيمة العليا التي تسهر على حفظها الهيئة وتصدّر ميثاقها (البند الثاني- فقرة 4) "منع ٱستعمال القوة أو التهديد بها" ومنع التدخل في الشؤون الداخلية للدول ذات السيادة (البند السابع- فقرة1) [2] .

الهدف من هذا البند هو المحافظة على الاٌستقرار الدولي، غير أن القوى الكبرى لم تعره الاٌهتمام بالأمس، وهي تنتهكه اليوم أكثر فقد تدخلت عسكريا في بلدان أخرى عدّة مرات بذرائع مختلفة، مثل حماية جالياتها أو اٌسترجاع ديونها أو للامتناع عن دفعها (الجزائر 1830) أو حماية المصالح التجارية أو منع هيمنة بلد على آخر مجاور، وحدث في كل هذه التدخلات مجازر إجرامية عديدة.

يشير أوليفيي كورتن (O. Chorten) في دورية اليونسكو1999 [3] إلى أنّ مبدأ عدم التدخل كان ثمرة نضال تاريخي طويل قامت به الشعوب المقهورة طيلة القرن 19 ضد الكولونيالية والامبريالية التي اٌدعت أنها كانت تدافع عن القيم الحضارية وهو ما تردد كثيرا أثناء حروب الدول الغربية ضد الاٌمبريالية العثمانية في إفريقيا والشرق الأوسط.

يفرض قانون الأمم المتحدة في فصله السادس البحث عن الحل السلمي لكل النزاعات داخل الدول أو فيما بينها، قبل اللجوء إلى القوّة وتحاشي الحرب في كل مساعيها مثل الوساطة، بعثات المساعي الحميدة، لجان التحقيق، جماعات الاٌتصال بين أطراف النزاع، إخطار محكمة العدل الدولية، وهذا تقريبا ما حدث في حرب الخليج لسنة 1990 وساحل العاج سنة 2011 **وهو ما لم يحدث بالنسبة للنزاع في ليبيا.**

يمكن أن تُقرّ عقوبات غير عسكرية من طرف مجلس الأمن، ولكن ليس بطريقة أحادية من طرف دولة واحدة بدون ترخيص دولي مثل الحصار– تجميد الأموال المودعة في الخارج– منع السفر إلى الخارج، كما يمكن إقصاء البلد المعاقب من المنظمات الدولية، مثل مجلس حقوق الإنسان، أو من المنظمات الجهوية مثل الاتحاد الإفريقي.

أضيف إلى كل تلك الهيئات سنة 2002 محكمة الجزاء الدولية التي أصبح بإمكانها لأول مرّة نزع الحصانة عن رؤساء الدول ومحاكمتهم بتهمة تجاوزات مثل جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية، والهدف في رأي السيدة إيما بونينو E. Bonino المحافظة السامية في الاٌتحاد الأوربي هو أساسا ردعي يهدّد كبار المسؤولين بالمساءلة عند اٌرتكاب جرائم موصوفة.

وعلى الرغم من أن ثلاثة من أعضاء مجلس الأمن هم الولايات المتحدة والصين وروسيا، من بين الخمسة الدائمين لم يعترفوا بهذه المحكمة، فإن مجلس الأمن أعطى الضوء الأخضر لمحاكمة الرئيس السوداني عمر حسن البشير، وقد لاحظ الفيلسوف تودوروف T.Todorov في دراسته بعنوان تحقيق حول القرن سنة Enquête sur le siècle 2000 [4] أن الحياة السياسية بلغت أقصى درجات الوحشية، فليس صحيحا أن علينا أن نختار بين اللامبالاة الجبانة أو التدمير

بالقنابل، إن الخيار الأخير يفترض أننا منذ البداية قد قررنا الخيار الحربي، من البديهي أن هناك خيارات أخرى أفضل[5] .

لم يكن للمبادئ التي كرّسها الميثاق ألأممي أي تأثير يذكر في حفظ السلام والأمن الدولي، فقد شهد النصف الثاني من القرن العشرين الكثير من الصراعات والحروب البشعة، غير أن الباحث المختص في القانون الدولي "كورن الذي أشرنا إليه فيما سبق، لاحظ أن ذلك الميثاق ألأممي وإن لم يمنع الهيمنة الامبريالية قد أعطى للبلدان التي تتعرض للعدوان الحق في مواجهته بالقوة (كفاح التحرير الوطني)، غير أن القوى المهيمنة وجدت دائما مبررا لشن الحروب فقد برّرت إسرائيل عدوانها على مصر سنة 1967 بأنّها تقوم بحرب وقائية وهو ما زعمته واشنطن في عدوانها على العراق سنة 2003.

أما الهيئة الأممية فقد سمحت بأستخدام القوّة وتحت علمها من 1950 إلى 2011 استنادا إلى الفصل السابع من ميثاقها 21 مرة نذكر منها:

الأمم المتحدة والتدخل في النزاعات بالقوة العسكرية

1- التدخل لعسكري الأمريكي في كوريا تحت علم الأمم المتحدة 1950

2- الكونغو- كينشازا 1960

3- التدخل العسكري البريطاني في روديسيا (زنباوي حاليا) 1965

4- العراق 1991

5- الصومال 1992

6- بوسنيا 1992

7- هاييتي 1994

8- رواندە 1994

9- الزاييير 1996

10- ألبانيا 1997

11- سيراليون 1999

12- تيمور الشرقية 1999

13- كوسوفو	1999
14- أفغانستان	2002
15- بورندي	2004
16- الكونغو الديموقراطية	2005
17- ساحل العاج	2011
18- ليبيا	2011

3- الأمم المتّحدة والحق في التدخّل العسكري:

أتّسع حق التدخل بالقوة العسكرية منذ نهاية الحرب الباردة، وقد وجد التدخل منظرين من المختصين في القانون مثل ماريو بيتاتي M.Bettati في دراسته المنشورة بعنوان: حق التدخل: تحولات في النظام الدولي 1996 Le droit d'ingérence. Mutation de l'ordre international أو السياسي برنار كوشنير B.Kouchner، ولكن هذا "الحق" غير معتمد في القانون الدولي، على الرغم من أن العمل الإنساني قد يتطلب أحيانا اللجوء إلى أستعمال الوسائل العسكرية لنجدة جماعات ضحيّة لتصرّفات حكوماتها أو عجزها عن القيام بمهامها في حفظ الأمن الداخلي[6] .

وجدت المنظمات غير الحكومية أبتداء من 1988 في المنظومة القانونية للأمم المتحدة ما يساعدها على طلب التدخل بالقوّة، وخاصة بعد أن أعترفت الجمعية العامة للمنظمة الدولية سنة 2005 بأن واجب الدول حماية المدنيين من ساكنتها، وفي سنة 2006 دعم مجلس الأمن ذلك الواجب أثناء الصراعات المسلّحة، حتى في الحالات التي لا يكتسي فيها الصراع بعدا دوليا، غير أن الأمم المتحدة لم تعترف بتعميم ذلك الحق على كل الحالات، ولكن المفهوم بقي على أي حال غامضا وخطيرا[7] .

لعل هذا الغموض والخطورة من الأسباب التي دفعت كلا من روسيا والصين والهند للتحفظ أثناء التصويت على لائحة التدخل في الصراع الليبي، بينما ترددت واشنطن قبل التصويت على اللائحة، ومن المفارقة أن ألمانيا هي البلد الوحيد في منظومة الأطلسي التي أعترضت صراحة

على التدخّل العسكري في ليبيا، بينما سارعت فرنسا–ساركوزي بالتدخل ممّا ذكر الإعلام في بريطانيا وأمريكا بمغامرات الرئيس السابق جورج بوش الأبن[8] .

كلّما تعلّق الأمر بعمليات عسكرية، فإنّ القتل والخراب وٱضطراب التوازنات الدولية والجهوية أمر لا مفر منه، كما أنّ اللّجوء إلى أسلحة فتاكة مهما كان السيب المعلن هو في الحقيقة ٱعتداء على الحقوق الأساسية[9] ، فهل أنّ الدفاع عن مدنيين معرضين للتهديد يسمح بتهديد مدنيين آخرين بالقتل، ولذلك ينبغي رفض ٱعتبار التدخل الأجنبي بصفة الحرب العادلة وهو الوصف الذي ٱستعمله الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش وهو وصف ينسب للقديس أوغسطين وتوماس الأكويني Thomas d'Aquin، [10] وكذلك رفض مصطلح الحرب الإنسانية، بينما فضّلت اللّجنة الدولية الاستثنائية سنة 2000 مصطلح التدخّل العسكري بهدف الحماية الإنسانية.

ويرى ج.فورستر (J.Forster) أن التجربة أثبتت أنه كلما تداخل العمل الإنساني مع الأهداف السياسية أو العسكرية كلما زاد من ٱشتعال الصراعات بدل أن يضع حدا لها[11].

يخفي الساسة في الغرب ووسائط الإعلام المؤيدة لسياساتهم الحرج وضعف الحجة عن طريق التضليل اللفظي، ففي ساحل العاج مثل ليبيا ليس هناك قصف بالطائرات والمدافع، بل هناك ضربات محددة، وفي البلدين السابقين ليس هناك حرب ولكن مجرد عمليات عسكرية، ومن الملاحظ أن الإعلام الملهوف على الصوت والصورة الحيّة يتحاشى تماما نقل ما يحدث ولا يظهر منه شيء يذكر على الشاشات والصحف إلا إذا تعلّق الأمر بإبراز وحشية الطرف الآخر[12].

4- التدخّل "الإنساني" ومضاعفاته:

مهما كانت الإمكانيات الدفاعية في البلد موضوع التدخل العسكري، فليس هناك تأكد من نجاح العمليّة وما هو الوقت الذي تستغرقه الحرب كما أن التورُّط طويل الأمد قد يكون أكثر من فرضيّة، وكل هذه الاحتمالات واردة في الحالة الليبية وهو ما حذّرت منه الصين دون أن تبادر إلى منعه وكان ذلك في متناولها، فلا أحد يعرف من هم المقاومون أو المتمرّدون وما هي أهدافهم؟ وما وراء حملتهم المفاجئة؟.

تحوّل هدف التدخّل في الدولة الليبية من فرض منطقة حضر جوي إلى إسقاط النظام والإعلان عن ذلك صراحة في مقال مشترك أمضاه كلّ من الرئيسين الأمريكي باراك أوباما والفرنسي ساركوزي ورئيس الحكومة البريطانية ديفيد كامرون، نشر بتاريخ 15-04-2011 في آن واحد في أنترناشيونال هيرالدتريبيون والفيغارو والتايمز، ولابد من صحيفة عربية، وقد كانت "**الحياة**" التابعة توجيها وتمويلا لدولة بترولية في الخليج هي الصحيفة الرابعة[13].

في هذا الإعلان المشترك الذي سبقه الفعل العسكري ٱنتهاك لميثاق الأمم المتحدة الذي لا ينيب أحدا غير الشعوب في تغيير أنظمتها، ولو كان العقيد القذافي يوصف بالدكتاتور، ولكن مثل هذه السابقة يمكن أن تسمح لبعض القوى العالمية أن تختار من تشاء لإسقاطه بعد تصنيفه في الخانة التي تريد، وحجّتها هي حقّ التدخّل لحماية المدنيين، وقد يكون ذلك الحق مجرّد قناع، وليس سرا أن قتل المدنيين حتى المفترض حمايتهم هو آخر ٱهتمامات تلك الدول.

كيف تحرّكت الإحداث في ليبيا هل كانت تمرّدا قبليا؟ أم ٱنتفاضة ضدّ نظام تسلّطي؟ لماذا سارعت دول بدأت شهر عسل مع القذافي إلى صبّ جام غضبها على شخصه ونظامه؟ هل انّ السلاح وحده كفيل بحلّ مشاكل سياسيّة؟ هل تحوّلت مسألة حقوق الإنسان إلى سياسة؟ أم هي من الواقعية السياسية Realpolitik بلا أخلاقيات ولا مرجعيات قانونية؟ هناك سياسة واحدة عقلانية هي أن نعرف عواقب ما نرغب في فعله قبل البدء فيه[14].

ليس خافيا على المتابعين من الشخصيات الدولية والمنظمات غير الحكومية أن الساحة الدولية تعتمد معايير مزدوجة فالمكتب التنفيذي للأمم المتّحدة (مجلس الأمن) هو الذي يتّخذ القرارات الملزمة وليس الجمعية العامة، وهذا المكتب لا يخضع لأي مراقبة قانونية، فعندما طلبت الجامعة العربية من الهيئة الأمميّة ومجلسها التنفيذي إصدار قرار بفرض حضر جوي على غزّة ذهب طلبها أدراج الرياح، على الرغم من القتل اليومي المتواصل للمدنيين منذ ما يزيد على ثلاث سنوات[15].

5- الأهداف الحقيقيّة للتدخّل لأغراض إنسانية:

لا تقتصر الدعوة للتدخّل المسلّح على السلطات السياسية، بل إن بعض "الإنسانيين" مثل الفرنسي كوشنير لا يتورعون عن الدعوة للتدخل وتأييد الحرب حتى لأغراض غير إنسانية، كما يقول الإعلام أحيانا بالتحضير للحرب قبل بدايتها ومثال الصحافة الأمريكية في الحرب على العراق سنة 2003 والصحافة الفرنسية قبل وبعد الهجوم على ليبيا بهدف تعبئة الرأي العام الداخلي والتأثير على الخارج.

تحوم الشكوك منذ مدّة طويلة حول التدخّل العسكري ولو كان بترخيص من الأمم المتّحدة ويبدو في ظاهره شرعي، فالهجوم على العراق سنة 1990 بعد ٱحتلال الكويت لم يكن لإنقاذ هذه الإمارة الصغيرة، فحسب، بل لما تمثله المنطقة من أهمية إستراتيجية وثروات الطاقة، كما أن التدخّل العسكري الفرنسي في ساحل العاج لم يكن هدفه الدفاع عن الشرعية والجمهورية (وكأن

غباكبو قد أعلن الملكيّة)، فهذا البلد له أهميّة خاصة بين المستعمرات السابقة في غرب إفريقيا[16]، فقد سبقت تعليمات بان كي مون بتدخّل قوات الأمم المتحدة ضدّ الرئيس السابق مكالمة هاتفية من الرئيس ساركوزي، فالأمم المتحدة مفيدة إذا كان القرار قد أُتخذ وأن صاحبه هو الوحيد الذي يتفرّد بتنفيذه، فقد لاحظ الأستاذ سانشير روبيو S.Rubio من جامعة إشبيليا في دراسته عن التدخلات الإنسانية: المبادئ والمفاهيم والوقائع 2004 [17].

Interventions humanitaire: principes concepts et réalités

إلى أنّ الإنسانية لم تشهد في ماضيها القريب والبعيد تدخلات عسكرية تحت شعار حماية حقوق الإنسان، مثلما هو الحال في العقدين الأخيرين والسؤال المطروح على الجميع هو: هل يمكن بناء نظام حقوقي عادل إذا كنّا نعرف أن التدخّل العسكري مبني على معايير مزدوجة وبالتالي معايير لا تحظى بموافقة الجميع؟

يرى البعض أن توسيع مجلس الأمن إلى أعضاء آخرين مثل البرازيل أو جنوب إفريقيا، قد يقلل من التعسفية، ويرجع البعض الإجراءات الأنتقائية إلى الموقع الخاص لمجلس الأمن في هيكلة المنظمة الأممية، ويتساءل البعض الثالث لماذا لم تُفعّل هيئة الأركان العسكرية المنصوص عليها في الميثاق ألأممي؟

الحقيقة أن وراء كل هذه الآراء تساؤل أعمق مؤداه: هل هناك شكل تمثيلي لكل أعضاء المنظمة يسفر عن حكومة عالمية؟ أليست الأمم المتحدة مجرّد ساحة للمواجهات السلمية تتقارب فيها المواقف أو تتباعد في انتظار حصول معيارية دولية مقبولة؟

يقول الكثير من المختصين في القانون الدولي إن الناشطين في منظمات حقوق الإنسان يؤكدون أنه لا يوجد في القانون الدولي المعاصر ما يشير إلى أن سيادة الدولة حصن يمنع التدخل من الخارج، فليس من حق أي دولة كما ترى كورتون إبادة شعبها بدعوى أن الأمر داخلي لا يعني الآخرين، فقد أُعترفت كل دول العالم بجملة من المبادئ الأساسية مثل الحق في الحياة وأُحترام سلامة الأشخاص ومنع إبادة مواطنيها وهم بالضرورة موجودون فوق ترابها، لقد أُعترفوا بتلك المبادئ بكل سيادة وعليهم أن يحترموها أيضا بكل سيادة[18].

6- الأمم المتّحدة هي مكتبها التنفيذي:

على الرغم من النقائص الكثيرة في المنظومة الأممية، فإنها قد تأسست على مبادئ تدعيم السلم وثقافة التعاون والحوار والتبادل المفيد لكل الأطراف والإلزام بأُحترام المعايير المشتركة بطريقة أفقية أي المساواة بين كل الأعضاء وليس بطريقة رأسية حسب قوّة ونفوذ هذه الدولة أو تلك، ومن

الواضح أن الأفقية التي تعني المساواة بين كل أعضاء المنظمة مجرد خيال لا أساس له في الواقع، ولكنه لا يمنع من البحث التدريجي عن حلول أخرى غير علاقات القوة بين الأطراف، فالمنظمة الدولية هي اليوم مجرد جمعية وليست مجموعة دولية communauté internationale ، وهو ما يتطلب ٱحترام السيادة الشعبية مع العلم أن دولة عضو مثل فرنسا تؤيد وتحمي الكثير من الأنظمة غير الشرعية بسبب تزييفها للٱنتخابات، وكذلك فتح مجال للنقاش حول القضايا الجهوية والدولية وهو مجال لا زال محتكرا من طرف القوى الغربية وحدها.

لقد امتنع السيد جون بينغ J. Ping عن المشاركة في قمة باريس في 19-03-2011 حول المسألة الليبية، لأن وجهة نظره التي تمثل منظمة جهوية لم تؤخذ بعين الٱعتبار، كما أن الأمن المشترك يتطلب تعددية إعلامية عالمية تسمح بتقديم الرأي المخالف كما أكّد ذلك النجاح الذي حققته وثائق ويكيليس wikileaks ولعله من المهم كذلك ٱستذكار الماضي (عصبة الأمم) ومآسيه وهو ما تناساه القادة المتنفذون حاليا في شؤون العالم[18].

7- خلاصة:

لا تقتصر مهمة المنظمة الدولية على الوقاية من الصراعات المنصوص عليه في الفصل السادس من ميثاقها وخاصة بعد أن تزايد اللجوء إلى القوّة لحل النزاعات في السنوات الأخيرة، بل من المستعجل كذلك الٱهتمام بمصدر آخر للصراعات والعنف هو النظام الاقتصادي العالمي الراهن الذي أضرّ كثيرا ببلدان جنوب العالم أين تحدث معظم الصراعات وتدخل القوى الكبرى فهناك تهديد آخر لا يقلّ خطرا على حياة ملايين البشر عن طريق الإبادة البطيئة كما يصفها الاقتصادي عضو حركة لاهوت التحرير théologie de libération فرانتز هينكيلاماريت F.Hinkelamaret[19] هي الجوع، فهناك حسب إحصاءات منظمة التغذية والزراعة F.A.O مليار من البشر معرضين للموت جوعا في العالم سنة 2010.

إن الذين يستطيعون القيام بعمليات عسكرية بٱسم الأمم المتحدة هم أنفسهم الذين يوصدون الأبواب أمام أي محاولة لإصلاح حقيقي لقواعد التجارة العالمية والٱعتراف بالحقوق الاجتماعية لبلدان الجنوب[20]، إذا فقد الإنسان قيمه الأخلاقية فهل يصدقه أحد بأن هدفه إنقاذ الآخرين بواسطة الضربات الجوية أو ما أصبح يسمى السلاح في خدمة الإنسانية في تعبير سانشير روبيرو؟!

أ. س روبيرت A.C.Robert

إحـالات

1- Radio France Internationale, chronologie heure par heure de la crise ivoirienne www.rfi.fr

2- En 1982, le pacte Briand-Kellogg avait interdit la guerre comme moyen de politique nationale.

3- Olivier Corten " les ambigüités du droit d'ingérence humanitaire" ,le courrier de l'Unesco, Paris, juin 1999,www.aidh.org.

4- Emma Banino, "Las distintas formas de intervencion" Revista de Occidente, Madrid, janvier 2001, n° 236-237.

5- Tzvetan Todorov, Mémoire du mal, Tentation du bien Enquête sur le siècle, Robert Laffont, Paris, 200.

6- Mario Bettati, Le Droit d'ingérence, Mutation de l'ordre international, Odide Jacob, Paris, 1996.

7- Résolution 43/131, "Assistance humanitaire aux victimes des catastrophes naturelles et de situation d'urgence du même ordre", adoptée sans vote par l'Assemblée générale des Nations unies de 8 décembre 1988.

8- Résolution 2006/267, "protection des civils dans les conflits armés", 28 avril 2006.

9- Conseil de sécurité, CS/10215, 30 mars 2011.

10- Saint Augustin fait parti, avec thomas d'Aquin, des penseurs catholiques qui ont théorisé l'idée de "juste cause" qui légitimerait une guerre, alimentant un certain manichéisme.

11- Commission internationale sur l'intervention et la souveraineté des Etats, "La responsabilité de protéger", 2001, iciss.gc.ca/report-e.asp

12- Archives du Wordwide Faith News, 2000.

13- Libération, Paris, 21 mars 2011.

14- "kadhafi doit partir", tribune publiée par le Figaro, le Times, l'international Herald Tribune, le Washington Post et Al-Hayat le 15 avril 2011.

15- Le Monde, 13 avril 2011.

16- David Sanchez Rubio, "Interventions humanitaires. Principes, concepts et réalité", dans "Interventions humanitaires?", Alternatives Sud, vol. 11, n°3, Louvain – la – Neuve, 2004.

17- Lire François Danglin, "Pacte démocratique entre puissance du sud"? Le Monde diplomatique, mars 2011.

18- Olivier Corten, op cit.

19- Franz Hikelammert, Leben ist mehr als Kapital Alternativen zur globalen Diktatur des Eigentums, Publik-Forum Verlags GmbH, Oberursel, 2002.

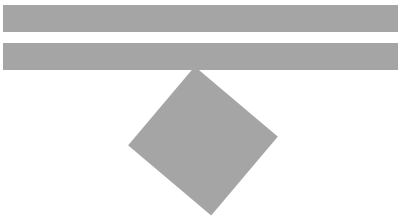

"مثلث ذهبي" أضلاعه الجامعة والبحث العلمي و الشركات:

الاستثمار في بناء الثروات و اقتصاد الغد

تحرير: باسكال بوريس و أرنو فيسييه ترجمة : الدكتور محمد قماري

" إن هذا المشروع يتطلب تعاضد عنصرين أساسيين: أصحاب الثروات وأرباب العقول، مع استبعاد البيروقراطية وتشييد المباني.. التي تبهر الناظرين.. ويشترط في العنصرين أن يكونا غضين، بمعنى أن يكونوا من الشباب، و ترك هذه العناصر تتفاعل على نار هادئة، فالعجلة تفقدنا الرغبة، ثم العمل على زيادة توهج النار كي نحافظ على توقد الحماس " ...

هيرفي لوبريل[1]

مدخل

كانت الجامعات البريطانية، خلال عقد الثمانينيات، تشكو من نفس المشكلات التي تعرفها الجامعات الفرنسية اليوم، وأهم ملامح هذه المشكلات: نظام جامعي متكلس (منغلق على نفسه) ومقطوع الصلة بمحيطه الاقتصادي. وقد عملت الحكومات المتعاقبة في بريطانيا (المحافظين والعمال) على ضخ أموال واستثمارات كبيرة[2]، قصد التحديث والابتكار بكل أشكاله، مع التشديد على **تشجيع التعاون بين البحث النظري وتطبيقاته الاقتصادية**، والهدف من هذا هو أن جعل بريطانيا العظمى بلدا قادرا على منافسة البلدان التقليدية في مجال الاختراع والابتكار (الولايات المتحدة الأمريكية واليابان) وأيضا القوى الناهضة (إسرائيل وتايوان وكوريا الجنوبية والهند) والتي تتطلع اليوم لتجاوزنا على صعيد حلبتنا في التكنولوجيات المتطورة.

لقد استطاعت فرنسا ابتكار عدة مفاهيم تجارية جديدة، وتأسيس مؤسسات عالمية رائدة، نذكر منها على سبيل المثال: المساحات التجارية الكبرى مع علامة كارفور (Carrefour)، و

---

1. هو مؤلف كتاب "تحفيز المشروعات: ما يمكن أن نفيده من وادي السيليكون"، Start-up, ce que nous pouvons encore apprendre de la Silicon Valley وهو أيضا مستثمر بعد أن كان أستاذا جامعيا.

2. بدءا من العام 1997.

شركة المطاعم الجماعية (Sodexo)، والشرائح الرقمية (Gemalto)؛ انطلقت هذه المؤسسات الضخمة قبل حوالي 30 عاما، وقد أثبتت فعاليتها، لكن يصعب اليوم رؤية تجارب مماثلة تأسست حديثا. وقد حاد بها السير على خطى قطار شركات المنتجات صغيرة الثمن (Low-cost) الذي ركبته ايرلندا و بريطانيا، منذ عدة عقود، فإن فرنسا وجدت نفسها مجبرة على تطوير اقتصاد جديد؛ إن أعين فرنسا تلحظ التطورات التي يقوم بها أبرز منافسيها، تجد نفسها في موقع ردة الفعل والتقليد، أملا في بعث "بطل قومي" في قطاع مماثل عوض التركيز في كيفية ابتكار النموذج الاقتصادي للغد.

في بريطانيا، تؤدي قطاعات الابتكار العلمي والمحاضن الجامعية دورا هاما، في الدفع بعجلة تأسيس الشركات القائمة على الملكية الفكرية، التي يتم تطويرها في مراكز البحث الجامعي، حيث تمتلك نصف الجامعات البريطانية حاليا محضنها الخاص (87 في بريطانيا مقابل 36 فقط في فرنسا).

كما أن 20 من المئة من الشركات المستفيدة من رأس المال بمخاطر، انبثقت من داخل الجامعات البريطانية. فحاضنة جامعة أكسفورد، مثلا، قد شكلت حجر الأساس في تأسيس أكثر من 40 شركة في السنوات العشر الماضية، بقيمة إجمالية تقدر بـ 2 مليار جنيه إسترليني أي حوالي 2 مليار و نصف مليار يورو[3].

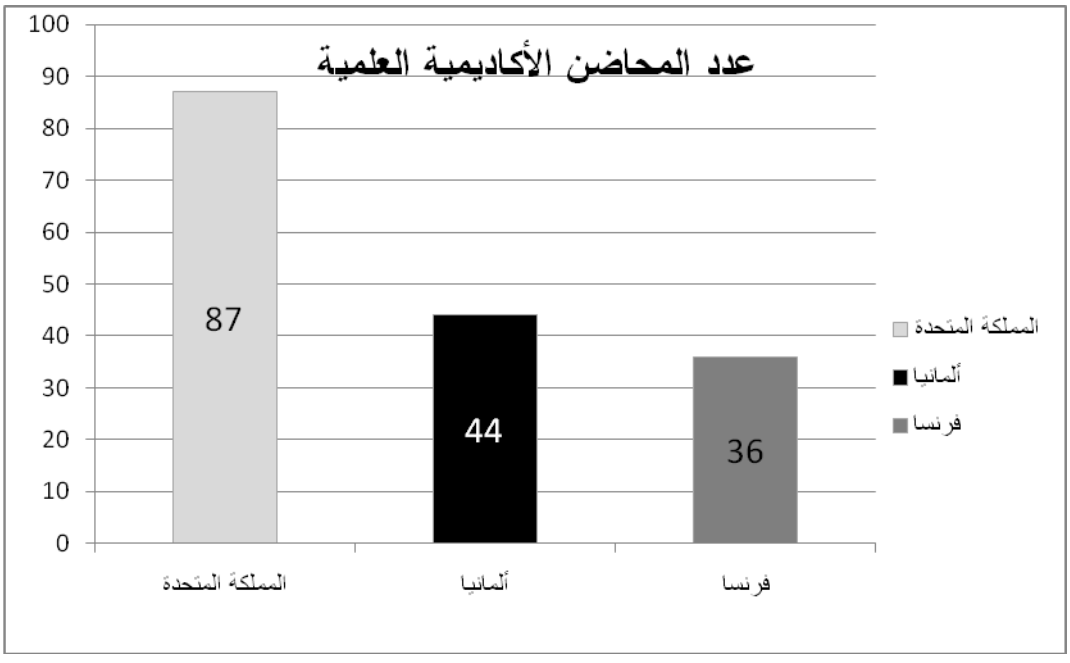

3. Innovation, oxford University

أمثلة لمحاضن من بريطانيا و فرنسا

	Imperial Innovation امبريال للابتكار 2006	ISIS Innovation إيزيس للابتكار 2006	Cambridge entreprise شركة كامبريج 2007	ESSEC Ventures أيسيك فنتور 2007
حصة رأس المال التابع للجامعة	%60	100%	100%	95%
عدد الموظفين	40	34	39	4
الاستثمار (مليون يورو)	17،3	3،8	6،1	25،0
عدد براءات الاختراع المسجلة	77	58	49	–

المؤسسات الجامعية البريطانية، هي قبل أي شيء آخر، فضاء ينبض بالحياة والتواصل بين الطلبة والأساتذة، تسمح بمزج مختلف المواهب، وتتيح على الدوام فرص التواصل والتبادل، وتحرص الجامعات على تهيئة كل ما من شأنه تشجيع وإعلاء هذا الحوار.

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الإصلاح الجامعي في بريطانيا أسهل منه في فرنسا؛ فقبل 25 سنة لاقت الإصلاحات البريطانية الهادفة إلى استثمار الملكيات الفكرية داخل الشركات التجارية تحفظا كبيرا، لكن الحكومات سواء من حزب المحافظين أم من حزب العمال حرصت على تشجيع هذه الخطوات التي لا ينكر أحد ثمارها اليوم.

1. النموذج البريطاني يأخذ بسبل النجاح

مقابلة بين فرنسا وبريطانيا: فمن الفائز؟

	فرنسا	**بريطانيا**
عدد الطلبة	2.260.000	2.340.000

عدد مؤسسات التعليم العالي	4305 (جامعة، مدرسة عليا، معاهد متخصصة..).	169
الدخول إلى الجامعة	نظام مفتوح للجميع، والبقاء لمن يجتاز الاختبارات الفصلية، (يرسب 50 من المئة من الطلبة في نهاية السنة الأولى ليسانس).	نظام مفتوح للجميع، مع وجود اختبار دخول يضمن مقعد لكل طالب.
معايير نجاح الجامعة أو المدارس العليا	كلما كانت نسبة رسوب مدخلات أو مخرجات الجامعة عالية، كانت قيمة التكوين معتبرة	كلما كانت نسبة مخرجات الجامعة عالية، بتحصل الطلبة على الشهادات، كانت قيمة الجامعة معتبرة
مدة الطور الجامعي الأول	3 سنوات، ويحصل 35 من المئة من الطلبة فقط على شهادتهم خلال 3 سنوات، فيما 22 من المئة من الطلبة لا يحصل عليها أبدا.	بين 3 و4 سنوات حسب التخصص، ويحصل 90 من المئة من الطلبة على شهادتهم خلال 3 سنوات.
ثقافة ونمط العمل	– الأفضلية للعمل الفردي. وليس هناك إمكانية للتواصل مع مشرف، وفي الامتحانات الأفضلية تعطى للتحريري عن الشفهي.	التدريب العملي ضمن فريق، مع وجود إشراف فردي وجماعي، و الأفضلية لتقديم الأبحاث وعرضها مهم بذات قدر الامتحان التحريري
معدلات العمل لفئة مادون 25 سنة. (2006)	29.3 من المئة	53.2 من المئة
السطر الأول من السيرة الذاتية	المؤهل الجامعي	الخبرات المهنية

النتيجة النهائية	**قل لي في أي كلية درست قبل سن 20، أقول لك من أنت.**	**قل لي ماذا فعلت بعد تخرجك، أقول لك ما تستطيع فعله.**

لابد لنا من الإقرار بعد معاينة طرق تقييم التأهيل الدراسي أن هناك مفارقات بين فرنسا وبريطانيا، فمن ناحية، تعطي بريطانيا قيمة أكبر للخبرات الشخصية وتعدد التخصصات والمهارات العملية بينما تنظر فرنسا بشكل أولي إلى اتساق المسيرة الدراسية والتخصص وترفع من تقييم المؤهل الجامعي.

من ناحية أخرى، تعتبر الجامعة البريطانية مكانا للتأهيل الثقافي والاجتماعي أكثر منه لتعلم مهنة بعينها، فعلى سبيل المثال، يحرص الطلبة على إنشاء شبكة علاقاتهم الشخصية ويعتبرون ذلك عاملا جوهريا في التجربة الجامعية. كما يشدد رؤساء الجامعات مع بداية السنة الجامعية في كلمة الترحيب على أهمية الحياة الثقافية داخل المنظمات الطلابية طيلة سنوات الدراسة، مشددين على أهميتها أكثر من التعليم في ما يتصل بالعمل في مستقبلهم بعد التخرج.

فخريج علم الآثار لا يضيره بعد تخرجه، أن يشتغل في مجال المالية، كما أن الأمر لا يثير استغراب الناس، وأحد الشواهد على ذلك أن برينت هوبرمان (Brent Hoberman) مدير شركة الإنترنت العالمية للطيران (Lasteminute.com)، كان قد درس الأدب الفرنسي والأدب الألماني قبل أن يدخل في تجربة التجارة الرقمية ويقول "بعد سن الـ30، نقوم بتوظيف العامل بالنظر إلى نجاح تجربته المهنية السابقة، ولا يتم توظيفه بالاعتماد على شهادته".

من هنا يبدو التوظيف أكثر مرونة وسرعة، كما أن الاختصاص الجامعي لا يجب أن يكون عائقا في المسيرة المهنية، وسوق العمل ديناميكي بامتياز، وليس هناك توقيت يحول دون التفكير في تغيير المسار المهني، بل عكس ذلك هو الصحيح.

1- مجتمع جامعي من البداية

نجاح الطالب: شغل الجامعات البريطانية المركزي

إن قاعدة "عدم الانتقاء" عند دخول الجامعة الفرنسية، ما هو في حقيقة الأمر إلا مسمى مقبول سياسيا، فترجمته الواقعية هي "الانتقاء عبر الإخفاق"، فهناك 52 من المئة من طلبة الليسانس الذين يخفقون في نهاية السنة الدراسية الأولى، مقابل 4،8 من المئة في بريطانيا فقط؛ وهكذا يغادر 90 ألف طالب الجامعة سنويا في فرنسا دون الحصول على شهادة. والجدير بالذكر

أن الحكومة البريطانية أنفقت 800 مليون جنيه إسترليني (1،03 مليار يورو) منذ عام 2002 من أجل خفض معدلات التخلي عن الجامعة خلال المسار الدراسي[4].

إن الاستثناء الفرنسي، القائم على التعايش بين كليات تقوم على التشدد في انتقاء الطلبة وأخرى غير انتقائية، أصبح بمرور الوقت يرسي نظاما مختلا، والحقيقة الماثلة للعيان وأمام الجميع: أن هناك جامعات تشكو من شح التمويل، فيما مدارس كبرى يحلم الطلبة بالدخول إليها أكثر من أي وقت مضى. وحاليا لا تستقطب الكليات الجامعية غير الانتقائية سوى 46 من المئة من الحائزين على الباكلوريا. ومنذ عام 2001 تتزايد أعداد المنتسبين للسنوات التحضيرية في كبرى الكليات بشكل ملحوظ، أكثر من2.2 من المئة عام 2005، والحال سيان في كليات التجارة، الكبيرة منها والصغيرة، والتي يزيد عددها هي أيضا منذ 30 سنة، أكثر من 4، من المئة 5 عام 2005.

الانتقاء والتوجيه داخل الجامعات البريطانية، يعمل على نحو يسمح لكل طالب بالحصول على مقعد وهو نظام يضاهي، بعض الشيء، ما هو معمول به داخل كليات التجارة الكبرى في فرنسا، كما هو مبين في المربع نهاية هذا الفصل.

وأهم ميزة في هذا النظام هو قيامه على مبدأ تبادل المنفعة، فالجامعات من ناحية يحق لها اختيار من تريد من المتقدمين لها ولكنها مقابل ذلك تقدم كل ما بوسعها من أسباب نجاح المشاريع الدراسية و المهنية للطلبة.

وذلك، مكمن مسؤولية الجامعة البريطانية في ضرورة تحقيق نجاح طلابها وهو ما مؤشر مقياس الجودة بالنسبة لها، بينما في الجامعات الفرنسية يحدد هذا المعيار على أساس رصد و تحديد من سيخفق بدءا من السنة الأولى الجامعية لطلبة الليسانس أو طلبة الأقسام التحضيرية.

والجدير بالذكر، أن رئيس الجامعة في بريطانيا، يقوم عادة باستقبال الطلبة الجدد وأولياء أمورهم، ليشرح لهم أن نجاحه الشخصي، مرتبط بحصول جميع الطلبة على شهاداتهم. أما رئيس الجامعة في فرنسا فهو شخصية محجوبة عن الطلبة الجدد وأوليائهم، وهو ما يجعل هؤلاء في مواجهة نظام لا يعرفون الأشخاص القائمين عليه وبالتالي لا يتحمل مسؤوليته أحد بعينه، وكل ما يعرفه الطلبة وأولياء أمورهم أنهم بصدد نظام قائم على انتقاء الطلبة بالرسوب، وإن لم يصرح أحد بذلك.

في المملكة المتحدة، الرسوم الجامعية تقدر بحوالي 4 آلاف يورو سنويا لكل طالب ليسانس في النظام الجديد، و بدخول **مفهوم "الخدمة"**، فالطالب يعتبر بالأساس: **"زبون ومستهلك"** لا

4. وكالة الإحصاء التربوي (Education Statistics Agency)

كمستغل ومنتفع، ومتوسط الديون المترتبة عن الطالب المتخرج في الجامعة البريطانية ترتفع إلى 21 ألف يورو، فالوقت الذي يقضيه في الجامعة يجب أن يكون نافعا ويقدم قيمة مضافة، ومنه تم التأسيس لنظام متعدد الاختصاصات ويعمل بصورة أفقية ومرنة تتراكم، يضمن تكوينا حسب الطلب وبحسب تطلعات كل طالب.

في الوقت نفسه، طورت الجامعات البريطانية خلال السنوات الماضية نظاما للمنح الدراسية، وفق معايير اجتماعية، كما هو معلوم به في فرنسا، واليوم تصدرت بريطانيا جارتها في هذا النظام وأصبح 60[5] من المئة من طلبة الليسانس والبكالوريوس يعيشون من منح دراسية مقابل 30[6] من المئة في فرنسا.

التمكن من قروض: شركة القروض الطلابية

تمنح مؤسسة القروض الحكومية البريطانية العديد من القروض المشجعة وتتراوح بين 4 آلاف و 8 آلاف يورو في السنة، يبدأ الطالب في تسديد هذه القروض بدون أرباح بعد الانتهاء من دراسته وبداية العمل وتقاضي راتب سنوي يزيد عن 20 ألف سنويا والسداد يأتي بنسبة 9 بالمائة من الراتب الشهري. في حين أن القروض الطلابية التي تعطيها البنوك الفرنسية منذ عام 2008 لا تعتبر مشجعة بسبب شروطها وفوائدها.

تؤدي عملية الانتقاء والتوجيه عند دخول الجامعة إلى إرساء قواعد فعلية للمتلازمات الناجحة: من جهة خدمات – جودة ومن جهة أخرى مقارنة – تلاقح مما يقود إلى تحولات عميقة في المشهد الدراسي الجامعي.

- **الطلبة والأساتذة يشكلون مجتمعا جامعيا**

تعميم نظام المجمعات الجامعية campus/collège[7] على جامعات المملكة المتحدة جميعها، (أكسفورد، كمبردج، ديرهم، يورك)، أتاح للطلبة والأساتذة أن يعيشوا متجاورين بعضهم بجنب بعض، وأن يشكلوا بالتالي مجتمعا، فالطالب يستطيع الطالب فيه أن يتواصل مع أساتذته في يسر وسرعة.

كما تقدم كل جامعة بريطانية لطلبتها نظام **توجيه** قصد مدهم بأسباب النجاح، فالموجه هو أستاذ بالجامعة، يوجه الطالب في كل ما يتصل بدراسته (التسجيل، المتابعة، نصائح، التحضير

[5]. 30 من المئة من الطلبة يستفيدون من منحة كاملة تقدر بـ4000 يورو سنويا، و 30 من المئة من منحة جزئية تقدر بـ2000 يورو سنويا.

6. منحة تقدر بـ3921 يورو سنويا.

[7]. مؤسسة مستقلة وإن كانت جزءا من الجامعة، تسهر على تحضيرات الطلبة لامتحاناتهم وفي حياتهم الجامعية بصورة عامة.

للامتحانات)، وأيضا في كل ما له علاقة بإقامته داخل الجامعة (الحياة الاجتماعية ونشاط الجمعيات)، كما يمكن أن يتدخل الأستاذ الموجه في أمور تعني الطالب خارج الجامعة (كالتمكن من العلاج أو السكن أو العمل أو التمويل...).

ويختلف عدد الطلبة الذين يقوم أستاذ واحد على توجيههم باختلاف المعاهد والجامعات (بين 3 و 10 طلبة في الغالب)، فضلا على أن كل الجامعات توفر لمجموعة مكونة من 1 إلى 4 طلبة حصة توجيه مدتها ساعة أسبوعيا تحت إشراف أستاذ معين. خلال هذه الساعة يمكن مناقشة عمل طالب ما أو تعميق فهم موضوع محدد.

مزية نظام المجمع/ التوجيه (المجمعات الجامعية والتوجيه الدراسي) يكمن في إيجاد مساحة هامة للتواصل بين الطلبة والأساتذة من جهة، ومن جهة أخرى الإلزام الشخصي للأساتذة في متابعة مسار كل طالب.

أهمية الحياة الطلابية: الجانب الاجتماعي ووسط المنظمات

منذ أن تطأ قدما الطالب أرض الجامعية، يدعى إلى المشاركة في جمعية طلبة السنة الأولى. وخلالها تقوم الجمعيات الطلابية بشتى توجهاتها الثقافية والرياضية والسياسية والاجتماعية باستقطاب أعضائها. تعتبر المشاركة في الحياة داخل الجامعيات مهمة جدا في الجامعات البريطانية وتؤخذ بالاعتبار مع نهاية الأعوام الدراسية. دليل ذلك أن أرباب الأعمال يولون هذا المحور اهتماما كبيرا ويعتبرون مسألة أن يتولى منصب رئاسة جمعية طلابية بأهمية الحصول على شهادة جامعية.

UCAS[8] خدمة القبول و التسجيلات في الجامعات و الكليات: مسار واضح لدخول الجامعات

تخضع عملية الانتقاء والتوجيه عند دخول الجامعات البريطانية وبشكل حصري لنظام UCAS (خدمة القبول والتسجيل في الجامعات والكليات)، وهو بوابة المرور لكل حملة الباكلوريا في بريطانيا، والتي تضمن له مقعدا في التعليم العالي. منذ شهر جانفي (أكتوبر من العام المنصرم لجامعتي كامبريدج وأكسفورد)، كل طالب ملزم باختيار فرع دراسي وقائمة من 5 جامعات يرغب بالدراسة فيها،ويتصل بإجابة بالموافقة أو الرفض أو موافقة مشروطة مع نهاية شهر مارس، و بحسب معدلات الثانوية العامة يختار الطالب واحدة من الجامعات التي قبلت ملفه. يتكون الملف من (كشف العلامات ورسالة دوافع ورسالة تزكية). وفي حال لم يتصل الطالب بأي قبول، فإنه

[8]. Universities and Colleges Admissions Service

يتقدم للقبول الثاني خلال شهر يوليو إذا تعلن خلاله الجامعات عن التخصصات أو المقاعد الشاغرة و حينها يختار الطلبة ما يناسبهم.

هذا النظام، يسهل بشكل واضح آلية الترشيح للجامعات، ويخفض رسوم ملف الترشيح إلى 15 جنيه إسترليني لكل طالب، وهي قيمة زهيدة إذا ما قارناها بما يدفعه الطالب الفرنسي الذي يرغب اجتياز مسابقة دخول مدرسة عليا(بين 100و 300 يورو لكل مؤسسة).

إن المملكة المتحدة قد أسست لنظام **مفتوح مبني على التنافس الواسع بين الجامعات بعضها بين بعض وبين وفروعها العلمية**، في حين تنتهج فرنسا نظاما مغلقا يسير بسرعتين: المنافسة شرسة بين كبرى المدارس وغير ذات قيمة بين الجامعات. وجميع الناس مدرك لصعوبة الانتقال أو اختيار فرع علمي إذا حصل وأختار فرعا معينا.

وخلاصة القول: أن النظام الأكثر انسجاما والأكثر ديمقراطية، ليس بالضرورة ما نعتقده كذلك.

2- مجمعات جامعية كبرى

يكاد تعداد الطلاب في كلا البلدين (بريطانيا وفرنسا) أن يكون متساويا(2 مليون و 340 ألف في بريطانيا نظير 2 مليون 260 ألف في فرنسا)، غير أن المفارقة تكمن في عدد مؤسسات التعليم العالي 169 مؤسسة للتعليم العالي في بريطانيا، مقابل 4300 في فرنسا، ومجلس المدارس العليا يضم أكثر من 198 مؤسسة مختلفة الاختصاص.

والمنظومة الفرنسية غير واضحة في الخارج، ويجب عليها أن تضاعف من شفافيتها ومن حجم مؤسساتها وأقطابها الجامعية، لتتمكن من دخول ميدان المنافسة العالمية من أفضل الجامعات الدولية إذ تضم الأقطاب البريطانية ما بين 20 إلى 30 ألف طالب لكل واحد منها.

عدد الطلبة في أربع مؤسسات متميزة في البلدين: أحادية التخصص في فرنسا و متعددة الاختصاصات في بريطانيا.

فرنسا	بريطانيا
ENA الكلية الوطنية للإدارة : 467	كامبريدج : 28700
Polytechnique الكلية الوطنية متعددة التقنيات: 1660	أكسفورد : 24600
HEC Paris المدرسة العليا للتجارة : 2700	LES كلية لندن للاقتصاد : 8800

Science po كلية العلوم السياسية: 6700	الكلية الامبريالية: 13400
المجموع: 11527	75500

المصادر: المواقع الإلكترونية للمدارس و الجامعات نفسها

نلاحظ اليوم في فرنسا إدراكا فعليا لأهمية التجمعات والتحالفات الجامعية والكليات الكبرى، ولعل الشراكة الحديثة التي ربطت كلية العلوم السياسية بباريس بالمدرسة العليا للتجارة شاهد على رغبة هذه المؤسسات في إيجاد أقطاب متعددة التخصصات، قادرة على التموقع داخل الخارطة الأوربية وكسب بعض الدرجات في تصنيف شنجهاي العالمي.

كما قامت 9 أقطاب معنية بشؤون البحث العلمي والتعليم العالي بإنشاء شركات علمية فيما بينها نذكر منها مثلا جامعات أكس مارسيليا Aix- Marseille و ليون Lyon و بوردو Bordeaux و تولوز Toulouse و الجامعات الأوربية في بروتاني Université européenne de Bretagne و جامعة باريس الجنوبية Université Paris Sud نانسي Nancy و جامعة باريس الشرقية Est Université paris و جامعة باريس التقنية Paris Tech.

غير أن هذه التحالفات الجامعية تقوم كعادتها في فرنسا بإنشاء وحدة إدارية جديدة دون إحداث تغييرات هيكلية في نظم التعليم. نذكر على سبيل المثال مشروع الدولة الأخير المتعلق بأقطاب البحث والتعليم العالي press الذي تبلور علميا بخطوة ركيكة لم تتجاوز مجرد إضافة بند قانوني جديد على هيكلة إدارية غامضة مسبقا. الأهم من هذا وذاك، هو أن المشروع قيام جهات مستقلة بعملية التقييم وتقوم بنشر نتائج دراستها بشكل واضح وفي متناول الجميع ضمانا و حرصا على الشفافية التامة، فجامعات الغد هي تلك التي تقوم على أسس أقطاب التميز متعددة الاختصاصات و ليس على المراكز الجامعية أحادية الاختصاص.

في قمة جبال الألب:

مدينة غرونوبل الفرنسية هي بمثابة وادي السليكون فرنسي

تعتبر واحة البحوث لمدينة غرونوبل في طليعة التقنيات الحديثة وتضم 19 ألف باحث وحوالي 200 مختبر و60 ألف طالب فيما تشرف على 10 مدارس للمهندسين وكلية كبرى للإدارة وشبكة هامة من الشركات التجارية هي: STMicroelectronics, Hawlett-Packard,

Catepillar, Shneiderelectric, Alstom Power Hydro, Siemens, France Telecom. وهناك مشروع واعد جديد يتمثل في قطب التطوير والابتكار Giant الذي سوف يضم مراكز Grenoble و Alpes و Iseres و Nanotechnologies. يهدف هذا المشروع إلى إنشاء مركز ضخم للتكنولوجيا على غرار مركز Massachussetts الأمريكي بحيث تتجمع على نفس الرقعة الأرضية الكبرى المراكز البحثية الفرنسية وهي CEA Grenoble, Synchotrom, معهد Laue-Langevin ومعهد البيولوجيا البنيوية, إضافة إلى كليات مهندسين وإدارة منها كلية مدينة غرونوبل للإدارة وقطب Minatec الذي يعتبر أول مركز فرنسي لدراسات النانو وثالث أكبر مركز في العالم.

يعول قطب التطوير والابتكارGiant على مسألة تواصل الباحثين والشركات وهي آلية قد أثبتت فاعليتها التكنولوجية في مدينة غرو نوبل ، وقد ساهم تأسيس حاضنة Grain عام 1999 على تسهيل عملية نقل المعارف بين مختبرات البحث العلمي وقطاع الصناعة. منذ وقت قريب ساهمت هذه الحاضنتان في تأسيس مركز توليد الشركات التكنولوجية في جبال الألب ومهمتها مساعدة نشوء المشاريع الصغيرة. تستفيد هذه المؤسسات من دعم جيد من المستثمرين الأفراد فبعد أن كانوا 15 عام 2001 أصبحوا اليوم قرابة 100 عضو بمحفظة استثمارات تقدر بـ 2 مليون يورو و توليد 73 شرطة تجارية منها 17 عام 2007. إضافة إلى المعارف العلمية ، استطاعت المراكز الواقعة في مدينة غرونوبل أن تطور كفاءات تجمع بين الجانبين المالي و التجاري داخل مراكزها التأهيلية والبحثية. وقد تم انتخابها – عاصمة سرية– لتكنولوجيا النانو من قبل صحيفة التايمز الأمريكية وهي نموذج يحتذى به لتطوير التعليم العالي الفرنسي والبحث.

بهذه القوة و الامتيازات، تم اختيار غرو نوبل لتكون أول مدينة يطبق فيها نظام opération campus التي أقرتها الوزيرة السابقة للتعليم العالي فاليري بيكريس و هي عملية تستهدف إنشاء 10 مجمعات جامعية كبيرة في فرنسا. بناء عليه، ستحصل جامعات غرو نوبل 1 و 2 و 3 وكلية التخصصات المتعددة وكلية غرو نوبل للإدارة على مبلغ 350مليون يورو لتتمكن من إنشاء مجمع جامعي متعدد التخصصات يستطيع منافسة أكبر الجامعات الأمريكية و البريطانية .

مؤسسات جامعية تتيح استقطاب مزيدا من الطلبة الأجانب

تستقطب بريطانيا في أيامنا هذه، حوالي 330 ألف طالب أجنبي أي بزيادة قدرها 70 ألف طالب أكثر من فرنسا التي لا تستضيف سوى 260 ألف طالب أجنبي، مع العلم أنه في سنوات

الثمانينات الأولى كانت الدولتان متساويتين في عدد الطلبة الأجانب الدارسين فيهما، أي حوالي 120 ألف طالب.

ويشكل الطلبة القادمين من قارة آسيا أكبر نسبة أجانب في الجامعات البريطانية 30 بالمائة، في حين تعتبر نسبتهم هي الأقل في فرنسا 10 بالمائة. ولم يعد سرا لأحد أن اقتصاد وثروات الغد سوف تكون مرتبطة بالقارة الآسيوية، وخاصة الصين والهند. وعلى الرغم من ارتفاع الرسوم الدراسية السنوية في بريطانيا التي تبلغ 16 ألف يورو للطلبة القادمين من خارج الاتحاد الأوروبي مقابل 165 يورو في فرنسا، إلا أن مملكة بريطانيا تؤهل 4 أضعاف ما تستقبله فرنسا من الطلبة الصينيين و17 مرة عدد الطلبة القادمين من الهند، وحتى كبرى المدارس الفرنسية التي نعتبرها باهظة الرسوم (8 آلاف يورو)، فهي تضل أرخص بمقدار النصف مقارنة بالرسوم البريطانية. هناك أمر أكيد وهو أن كل من هؤلاء الطلبة سوف يلتفتون إلى سوق العمل البريطانية بعد تخرجهم، وهنا تكمن العبرة.

فضلا عن الدور الجوهري الذي تتبناه بريطانيا من حيث جاذبية جامعاتها، نود أن نطرح سؤالا هاما يتعلق بكيفية فهم الفجوة المتزايدة في الحجم التي باتت يفصل بين الدولتين خلال الـ 20 سنة الماضية.

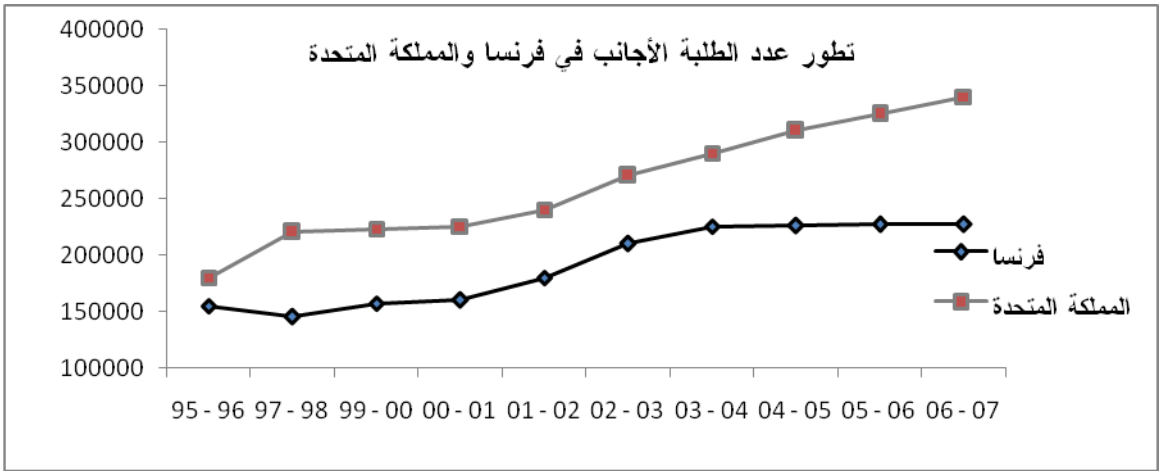

عدد الطلبة الأجانب في فرنسا والمملكة المتحدة سنة 2007

	فرنسا	المملكة المتحدة
عدد طلبة منطقة اليورو	65781	106225
عدد الطلبة خارج منطقة اليورو	197345	223855
المجموع	263126	330080

الطلبة الأجانب: في بريطانيا وفرنسا حسب مناطقهم

	فرنسا	المملكة المتحدة
إفريقيا	109701	29429
أوربا	65781	10255
آسيا	39974	147384
أمريكا الشمالية	3639	18765
أمريكا الجنوبية	9648	8488

الجنسيات العشر الأكثر حضورا في البلدين

	فرنسا	المملكة المتحدة
1	المغرب (29859)	الصين (52677)
2	الجزائر (22228)	اليونان (19685)
3	الصين (14136)	الهند (16685)
4	تونس (9750)	ايرلندا (16335)
5	السينغال (8766)	الولايات المتحدة الأمريكية (14385)
6	ألمانيا (5887)	ألمانيا (11553)
7	الكاميرون (5043)	فرنسا (11685)
8	لبنان (4695)	ماليزيا (11474)
9	رومانيا (4320)	هونغ كونغ (10780)
10	ايطاليا (4021)	نيجيريا (8147)

و لأن بريطانيا انتهجت، مع نهاية عقد الثمانينيات، سياسة استقلالية الجامعات فإن ذلك شجع مؤسسات التعليم العالي على استقطاب موارد مالية إضافية عن دعم الدولة، منها تطوير سياسة انخراط عالمية تتسم بالدينامكية وبالفاعلية، تعمل على جذب طلبة أجانب جدد من بين الأكفاء والمتميزين.

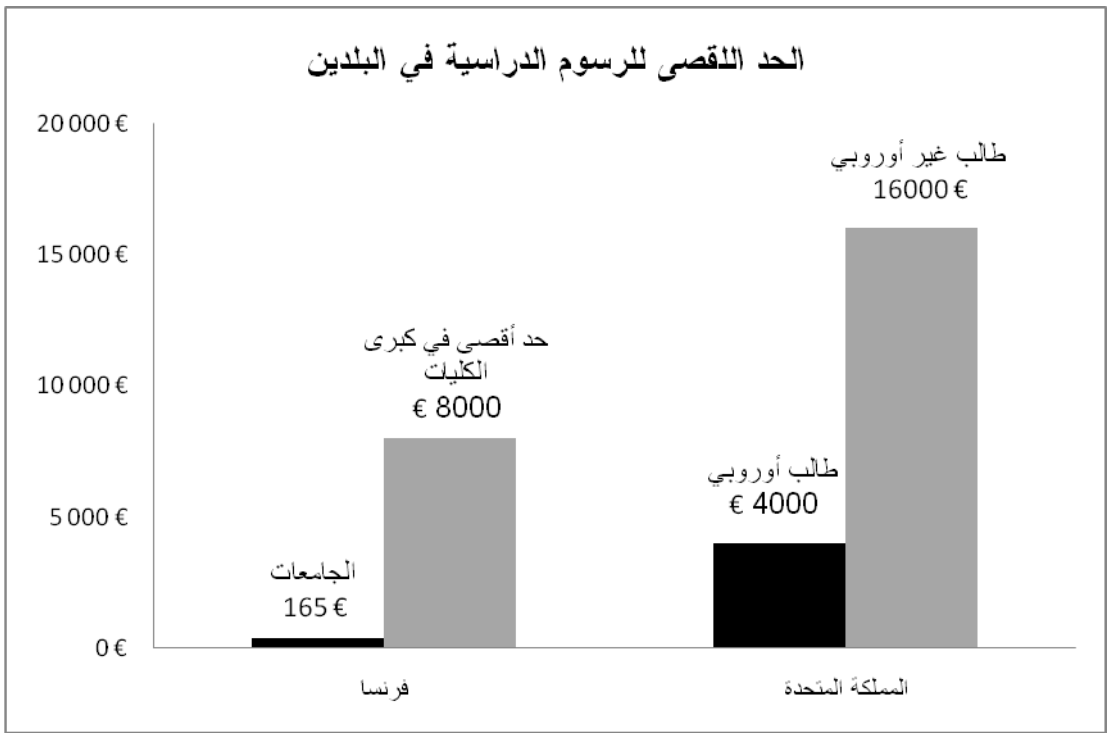

ولأنها أحسنت طرائق جذب الطلبة من جميع أنحاء العالم إليها، فإن الجامعات البريطانية استطاعت أن تحدد رسوما دراسية مضاعفة 4 مرات للطلبة الأجانب، من خارج فضاء الإتحاد الأوروبي. وغدت سياسة عولمة الجامعة احد الأولويات، ومصدر هام للموارد المالية اللازمة لتسيير الجامعة وإدارتها. وعلى سبيل المثال فإن **ثلث موارد كلية لندن للاقتصاد يتم تحصيلها من الطلبة الأجانب.**

سياسة الانفتاح هذه، أتت بثمارها فالجامعات البريطانية لم تحظ بسمعة كالتي تحظى بها اليوم؛ ولأنها تتمتع بـ"**علامة**" محترمة، فذلك فتح أمامها الطريق لفتح فروع لها في العام أجمع، لاسيما في الصين وماليزيا، على الرغم من سبق المعهد الوطني للتجارة و إدارة الأعمال الفرنسي الذي كان أول من افتتح فرعا له في سنغافورا.

إن تصدير الجامعات البريطانية، في أنحاء المعمورة، هو أيضا وسيلة هامة تضمن للملكة المتحدة تحقيق **امتداد ثقافي واقتصادي** عبر العالم، فضلا عن كونه مكسبا اقتصاديا للبلد: حيث تقدر إسهامات الطلبة الأجانب في الاقتصاد البريطاني بـ 3 مليار يورو، وتوفير أكثر من 22 ألف وظيفة[9].

- **إتقان اللغة الإنجليزية: أفضلية تنافسية لبريطانيا على فرنسا، ويمكن لفرنسا تعويضها**

[9] Higher Education policy Institute.

أن تستشعر الإطارات وإطارات المستقبل من الفرنسيين، بأنهم في حاجة ملحة إلى إتقان اللغة الانجليزية، فهذا من الأمور البديهية، وإن يكن الأمر كما يقول ريتشارد ديسكوينغ Richard Descoings: "**إن طلبتنا يفضلون الحديث بلغتين أجنبيتين دون إتقان لهما من أن يتقنوا التحدث بالانجليزية**"؛ فلو قصد شابان فرنسيان بكفاءة متكافئة سوق العمل: فإن الذي يتحدث اللغة الانجليزية بطلاقة منها، سيجد آفاق العمل أمامه أكثر رحابة.

واستنادا على دراسة أنجزتها غرفة التجارة والصناعة بباريس، العام 2003، فإن ما يقارب نصف الشركات العاملة في مجال التصدير تقدر بأن أقل من 10 من المئة من موظفيها فقط قادر على التحدث بطلاقة بلغة أجنبية؛ وفي ذات السياق قدرت 63 من المئة من الشركات أنها تتجه إلى جعل اللغة الانجليزية لغة العمل فيها قصد تطوير أعمالها.

إن الخلل الحاصل بين ما يتطلع إليه أرباب العمل وبين **مستوى الفرنسيين اللغوي عمق الهوة التنافسية.**

- **Globish تأهيل متاح للجميع**

إن اللغة الإنجليزية المطلوبة اليوم في عالم المال والأعمال، ليست تلك اللغة الأدبية التي تدرس بصورة سيئة في المدارس، وإنما هي انجليزية تواصل فاعلة تتيح التبليغ: والمعروفة بـ GLOBISH أو GLOBAL ENGLISH أي الإنجليزية الشاملة.

وتتطلع فرنسا إلى تحقيق هدف طموح، وقابل للتجسيد، يتمثل في تمكين 80 من المئة من السكان الناشطين فيما دون سن 40 من تعلم اللغة الإنجليزية بعد 10 سنوات، ومعنى ذلك الدخول في استعداد تام للمنافسة في سوق العمل الدولي، ومن أجل تحقيق ذلك، فإن عدة خطوات عملية يمكن اعتمادها.

- **TOEIC[10]: طريقة لتقويم اللغة الانجليزية العملية و وسيلة للتقدم فيها.**

طورت المؤسسات الخاصة التي تعنى بتعليم اللغة الإنجليزية وسائل منهجية لتقويم مستوى إتقان هذه اللغة بين الفرنسيين، ومنها مثلا Wall Street Institute ، وجاءت النتائج مزعجة ومنذرة: **فـ85 من المئة من تلاميذ الباكلوريا لا يمتلكون إلا رصيدا يسمح لهم، بالكاد، الاستعانة**

[10]. Test Of English for International Communication

به في السفر. فلا مجال إذن للحديث عن استعمالها في المجال المهني، بينما يقتضي الحال التمكن من مستوى أرفع بكثير، إذا أردنا ضمان الحضور في عالم معاصر يشتد فيه التنافس.

إن TOEIC اليوم هو اختبار اللغة الانجليزية الأكثر اعتمادا في العالم، وتتزايد طلبات الشركات عليه، ويستغرق إجراء الاختبار ساعتين من الزمن، يجيب خلالها المتقدمون على 200 سؤال متعدد الاختيارات بمعدل 100 سؤال في الاستيعاب الشفهي، و100 سؤال أخرى آخر للاستيعاب الكتابي والقراءة. ومن مواضع ضعف في هذا الاختبار الحالية، عدم قدرته على اختبار مهارات المرشح في المحادثة، وهو الخلل الذي يسعى الاختبار إلى سده في إصداره لعام 2008 "TOEIC الكتابي و الخطابي". وهو ما يتيح اختبار مستوى المرشح من حيث القدرات الكتابية والشفهية معا.

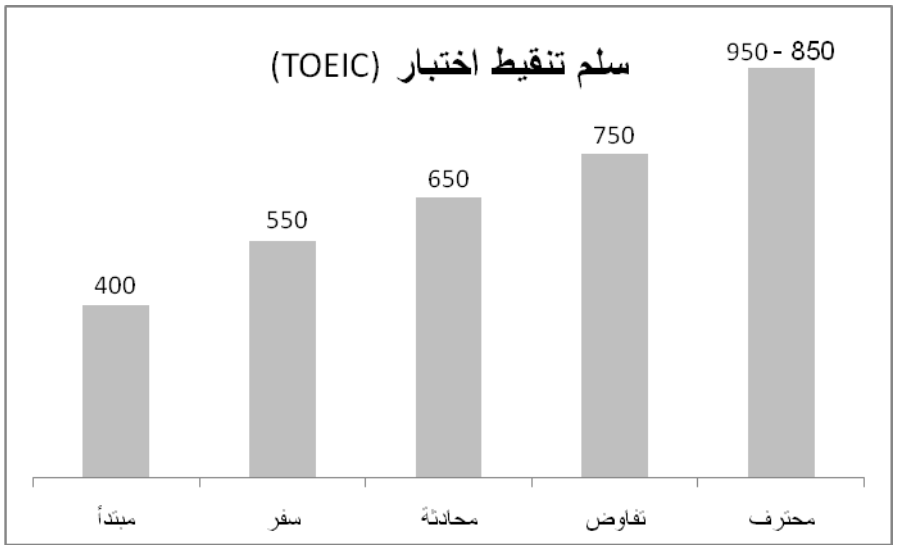

إن بلدانا أوربية أخرى، ليست الانجليزية لغتها الأم، قد حققت نتائج أفضل: فمثلا **85 من المئة من الحاصلين على الباكلوريا في ألمانيا قد بلغوا مستوى "التخاطب"**. وفي اسبانيا وايطاليا أين كان مستوى الانجليزية فيهما أقل بكثير من مستوى الفرنسيين قبل ثلاثين سنة، بلغوا اليوم إلى مستوى يضاهي مستوانا، **ويتفوقون علينا بمستوى تقدم أعلى من مستوى الفرنسيين**. غدت إذن الضرورة ملحة على الشركات أن تواصل عمل منظومة التربية الوطنية، وتأخذ على عاتقها ما يؤهل القوى العاملة الحصول على مستوى "الحوار" كحد ادني، عليها أيضا تأهيل 80 بالمائة من الكوادر ممن هم دون 40 سنة لبلوغ مستوى "النقاش" في غضون السنوات الـ 5 القادمة.

- **خطوات عملية من اجل تحقيق هذا الهدف.**

1. التعليم الابتدائي والثانوي

- جعل التلاميذ يتخصصون مبكرا في اللغة الانجليزية، قبل أي لغة أخرى، وفرض مركز الصدارة للغة الانجليزية كونها لغة حية.

- تطوير الأفواج الدولية.

- **تجنب تعلم الانجليزية على أنها لغة ميتة،** والتطور المحسوس يحدث يوم أن يكون 75 من المئة من الحصص التعليمية تتم عبر "الحوار، الاستماع، الاستذكار" و25 من المئة عبر القراءة والكتابة، وما يحدث اليوم أن صورة التعلم هذه معكوسة، فالرهان إذن يكمن في تحويل أقسام الدراسة الحالية إلى أقسام ذات مستوى، حيث تخصص 3 من 4 من الحصص التعليمية إلى مخابر اللغات.

- القيام بتقويم سنوي لمستوى التلاميذ في الانجليزية، وذلك عن طريق اختبار موحد لكل التلاميذ، كما هو الحال عليه في المدارس الخاصة.

2. التعليم العالي

- إخضاع الطلبة الجدد لاختبار المستوى في اللغة الانجليزية، وذلك لمعرفة مستوى الطلبة الجدد وسد حاجاتهم في مدة سنتين.

- تعميم وحدات لتعلم الانجليزية في كل الاختصاصات، وذلك من شأنه فرض الانجليزية.

3. هدف الشركات: تحسين التمكن من الانجليزية بين الموظفين لخفض الكلفة

- تقويم مستوى الموظفين في اللغة الانجليزية، وهو اختبار يمكن أن توفره مجانا بعض الشركات الخاصة.

- في إطار التكوين المتواصل، يجب تشجيع العمال على استثمار حقهم الشخصي في التكوين D.F.I(وهو ما يتيح لكل عامل الاستفادة من 20 ساعة تكوين في السنة لمدة 6 سنوات) قصد متابعة دروس ملاءمة المستوى مع تقويم سنوي لقياس التطور الحاصل،

فمستوى "المحافظة" 650 نقطة يمكن أن يصل إليه مرشح بمستوى السنة النهائية ثانوي في عام واحد وبحجم ساعي ما بين 80 إلى 160 ساعة.

- **كلفة زهيدة: تتراوح ما بين صفر و35 من المئة بالنسبة للشركات**[11].

إضافة إلى ذلك، هناك خطوات عملية يمكن القيام بها حسب كل مرحلة.

مراحل التعليم الابتدائي و المتوسط

- تأهيل التلاميذ في اللغة الانجليزية بشكل مبكر جدا، قبل أي لغة أجنبية أخرى و منحها الأولوية في اللغات الحية التي يتم تعلمها في المدرسة
- تطوير الأقسام الدولية.
- التخلي عن منهج اللغة الانجليزية كلغة ميتة، فالتقدم يكون ملحوظا حين تبنى العملية التعليمة بنسبة 75 بالمائة وفق صيرورة " المحادثة – الاستماع – التكرار" و 25 بالمائة بالقراءة و الكتابة . إلا أن هذه التراتبية قد أغفلت تماما اليوم و علينا إعادة هيكلة المنهجية التعليمية للغة الإنجليزية على نحو يقضي بإنشاء مستويات مختلفة و غالبيتها على هيئة مختبرات لغوية.
- الاستعانة بقدر المستطاع بالمدرسين ممن تكون الانجليزية لغتهم الأم ، ذلك يسهل تعلم لغة المحادثة .
- تقييم مستوى التلامذة سنويا من خلال اختبار موحد كما تفعل معاهد اللغة .
- توزيع التلامذة وفق المستويات اللغوية من أجل الحصول على صفوف متساوية من حيث إتقان اللغة الانجليزية .

مرحلة التعليم الثانوي

- وضع اختبار لغوي مع بداية المرحلة بهدف تقييم المستوى اللغوي للطلبة الجدد وتمكينهم خلال عامين من رفع مستواهم و اللحاق بركب زملائهم.

.11

- تعميم دراسة بعض المواد باللغة الانجليزية، ما من شانه إلزام التلاميذ بمعرفة هذه اللغة .

الهدف داخل الشركات: تحسين مستوى الإتقان لدى الموظفين بكلفة بسيطة

- تقييم مستوى الموظفين، بعض المعاهد الخاصة تجري هذا النوع من الخدمات مجانا .
- تعلم اللغة الانجليزية هو بمثابة الاستثمار الاستراتيجي للشركة وبإمكانها مطالبة المعهد الخاص بنتائج جيدة مع نهاية الدورة، معهد وول ستريت يقدم مثلا ضمانات بالحصول على 750 نقطة في اختبار الـ TOEIC .

النتائج: إنه يتعين القائمين على منظومة التربية والتعليم الابتدائي والثانوي، أن يصلوا بجميع التلاميذ إلى التحدث بالانجليزية وفق معايير الـ GLOBISH، فيما يتوجب على الجامعات والتكوين المهني أن تمكن طلابها و كوادرها من بلوغ مستوى التحاور.

على هامش النظام الفرنسي: INSEAD قصة نجاح مدرسة

منذ نشأتها عام 1957، كان للكلية الوطنية الفرنسية للتجارة وإدارة الأعمال **(INSEAD)** دورا رياديا، وذلك **باعتماد اللغة الانجليزية في التدريس**، الأمر الذي وضع المؤسسة على هامش نظام التعليم الجامعي الفرنسي.

تعتمد الكلية على الهبات الخاصة والرسوم الدراسية وهي مستقلة تماما عن وزارة التعليم الوطني، والتي لم تقر برنامجها في الدكتوراه سوى مؤخرا، وعن طريق "تأشيرة". ومع ذلك فالكلية تقف على قمة ترتيب التصنيفات العالمية، وسنويا تختار بين أفضل 5 كليات تقترح ماجستير في إدارة الأعمال(و40 من المئة من الإصدارات الفرنسية في مجال التسيير تصدر عن هذه الكلية).

ثم أن هذه الكلية كانت سباقة في فتح كليات لها خارج الحدود الوطنية حين دشنت سنة 2000 فرعها الآسيوي في سنغافورا .

قصة نجاح كليات التجارة الفرنسية و كلية العلوم السياسية

على عكس الجامعات، استطاعت كليات التجارة الفرنسية التأكيد على جودة مناهجها الدراسية على المستوى العالمي و تحقيق مراتب جيدة فقد وضعتها جريدة الفاينانشل تايمز الأمريكية ضمن أفضل كليات التجارة الأوروبية. في هذا الترتيب احتلت الكلية العليا للتجارة HEC المرتبة الأولى عام 2007 أمام كلية لندن للتجارة ، و حازت كلية باريس العليا للتجارة EASCP-EAP على المرتبة السابعة و بعدها كلية ليون للغدارة بالتاسعة. صدارة الكليات الفرنسية في إدارة الأعمال

على المستوى الأوروبي شاهد على مكانتها الجيدة: 6 كليات كبرى تتصدر قائمة أفضل 10 كليات أوروبية.

ما هو مفتاح النجاح؟ **إنه التدريس باللغة الانجليزية، لأنها تحقق جذبا كبيرا على المستوى الدولي**، في المدرسة العليا للتجارة، كل الدروس متاحة باللغتين الفرنسية والانجليزية وللطالب أن يختار بينهما، في حين تسمح الكلية العليا للتجارة في مدينة ليل EDHEC بإجراء جميع الدروس باللغة الانجليزية منذ عام 2009 وفق برنامج المؤسسات التعليمية الكبرى المعروف باسم ENGLISH friendly أي الزمالة الانجليزية، واثبت حصافته، وبه اقتدت كلية العلوم السياسية التي فتحت برنامج ماستير بالشراكة مع جامعة كولومبيا وكلية لندن للاقتصاد، ويتم التعليم كلية باللغة الانجليزية.

إن على فرنسا، إذا رغبت في الحفاظ على ثقلها الثقافي والفكري، أن تعمل على استقطاب الطلبة من خارج الفضاء الفرنكوفوني.

السربون: علامة جامعية الفرنسية شهرتها كبيرة في الخارج لكن استثمارها ضعيف

تحظى السربون بسمعة عالية خارج فرنسا، ويصنفها كثير من الأجانب في مصاف الجامعات العريقة والأسماء اللامعة كهارفارد وأكسفورد وستانفورد وكامبريدج، والواجب يقتضي إعادة النظر في تنظيم الجامعات الباريسية، وذلك بجعلها محورا تلتف حوله تلك الجامعات.

إن دمج جامعات السوربون الثلاث(1، 3 و 4) وربطها بكلية كبرى لكل تخصص كالهندسة والإدارة والتجارة والطب سوف يتيح برز مركز جامعي ذي صيت عالمي، وهو الأمر الذي تفتقر إليه فرنسا.

ومنذ العام 2004، برز تقارب بين المواقع الجامعية الباريسية، تمركز حول إدارة "باريس الجامعية" قصد ضمان بروزها بصورة واضحة، ولكن من المؤسف أن انضمام بعض جامعات السوربون (3و4) لهذا التجمع الذي يحمل اسم Paris Universitas عام 2008، لم يستثمر اسم السوربون كعلامة موحدة.

إن اسم السربون من شأنه أن يجذب إليه أفضل طلاب العالم.

المقال الأصلي: *Le Triangle d'or: l'Université et la Recherche, moteurs de la création d'entreprise (2009)*

الكاتب: *Arnaud Vaissié et Pascal Boris*

المصدر : ***2009*** Cercle *d'**outre-manche***

مذاهب واتجاهات

الوضع ما بعد حداثي[12*]

بقلم كريستوفر بتلر ترجمة عن الإنجليزية: د.بوعلي كحال

توطئة المترجم

احتل مفهوم ما بعد الحداثة Post-modernism [13] والنقد الثقافي Cultural Studies وما بعد الكولونيالية Post-colonialism مكانة مهيمنة في الدراسات الأدبية في الآونة الأخيرة، وقد ارتبطت هذه المفاهيم في البداية بحقل الأدب المقارن ولكنه سرعان ما امتدت إلى الدراسة الأدبية بشكل عام[14]. وكان هذا التطور المتسارع محصلة ظروف ثقافية وسياسية جديدة أملت على الغربيين بشكل خاص إعادة صياغة مفهومهم حول الآخر نتيجة الاختلالات الكبيرة التي أفرزتها الفلسفات المادية المتعاقبة والمتهافتة على الهيمنة والسيطرة.

12 [م] من كتاب:
Christopher Buttler, Postmodernism: A Very Short Introduction, Oxford University Press, New York, USA 2002.pp.110 – 126.

* وُضعت تعليقات المترجم بين المعقوفتين [م].
وتعبير ((الوضع ما بعد حداثي The Postmodernist condition)) استعمله أحد منظري ما بعد الحداثة المعروفين وهو فرانسوا ليوتار François Leotard)) في كتابه المعنون بنفس العبارة. وكان ((فريدريك جيمسن F.Jameson قد كتب مقدمة للترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب.

13 [م] آثرنا في هذه الترجمة استعمال المصطلحات الأصلية باللغة الإنجليزية.

14[م] ينظر في هذا الموضوع بصفة خاصة:
Helene Gilbert and Joanne Tompkins, Post-colonial Drama: Theory, Practice , Politics, Routledge, New-York, 1996.

1. [م]

ويذكر أن عقدة التعالي على الشعوب الأخرى، وهي مظهر من مظاهر عقدة التمركز على الذات التي ظلت وما تزال تتحكم في تفكير العقل الأوروبي، أخذت تستفحل منذ خروج أوروبا من عصور الظلام، أو القرون الوسطى بالمصطلح الغربي، مرورا بالعصر الفيكتوري في إنكلترا وفترة النظام القديم (Ancien Régime) في فرنسا، لتبلغ ذروتها في العهد الكولونيالي. وتعتبر أعمال فرانز فانون في هذا المجال بمثابة دليل الإثبات على تلك الاختلالات الرهيبة التي عششت في جسد الحضارة الغربية وجعلتها حضارة منغلقة على نفسها ومعادية، في نظر مجموعة من الشعوب، للإنسانية. فالرجل الأسود في أدغال إفريقيا كان ينظر إلى الأوروبي على أنه خطر يجب القضاء عليه بدون تردد.

وبالإضافة إلى ترسبات الحقبة المظلمة للكولونيالية الأوروبية، فإن المجتمعات الغربية نفسها استيقظت، في القرن العشرين على الخصوص، على تناقضات النظام الاجتماعي الرأسمالي ووهم المكتسبات الديمقراطية والحرية السياسية. فما الفائدة من هذه الديمقراطية وهذه الوتيرة المتسارعة من الرخاء الاقتصادي والتطور التكنولوجي ما دام هناك جزء من المجتمع يعاني الإقصاء والفقر بسبب ((بنيات ثقافية)) مهيمنة؟ وكان هذا الوعي قد تبدى أكثر من خلال الانكباب على دراسة الأدب النسوي والحركة النسوية على العموم مما نتج عنه التفات إلى السياق الثقافي والسياسي الذي يعتبر بمثابة المحرك للإبداع الفني والأدبي.

لقد عرفت النظرية الأدبية في الفترة الأخيرة من القرن العشرين تطورا كبيرا وصل أحيانا إلى حد ((الإزعاج)) عندما بدأت تطرح لأول مرة أسئلة تشبه المساءلة ((Interpellation)) للفواعل الثقافية، بما في ذلك الكاتب والناقد، مساءلة تخص الهوية والدور والخلفية التي ينطلق منها كل فاعل في الثقافة في رؤيته للعالم، وبصورة معاكسة، رؤية هذا العالم، ممثل في المؤسسات الفاعلة، لهذا المثقف أو الناقد. إنها رحلة تبيّن مؤخرا أنها طويلة وستطول أكثر في سبيل البحث عن حقيقة . أو ربما وهما في رأي بودريار . تسمى الإنجازات الإنسانية الكبرى في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والتي هي في نفس الوقت أو تكاد، فترة ما بعد الكولونيالية Post-colonialism. وبعيدا عن التسطيحات التاريخية لمصطلح ما بعد الكولونيالية، فإن الأمر هنا لا يتعلق بمجرد حقبة تاريخية تستمد معناها من محمولها التاريخي . أي الفترة التي تلت زوال الكولونيالية أو الاستعمار، وهي تعرف أيضا عند البلدان التي خضعت لهذا الاستعمار بفترة ما بعد الاستقلال . بل أن هذا المصطلح يحمل مفهوما له امتداداته الثقافية والفكرية والسياسية والعلمية

التكنولوجية، وأصبح في الفترة الأخيرة والحالية بمثابة المفتاح لفهم الطابع المنظم للثقافة المعاصرة وما تطرحه من إشكاليات على مستوى الأنساق والتنظير في الآن ذاته.

وبعيدا عن النظرة التشاؤمية للحاضر والمستقبل تحاول ما بعد الحداثة تشريح الوضع الإنساني برمته في عصر الميديا والإشهار . والأمر لا يخلو من بعض الحقائق الصادمة التي وضعت إرادة الإنسان وحريته وقدرته وحداثته ومعرفته التكنولوجية والعلمية على المحك عندما تبيّن أنه يسير مدفوعا بسلطة الصورة Image فنتج عن ذلك أن يصبح يبني مستقبله ، المادي والمعنوي، وفقا لحزمة الصور التي يختزنها في ذهنه. فالمدن الأمريكية، في رأي بودريار، تحولت، منذ ظهور وانتشار السينما في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، إلى مدن هوليوودية، نسبة إلى استوديوهات هوليود المشهورة بإنتاجها السينمائي. فالصورة تصنع الواقع بعدما كان الفنان يستلهم صوره من الواقع.

وينضاف إلى سلطة الصورة، إشكالية أخرى لا تقل أهمية: إنها مشكلة العلامة أو تلقي الصورة. إنه مسار بحثي يبعث على الكثير من الإحباط لكنه، في الحقيقة، يحاول تشريح الواقع الإنساني الراهن، حتى وإن أدى ذلك إلى هدم معرفتنا السابقة في مختلف المجالات. وقد ارتكز تحليل كريستوفر بتلر Christopher Butler على اهتزاز مبدأ الحقيقة في ظل سلطة الميديا وامتزاج الحقيقة بالخيال في نظرتنا للواقع كنتيجة طبيعية لتأثيرات الصورة باعتبارها عملا فنيا تصنعه استديوهات التلفزيون والسينما.

الثقة في الحقيقة

إن من بين الموضوعات الأساسية التي تم تداولها فيما مضى[15] ما يمكن اختزاله في ((الواقعية المفقودة))، ومعها ذلك الإحساس القوي بالتاريخ. وبالفعل، فإن ((فريديريك جيمسن Frederic Jameson))[16] يشير إلى تعريف دقيق لما بعد الحداثة على أنها ((اختفاء الإحساس بالتاريخ)) في الثقافة، هوة سحيقة، ((حاضر مهيمن وأزلي يؤدي إلى تحييد ذاكرة الموروث)).
وبالنسبة لكثير من منظِّري ما بعد الحداثة فإن الأمر يتعلّق بوضعية اجتماعية أفرزت هذه الظواهر.

15 [م] يقصد المؤلف الفترة التي سبقت ((ما بعد الحداثة)).

16 [م] (1934 .) باحث أمريكي متخصص في السرديات والنقد الثقافي وما بعد الحداثة Postmodernism. من أعماله المطبوعة ((سجن اللغة: قراءة نقدية في البنيوية والشكلانية الروسية)) 1972، ((ما بعد الحداثة والنظريات الثقافية)) 1987.

وعلى نحو ما اتضح لنا من قبل فإن الدراسات ما بعد حداثية كانت في مجملها تقويضا لمبدإ المرجع والمسلّمة في المعرفة . خاصة في الفلسفة والسرديات وفي العلاقة بين الفن والحقيقة. ولقد كان لكل هذا الحراك الفكري المصطبغ بالنزعة الشكيّة علاقة ليس فقط لمواقف الأكاديميين والفنانين ولكن أيضا لما نُظِرَ إليه على أنه فقدان للثقة داخل المنظومة الثقافية الغربية.

إن ذلك العداء اليساري للمناورات الخفية للرأسمالية الجديدة الذي اعتدنا عليه، وذلك الاعتقاد، حتى بين الليبراليين الأكثر تفاؤلاً، بأن الأخبار الحقيقية معرّضة غالبا لتلاعب بالصورة، ومن أن نشر الأخبار الرئيسية خاضع دائما للرؤية النفعية للتكتلات التجارية، بل حتى تلك الأحداث العاجلة والمأساوية التي تسبب آلاما جسيمة للأفراد مثل الحرب في فيتنام وحرب الخليج، غدت، بشكل ما، مجرد حوادث صيغت بطريقة درامية في الإعلام يكون مسرحها التلفزيون في مشاهد صيغت بشكل يخدم أهدافاً سياسية عن طريق آلة التصوير . بحيث تكون صورة القناص الذي يحمل آلة التصوير على كتفيه تقابلها صورة صانعي الأخبار الوهم يتحدثون عن الأمل في تحسن الأمور في فناء البيت الأبيض[17] المعشوشب، وما إلى ذلك من الصور والمشاهد. ومن جهة أخرى، وعندما نتأمل أعمال بعض النقاد أمثال رولان بارت R.Barthes وأعمال بعض الروائيين أمثال ميلان كانديرا Kundera.M وسلمان رشدي Rushdie.S فإننا نزداد قناعة بأن الحدث السياسي والتاريخي يتم نقله لنا في شكل فني إبداعي على غرار الأعمال السردية، بحيث تتدخل فيه أيادٍ ذات أهداف سياسية أو اقتصادية.

إنه ليس بالأمر الصعب استحسان مدى نجاح التلفزيون باعتباره المروِّج الأساسي للخبر الفني[18]. أصبح من هذه البضاعة الشيء الكثير، بضاعة مدعاة للتناقض وحيث تبدو فيها المصلحة الاقتصادية بطريقة لا تخطئها العين، وهي في الأخير بضاعة متقنة بإحكام يبعث على التشكيك في نزاهتها. إنه هدف واضح المعالم على اعتبار أن الأداة هنا تعوِّل بشكل أساسي على التمثيل الواقعي الساطع الذي نربطه عادة بالتصوير الفوتوغرافي، وهذا بالضبط ما أثار شكوك الما بعد حداثيين.

صور غير حقيقية

لقد برز هذا الإحساس بأن الإعلام الثقيل يقوم باستعاضة الواقع بالصورة بأشكال مختلفة، بداية من التصور الماركسي القائم على فرضية أننا . بشكل من الأشكال . ضحايا وعي مزيّف

[17] [م] المقصود هنا البيت الأبيض الأمريكي، مقر الرئاسة في الولايات المتحدة الأمريكية.

[18] ((Fictionalized information.)) [م] فضلنا استحداث هذا التعبير كترجمة للتعبير الإنجليزي

صنعه الخطاب البورجوازي، ووصولا إلى ارتياب المجتمع الليبرالي من القيود الممارسة على حرية التعبير. الإشكال الآن أن هذا النقد للواقعية الحقّة قد أدى إلى التشكيك في كل ما هو فني درامي والاهتمام بما هو حقيقي، كما تجلى ذلك في الجدل الذي يثار دائما حول صحة المعلومات في المؤلفات التاريخية. وفي نظر جيمسن، كمفكر ماركسي، فإن الأمر يتعلق بأزمة تمثيل عامة[19]. ففكرته تنحصر في أنه مع بروز تيار ما بعد الحداثة أصبحت العلامات مجردة من وظيفتها المتمثلة في الإحالة على العالم الخارجي، وهذا بدوره وسّع أكثر من سلطة المال في مملكة العلامة[20] والثقافة والتصوير الفني، ينضاف إلى هذا انهيار تام للفضاء المستقل للحداثة. يقول جيمسن: ((لقد خرجنا من ذلك بمجموعة من الدوّال Signifiers سميناها ما بعد الحداثة والتي لم تنتج إلى الآن أعمالا كبيرة على غرار النموذج الحداثي، لكنها تعيد على نحو مستمر خلط شظايا النصوص السابقة وإهرامات الإنتاج الثقافي والاجتماعي القديم في ترقيع محموم كان من نتيجته كتب انعكاسية (metabooks) تفكك وتشرح الكتب الأخرى، نصوص انعكاسية (metatexts) تفحص وترتب أجزاءً من نصوص أخرى))[21].

فبالنسبة لكثير من أعلام ما بعد الحداثة فإننا نعيش حاليا في ***مجتمع الصورة***، حيث يكون همه الوحيد إنتاج واستهلاك الصور الزائفة. والأخبار هي الآن من قبل الأشياء التي نشتريها، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا أنها أهم شيء نشتريه في مجتمع تسوده سلطة المعرفة وتجرفه وتيرة التطور التكنولوجي المتسارعة.

إن هذا اليأس من حقيقة الأحداث السياسية ومؤسساتنا الاجتماعية كالتلفزيون والصحافة كرّس من جهة أخرى يأسنا من أن يلعب الفن دورا وسيطا وإيجابيا. إننا هنا نستحضر مبدأ نيتشه Nietzsche القائم على اعتبار أن جميع هذه الظواهر، بدءًا من البيانات السياسية الصادرة عن البيت الأبيض ووصولا إلى المسلسلات التلفزيونية، إنما تخدم بطريقة خفية القوى الاقتصادية والسياسية وغيرها، كما قد تخدم هذا الشخص أو ذاك، على خلاف ما يعتقده البعض من أنها تحاول أن تكون في خدمة الحقيقة. لقد أدى كل هذا إلى نزوع عام إلى الوهم في صلب النظرية ما بعد حداثية وفي الفن عموما. ويكفي أن نستدل هنا بفلم أوليفر ستون Oliver Stone المعنون

19. [م] نقصد بالتمثيل أو التصوير هنا (*Representation*)، بمعنى تصوير العالم الخارجي عن طريق الفن بصفة خاصة.

20. [م] تذكرنا هذه العبارة " مملكة العلامة The realm of sign " بعبارة رولان بارت *R.Barthes* "إمبراطورية العلامات L´Empire des signes " التي هي في نفس الوقت عنوان لكتاب من كتبه.

21 . Frederic Jameson,'Postmodernism and the Video Text' in Derek Attridge et al. (eds), *The Linguistics of Writing* (1987)

"ج.ف.ك J.F.K"[22] أين يفاجئنا المخرج بشخصية المحامي الجريء الذي يتحدى ببطولة المؤسسة العسكرية التي، في نظره، تآمرت على اغتيال الرئيس كينيدي حتى تستمر الولايات المتحدة الأمريكية في حربها ضد فيتنام؛ فالرواية التي قدمها هذا الفلم للأحداث هي التي أصبحت راسخة في أذهان المشاهدين، مع أن العمل السينمائي لا يعدو أن يكون محض خيال.

وتعتبر وجهة نظر جون بودريار Jean Baudrillard الأكثر تنديدا واستنكارا للطابع الخيالي في ثقافتنا المعاصرة، مستحضرا في ذلك وجهة نظر فوكو Foucault فيقول: ((إذا كانت ديزنيلاند Disneyland هنالك فهي لكي تخفي حقيقة أنها البلد الحقيقي للولايات المتحدة الأمريكية، تماما مثل السجن الذي يقبع هناك ويخفي حقيقة أنه المجتمع في صورته الكاملة وفي حضوره الاعتيادي، الذي أصبح مسجونا)). وفي تصور بودريار أن ديزنيلاند بقراصنتها وروادها المستكشفين وعالمها العجائبي المصطنع ((إنما تستعمل الخيال لتقنعنا بأن بقية العالم من حولنا حقيقي، في حين أنه ليس كذلك. فلوس أنجلس Los Angeles والمناطق الأمريكية المحيطة بها لم تعد أماكن حقيقية بل في عداد الأشياء الخرافية والوهمية. والأمر هنا لا يتعلق بتصوير مزيف للواقع (عن طريق الإيديولوجيا)، بل بإخفاء حقيقة أن الشيء الحقيقي لم يعد حقيقيا، وبهذا يُصان مبدأ الحقيقة الواقعية. إن متخيَّلات ديزنيلاند ليست بالأشياء الحقيقية ولا المزيّفة، بل إنها آلة تحريف وضعت لإعادة بناء معكوسة لمفهوم التصوير الحقيقي للواقع))[23].

وعلى هذا الأساس فإنه يمكن القول أننا، وبكل بساطة، محشورين في إمبراطورية علامتية يتحكم فيها الإعلام، بتوجيه ميكيافيلي من رأس المال الاقتصادي بهدف صياغة رغباتنا، هذه العلامات التي تحيل على بعضها البعض في شكل سلسلة أخطبوطية من الأفكار.

إنها مجرد صور زائفة أخذت مكان الأشياء الحقيقية من خلال عملية تحويل وانتقال سماها بودريار الوعي الذي يتجاوز الواقع. فنحن لا نستطيع، والحالة هذه، أن نحصل على ما نريد، لكننا بالتأكيد نستطيع شراء ما نريد ما دام ذلك معروضا في الإشهار. فمع أن هامبرغر ماكدونالد McDonald hamburger يحظى بإشهار واسع إلى أن هامبرغر ماكدونلد يبقى دائما هو هامبرغر ماكدونالد في ملايين النسخ التي تباع، وبالنسبة لكثيرين فإنه فعلا ساندويتش لذيذ. وإنك عندما تستنشق عطر ديون Dune فإنك تستنشق عطر ديون الحقيقي. وليس هذا مجرد قواعد لعبة علاماتية بالرغم من أن الإشهار يدفعنا إلى شراء هذا المنتوج. ولكن وحتى بالنسبة للبعض منا

22. [م] المقصود بهذه الاختصارات الرئيس الأمريكي الأسبق جون فيتزجرالد كينيدي *John F.Kennedy* (1917 - 1963).

23. Jean Baudrillard, *Simulations* (1983)

لم يقرأ شيئا عن موضوع ما بعد الحداثة فإنه لا ينخدع بالإشهار بصورة كلية بل أنه لا يعتقد أن كل الآخرين ضحايا للإشهار.

لك أن تقرأ استفتاءات الرأي حول رجال السياسة في جميع أنحاء العالم. أو فلتقرأ بحوثا ودراسات حول التسويق وتأثير الإشهار . أما أن تقرأ بودريار أو شخصا آخر مثله فإن ذلك سيقودك إلى الاعتقاد بأننا ، إلى درجة معينة، نأكل ونشرب وننام في أحضان دوال العلامات. إن هذا النوع من التفكير يحمل في طياته، بالإضافة إلى نقد الليبرالية القديم للإشهار (كما تشير إلى ذلك مقولة الاحتياجات التي نتوهمها تحت تأثير الإشهار) ، بقايا الفرويدية المتشائمة بطبعها . حيث ينظر دائما إلى اعتبار الرموز التي تشير إلى الأشياء تكون دائما مضللة ولا تمدنا أبدا بالأشياء الحقيقية التي نرغب فيها. لقد أخذت النسخة المصطنعة لمغارة لاسكو في فرنسا[24] مكانة المغارة الحقيقية . ولا يبدو هناك اختلاف بين الاثنين . إننا مطالبون دائما بتصديق كل شيء. غير أنه من المؤكد أن السائح الأكثر سذاجة يكتشف الفرق بين مغارة الحقيقة ونظيرتها المصطنعة، بل وأنه في غالب الأحيان يتفهم غلق المغارة الحقيقية لأسباب وقائية وبالتالي فهو قد يستغرب فتح مغارة مصطنعة.

يمكن القول بأن أقطاب ما بعد الحداثة في معظمهم متشائمون قد فقدوا الأمل في انتصار الإيديولوجيات الماركسية، ولهذا السبب فإن يتكئون دائما على الأعمال الفنية التي تتعامل بسلبية مع الواقع. إن ممارسة التأثير الإعلامي الحاد ظاهرة سلبية لا شك في ذلك لأنه عندما يحصل الناس على ما يريدون فإن آلة الإشهار والتسويق ستحدد لهم القيم التي تتبني عليها احتياجاتهم المادية وبالتالي يصبح الناس الأكثر حاجة الأكثر إهمالا في هذا الاتجاه. وهكذا يصبح التسويق متحكما وسابقا على الإنتاج. بل إننا نعتقد أن حتى العدالة أصبحت تحت تأثير المديا.

ومثال ذلك محاكمة ((أ.ج. سمبسن O.J.Simpson))[25] التي تم عرضها في التلفزيون بشكل غير مسبوق، حيث تأثر سير المحاكمة والرأي العام على حد سواء بهذه التغطية الإعلامية

24. [م] مغارة لاسكو La grotte de Lascaux : مغارة مشهورة في فرنسا تقع بالقرب من بلدة ((مونتنياك سور فيزار Montignac Sur-Vézère))، بمقاطعة ((دوردون Dordogne)). اشتهرت هذه المغارة برسوماتها التي تعود إلى العصر الحجري. وبغرض الحفاظ على القيمة الكبيرة لهذه الرسومات تم إغلاق المغارة أمام السياح عام 1963. ولتعويضهم عن ذلك تم بناء مغارة مشابهة لها والتي تم فتحها للسياح عام 1985. وتسمى هذا المغارة المصطنعة في فرنسا بـ ((لا سكو II)).

25 . [م] كان سمبسون Simpson لاعب كرة مشهور في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان قد طلق زوجته منذ فترة. وفجأة وقعت جريمة قتل بشعة لهذه الزوجة المطلقة برفقة صديقها. حامت الشكوك حول سمبسن وأحيل على التحقيق ثم المحاكمة. لم تثبت إدانة سمبسن لكن هذه القضية تميزت بتغطية إعلامية غير مسبوقة ربما لشهرة

المبالغ فيها . فمن الملابس التي يظهر بها نجوم الأخبار التلفزيونية والمحللون والمراسلون إلى اللغة والتعبير ذو الخلفية السياسية والنمطية . فقد ساهم كل هذا في تكريس الأحكام المسبقة وفرضها على سير المحاكمة. وفي محصلة الأمر أن هذه المحاكمة تحولت إلى أشبه بالعمل الدرامي حيث ظهرت الرغبة الواضحة لأبطال هذا العمل . وهم الصحفيون بصفة خاصة . لفرض وجهة نظرهم على الرأي لإثبات كفاءتهم العالية في عملهم. وكان أسلوبهم في ذلك تنميط الحقائق بحيث تتماشى . لا مع الحقائق كما حدثت . بل مع الحقائق كما تخدم مهنة الإعلام واشتراطات نجاحه.

وهنا يمكننا أن نتساءل: كيف وصل بهذه المعالجة الإعلامية أن تقوم بدور العدالة لكن بطريقتها التي ينقصها الكثير من التحري وتمحيص الحقائق؟ وهل القاضي والمحلفون . الذين هم في نهاية الأمر مواطنين عاديين مثلنا . هم بمنأى عن تأثير المعالجة الإعلامية للقضية التي بين أيديهم؟ أم أن الإجراءات الصارمة للعدالة فوق هذه التأثيرات؟

الواقع أن هناك شكوك حول قدرة العدالة تخطي الثقل الإعلامي للقضايا التي تعالجها، وهنا ميدان خصب لأعلام ما بعد الحداثة لطرح انشغالاتهم وتشكيكهم في حياد العدالة التام وتأكيدهم على وقوعها في فخ المديا، وهي وجهة النظر التي يؤكد عليها أيضا كتاب الروايات البوليسية.

غير أن هؤلاء المثقفين الما بعد حداثيين يبالغون أيضا في البعض من آرائهم وهم بذلك يحرفون الحقائق إرضاءً لتشاؤمهم كما أنهم لا يقترحون حلولا متوازنة للمشاكل المطروحة. فالأكثرية منهم متأثرين بتقاليد الفكر النيتشي[26] الجديد القائم على اليأس من العقل. فعندما نصوب نظرنا بدقة إلى طبيعة الخطابات المرتبطة ارتباطا لافكاك فيه بالنظام السياسي الذي يدعمها فإن هذا يعطي الانطباع بأن ثقافتنا لا تعدو أن تكون تفاعلا معقدا من قوى الصراع الفاعلة في الساحة. لقد قادهم التشكيك في الحقيقة إلى حرمانهم من الاقتناع بإمكانية عطاء العقل الإنساني وقدرته على التفاوض العقلاني وكذا الإيمان بالطابع الإجرائي للعدالة. هنا تبدو خلفية الفكر الماركسي والفرويدي بتأثيراتها المختلفة واضحة من خلال تكريس مبدأ القوة والسلطة في المواقف والأفعال . سلطة العرق والطبقة الاجتماعية والرتبة المهنية وحتى السلطة الجنسية. غير أن هذا التوجه لا يجد صدى له في معظم المجتماعت الديمقراطية في الوقت الحاضر، هذه المجتمعات التي أصبحت قائمة على قوانين متفق عليها سواء قبول سلوكات معينة أم رفضها، كما ينضاف إلى ذلك وجود قيم أخلاقية

وشعبية هذا اللاعب إلى درجة أن أطلق على هذه المحاكة بمحاكمة القرن، في حين أنها كانت جريمة تحدث كل يوم في الولايات المتحدة الأمريكية.

26. [م] نسبة إلى الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه.

تسعى للحفاظ على حقوق الإنسان في بعدها العالمي الإنساني بغض النظر عن العرق أو المجموعة البشرية التي ينتمي إليها الفرد.

كما أن هذا الطرح الماركسي والفرويدي يتجاهل كون عطاء العقل والإيمان بالحقيقة قائمان على أسس منهجية بحيث لا يتم تصديق شيء دون دليل. وقد اعتاد البعض، من منظور تلك الإيديولوجيات، الحكم على بعض الدول من خلال طبيعة مؤسساتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وهو حكم يسبق المفاوضات، كاعتبار هذه الدولة امبريالية واعتبار تلك ديكتاتورية أو شمولية، الخ، ويشكل هذا في الواقع إجحافا في حق عطاء العقل وقدرته على إحداث تغيير في الموقف من خلال التفاوض والنقاش.

إن هذه الأحكام المسبقة تعلو على ما سواها بصفة خاصة أثناء النزاعات لكنه من المهم، في نفس الوقت، العمل على تمييز المواقف الأخرى المغايرة والتي تدعو إلى تحكيم العقل ومحاولة تحديد المسؤوليات من أجل تجنب المواجهة.

إن أحسن ما يمكن أن يُقال في هذا المضمار أن الما بعد حداثيين نقاد سلبيون، يهدمون أكثر مما يبنون، وإن بنوا شيئا فهو بناء فظيع. إنهم يتنازلون عن هذه المهمة للمرضى اللبيراليين في مجتمعاتهم والذين لا يزالون على محاولاتهم المستمرة للكشف عن تلك الاختلافات المزعومة بين الوهم والحقيقة، والتي يروج لها الما بعد حداثيين بنغمة تشاؤمية في شكل صراع طبقي ونفسي حتمي .

لقد انصب اهتمام الما بعد حداثيين أيضا على التغييرات التي لحقت بالثقافة المعاصرة بداية من سنة 1945 ، هذه التغييرات التي أفرزت، في نظرهم، ما أطلقوا عليه تعبير ((الوضع ما بعد حداثي The Post-modern condition)). ففي هذه البوتقة بالذات أصبح يُنظر إلى المجتمعات المعاصرة لا من خلال المنظور التقليدي المتمثل في الطابع السياسي والاقتصادي، بل كوضع ثقافي State of culture . لقد كان من نتيجة هذا الاعتماد على الثقافة في تحليل المجتمعات ظهور تيار النقد الثقافي الذي أصبح حاليا في طليعة الاهتمامات الفكرية والنقدية، وبالتالي فهو ثمرة من ثمرات تيار ما بعد الحداثة. لقد أصبح التركيز في هذا الإطار على النظام الرأسمالي الجديد وعلى الديمقراطية في البلدان الغربية على اعتبار أنه لم يعد هناك بديل لهذه الأنظمة خاصة بعد زوال النظام الشيوعي بداية من سنة 1989. وعلى هذا الأساس فلقد نظرت ما بعد الحداثة إلى هذين النظامين (الرأسمالي والديمقراطي)، بوجه عام لا يخلو من بعض الأوهام،

على أنهما ينتجان الإعلام أكثر مما ينتجان ما يفيد الإنسان من مواد وأجهزة، وهو وضع يحتاج إلى تحليل من منظور النقد الثقافي بالدرجة الأولى.

تتجلى نظرة الما بعد حداثي إلى التغييرات التي لحقت بالمجتمع المعاصر في التركيز على مسألة التقليص الرهيب للهوة الزمنية والمكانية من خلال الاعتماد على المديا (وهنا أشير إلى توافقي التام مع ديفيد هارفي[27] في هذا المضمار). والمقصود هنا أنه أصبح بإمكاننا متابعة ما يجري في مختلف بقاع العالم وبصورة مباشرة من خلال التغطية الإعلامية (التلفزيون والإنترنت) التي تطورت وسائلها بشكل متسارع. بل أن الإنترنت أصبحت ظاهرة ما بعد حداثية من الطراز الأول على خلفية الفوضى التي تطغى على نشاطاتها نظرا لحداثة استعمالها.

فالتطور الذي حدث هو أنه بعدما كان التفكير مركزا على إنتاج البضائع المختلفة التي تلبي حاجات الإنسان المعاصر أصبح فيما يركز، ومن منظور ما بعد الحداثة، على إنتاج المعلومات وترويجها. ويمكن هنا أن نضرب مثالا: فبعدما كان مفهوم الإفلاس مرتبطا بضعف المبيعات أصبح الآن مرتبطا بوسائل الإعلام من خلال اعتماد البورصات على وسائل جديدة من البث المباشر التي تمكن أصحاب رؤوس الأموال من مراقبة ما يجري في الأسواق بشكل مغاير تماما لما كان عليه الحال في السابق. وبالنسبة للبعض فإن هذا دليل إثبات على الدور السلبي الذي يلعبه الإعلام البصري في توجيه الاقتصاد بشكل مناف لما يجري في الواقع، وهو التصور النموذجي لوضع ما بعد الحداثة. إن غالبيتنا يعمل في عالم مدفوع وملطخ بأدران الإعلام، أما النسبة القليلة التي قد تكون بمعزل عن هذا التأثير فهي إما تعاني من الفقر والأمية أو أنها تعاني أمراضا عقلية. ما أصبح متوفرا يفوق الحاجة بكثير. لقد أصبحنا أينما ولينا وجوهنا عرضة لكم هائل من الصور الحسية، في المجلات، والمنشورات الاشهارية والتلفزيون وحتى في شوارع المدن. (وهذه شكوى من شكاوي ما بعد الحداثة). لقد أصبح مجرد تغيير ذوق منتوج معين يؤدي إلى تسريع مبيعاته، وهكذا أخذت الموضة مكان الثقافة، وأصبح الاقتصاد يعتمد على التوجيه الإعلامي في صناعة الرأي العام.

وفي خضم هذا التشريح للواقع المعاصر فإن أعلام ما بعد الحداثة يقبلون بعض النقد خاصة ما يتعلق بمبالغاتهم في تجريم إخوانهم المواطنين. فمعظم انتقاداتهم القاسية ما هي سوى عتاب لما يشكله واقع الحال بالنسبة للإنسان المعاصر ولا يكاد يرقى إلى مستوى التنظير الفكري. وبالنسبة للبعض فإن هذا الوضع على ما يرام. ففي فترة ما بعد نظرية "القرية الشاملة Global Village "

27. [م] ديفيد هارفي David Harvey : عالم اجتماع أمريكي (1936 -).

لـ (ماكلوهان)[28] والتي أصبح كل واحد منا بطبيعة الحال يعيش فيها، فإن التواصل الاجتماعي أصبح ذو طابع إلكتروني بعدما كان ذو طابع إنساني من خلال مقابلة الآخرين بصورة مباشرة، بما يتضمن ذلك من استعمال لإشارات كثيرة في هذا التواصل.

و يجدر بنا الآن أن نتساءل إلى أي حد يمكن تبرير تفسير الما بعد حداثي لتشكيكه في مكتسبات المجتمع المعاصر؟ الواقع أن هناك تناقضا صارخا في صلب هذا التحليل: فإن زعم أحد أن كل شيء عبارة عن منتوج لصورة مضللة وليس من إنتاج الواقع، فكيف تأتى له أن يعرف ذلك؟ إنهم يفترضون بالضبط ما يقومون بتقويضه. وفي أحسن الحالات فإن هؤلاء النقاد يقومون بصياغة ملاحظات بسيطة لا تخلو من استخفاف حول عرضة الآخرين للانخداع، وحول القواعد الثابتة التي تنبني عليها أخلاقيات المجتمع الليبرالي، وكذا توجسهم من النجاحات المتتالية لصناعة الإشهار والتلفزيون والتي تدفع الناس إلى استهلاك بضائع قد لا يستسيغها هؤلاء النقاد.

والواقع أنه يمكن حصر الإشكال الذي وقت فيه فئة قليلة لكنها مؤثرة (وهي مشكلة من بعض المفكرين والمثقفين) في زوال الإيديولوجيات التي سادت في وقت سابق.

28 [م] مارشال ماكلوهان Marshal McLuhan : (1911 – 1980): عالم تربية وفيلسوف وناقد كندي، كان من أبرز اهتماماته مستقبل الإعلام ودوره المتعاظم في توجيه المجتمع خاصة في كتابه ((القرية الشاملة The Global Village)).

المناهج التجريبية و الجدلية في سوسيولوجيا الأدب:

الموضوعية و السوسيولوجيا التجريبية للأدب

ترجمة: صليحة إمدوشن

يمكن تفسير الاختلاف الأساسي بين المناهج التجريبية و الجدلية في سوسيولوجيا الأدب، على أساس أن الأولى (أي التجريبية) تتّجه نحو المسلمة الويبرية للموضوعية العلمية، مع استبعاد أيّ حكم قيمي جمالي أو غير ذلك، في حين أن الثانية (أي الجدلية) تُطوّر بعض النّظريات الجمالية و الفلسفية الموجودة بمساعدة مفاهيم سوسيولوجة و سيميائية.

لقد تم التطرق من قبل إلى هذا الانفصال بين الفلسفة من جهة، والعلم (السوسيولوجيا، علم النفس) من جهة أخرى، حيث حاول أنصار السوسيولوجيا التجريبية للأدب، خاصة خلال الستينات، أن يضعوا حداً فاصلاً، واضحاً و دقيقاً، بين المقاربات الجمالية (الفلسفية) و الحجج الواردة من سوسيولوجيا الفن.

إنّهم يريدون، بهذا الفصل، تحويل سوسيولوجيا الأدب و الفن إلى علم تجريبيّ وموضوعيّ على طريقة ماكس ويبر. و لقد اهتمّ، هذا الأخير، بسوسيوولجيا الفن (الموسيقى والهندسة المعمارية) و رافع، في كتاباته، لصالح خط فصل واضح بين الأبحاث التّجريبية والأحكام الجمالية، فهو يلاحظ، بخصوص التّطورات التقنية للموسيقى خلال النهضة، أنّه: "يمكن للتاريخ التّجريبي للموسيقى، و يجب عليه أن يُحلّل مُركَّبات التطوّر التاريخي، دون التّصريح بالقيمة الجمالية للأعمال الموسيقية للفن". يحاول إذن ويبر، بالأحكام القيمية، إقصاء نقد الأعمال.

بالتّالي ليس غريبا، أن يحاول سوسيولوجيو الأدب، الذين تأثروا بويبر، فصل النّقد الأدبي والجمالية عن سوسيولوجيا الأدب. ولقد كتب هانس نوربرت فوجن (Hans Norbert Fugen) مثلا: "بما أن موضوع بحث السوسيوولجيا هو الفعل الاجتماعي، أي الفعل التّذاتي،

فإنّها لا تعتبر العمل الأدبي كظاهرة جمالية. لأن معنى الأدب، حسبها، يكمن فقط في الفعل التّذاتي الخاص الذي يقتضيه الأدب".(فوجن،1964:14).

إنّ كون المنهج التّجريبي يرفض أن يكون نظريّةً للأدب أو جماليةً، يوضّح لنا لماذا لا يهتّم ببنية العمل (l'œuvre) (بالنّص في حد ذاته): " لهذا السبب، فإنّ كل تعليق يخصّ العمل الفنّي في ذاته، بالتّالي بنيته، يبقى بعيداً عن الأبحاث السوسيولوجية حول الفن". (سيلبرمان،1978:193،1967). وعلى خلاف فوجن وسلبرمان(silbermann)، الممثّلين الألمانيين الأكثر أهمّية في التيار التّجريبي، فإنّ ت.و.أدورنو Theodor w. Adorno، ممثّل الفلسفة الجدلية (النظرية النّقدية)، يعتقد أنّه من المستحيل تجاهل العناصر المكوّنة للعمل الفني، كما أنّه مستحيل أيضا، حسبه، إلغاء الأحكام القيمية الجمالية في سوسيولوجيا الأدب، لأن الدراسة الجمالية للنّوعية غالبا ما تفسّر المظاهر الكمية لعمل ما: مثلا ألا يكون لنصّ الطليعة، صعب القراءة، أيّ نجاح في السوق، في حين أنّ نتاجات الأدب المبتذل تُباع بفضل رواسمها (clichés) الإيديولوجية و أنماطها (stéréotypes) الموضوعة لغرض تجاري.

إتّخذ أدورنو، في ("فرضية حول سوسيولوجيا الفن")، موقفاً ضدّ الأسس المنهجية لسلبرمان (وبشكل غر مباشر لويبر).

يؤكّد أدورنو، على خلاف سلبرمان، الذي يستند إلى الموضوعية، ضرورة وجود سوسيولوجية نقدية للأدب و الفن: "يوافقني سلبرمان في إثبات أن واحدة من المهام الأساسية لسوسيولوجيا الفنّ تكمن في نقد النّظام الاجتماعي السائد. يبدو لي، مع ذلك، أنّه من غير الممكن تحقيق هذه المهمّة مادام معنى المؤلّفات و نوعيتها قد وضعا جانبا (أو وضعا بين قوسين، إن صحّ التعبير). إنّ التخلّي عن الأحكام القيمية و وظيفة سوسيونقدية ليستا متوافقتين". (أدورنو، 1967: 100).

فالسّوسيولوجية النّقدية للأدب، إذن، لا تميل إلى نوعية نّص أدبي لهدف توضيح وظيفتها الاجتماعية(تأثيرها أو نجاحها) فحسب، إنّما أيضا وظيفتها الإيديولوجية (تبريرية، تأكيدية) أو النّقدية. فهذين المظهرين لا يمكن فصلهما. لهذا سيكون أسهل على الكاتب الذّي يهدف أساساً إلى تحقيق النّجاح التجاري، استعمال الرواسم (clichés)الشّعبية (ذات الغرض التجاري) و الأنماط السردية، منه من الكاتب الذي يضع نصب عينيه حلّ مشكل جوهري، سياسي، فلسفي أو جمالي، و الذي يفكّر أوّلا في القيمة الاستعمالية للكتابة و ليس في قيمتها التبادلية. و لطالما

أهملت السوسيولوجيا التّجريبية للأدب الرابط الموجود بين النّوعية والكمّية؛ درست المظاهر الكمّية للإنتاج والاستهلاك الأدبي بمعزل (باستقلالية عن النوعية).

لقد تمّ إنجاز أبحاث هامة حول العناصر الكميّة، ليس فقط في ألمانيا والسويد (ك.أ. روسنجرن Rosengren، المظاهر السوسيولوجية للنظام الأدبي، ستوكهولم، 1968)، إنّما أيضا في فرنسا، خاصة من طرف مدرسة بوردو Bordeaux التي يسيّرها روبرت إسكاربيت (R. Escarpit). لكن يبدو أنّ أعضاء هذه المدرسة لم يتوصّلوا بعد إلى حلّ المشاكل التي تطرحها العلاقات بين النّوعية والكمّية.

يؤكّد هنري زلمنسكي (H. Zalamansky)، أحد مساعدي ر. إسكاربيت، فيما يخصّ الكميات الكبيرة للنّصوص ذات الغرض التجاري، أنّه لا يمكن تطبيق أيّ معيار نوعي (من نوع جمالي) في دراسة الأدب الجماهيري. فدراسة الأعمال "الكبيرة"، حسبه، يمكن جدا أن تكون حول المظاهر الجمالية: "عندما يتعلّق الأمر، بالمقابل، بدراسة مجموعة أعمال لمعرفة ما سيؤثر على الوعي الجماعي، فإنّنا لن نستطيع الاحتفاظ بمعيار جمالي، إذ أنّنا إزاء مشكل في الكمية لا في النوعية". (زلمنسكي، في: إسكاربيت، 1970: 127).

إنّ الحجّة التّي يُقدّمها أدورنو ضدّ سلبرمان، و التّي مفادها أنّ كمية الأدب الرخيص لا يمكن شرحها باستقلالية عن نوعيتها الجمالية (عن مظاهرها الإيديولوجية أو النقدية)، تبقى أيضا صالحة في حالة زلمنسكي.

لنتذكر، بهذا الخصوص، دراسة أمبرتو إيكو حول روايات جيمس بوند (James Bond) لـ لان فلامينغ (Lan Fleming)، والتي تُوضّح أنّ هذا الأدب الشعبي يتركّب من عدّة رواسم سياسية، تتناسب مع أنماط سردية تُظهر النّجاح التجاري لكلّ عمل فلامينغ. كما أنّ حجج فرانزيسكا رولوف–هاني (Franziska Ruloff-Häny) تصبّ في نفس السياق، إذ أنّها تُظهر، بشكل مُقنع، كيف تتداخل و تتكامل، في الروايات الشعبية، كل من الرواسم الأسلوبية الشهوانية (Erotique) والإيديولوجية بعضها مع بعض.

فالنّظريات الجدلية، إذن، لا تهتمّ فقط بالوظيفة الاجتماعية و الاقتصادية للأدب المبتذل، إنّما تحاول أيضا شرح العلاقة بين بناها الدلالية و السردية من جهة، و المنافع الاجتماعية، الاقتصادية و السياسية لبعض المجموعات، من جهة أخرى.

2. نماذج جدلية:

تحتلّ المناهج الجدلية، التي تتّجه نحو النّص و بناه، في مؤلّف تمهيدي، يستعرض جزؤه الثاني الأفكار الأساسية لسوسيولوجيا النّص، بؤرة الاهتمام. مع ذلك، فإنّه سيكون من الخطأ الافتراض أنّ المناهج التّجريبية قليلة الأهمّية بالنّسبة لنظرية الأدب و أنّها، في الحقيقة، تنتمي إلى السوسيولوجيا.

لنقل بادئ ذي بدء أن التّحليل النّصي نفسه يُعتبر نشاطاً تجريبياً يجب فيه على الحدس، الذي يحتلّ مكانة هامة في "النّقد الأكاديمي"، أن يترك مكانه للتحليل البنيوي (دون أن يُعوّضه تماما). لكنّنا لا نكتشف أهمّية المناهج التجريبية لدراسة التصرّف الجماعي للقرّاء، في الحاضر و الماضي، إلاّ في إطار سوسيولوجيا التلقّي والقراءة.

سنرى كيف استخدم جوزيف جورت و جاك لينهردت (Joseph Jurt et Jacques Leenhardt)، في أعمال حديثة، بعض الأساليب التّجريبية لتبيان تلقّي عمل ما أو رواية ما في وضعية سوسيوتاريخية معيّنة، إنّهما يُثبتان أن الجمهور الأدبي، بعيداً عن أن يكون كلاًّ متجانساً، يُكرّر النّزاعات الاجتماعية و السياسية لمجتمع ما. كما يُبرزان أيضا أنّ مفهوم الوعي الجماعي، ليس تجريدا: يمكن أن يُجسَّد بأبحاث تجريبية تكشف عن الترابط الثقافي والإيديولوجي للجماعات "السوسيومهنية".

إنّ هذا التوجّه التّجريبي للمناهج الجدلية (الذي يظهر بشكل جليّ في " The Authoritarian Personality"، كتاب جماعي نشره ت.و. أدورنو و منظّرين آخرين)، لن يؤدّي إلى التخلّي عن النّقد الاجتماعي.

الجمالية الهيجلية و المناهج الجدلية في سوسيولوجيا الأدب:

إنّه من الصعب، ما لم يكن من المستحيل، فهم نظريات جورج. لوكاتش (Lukacs)، لوسيان ڤولدمان (L. Goldman) و ت.و. أدورنو (T. W. Adorno) الجدلية، إذا لم نأخذ بعين الاعتبار بعض مبادئ و أسس فلسفة هيجل النّظامية ، و خصوصاً جماليته. إنّ إحدى الأفكار الأساسية لفلسفة هيجل هي أنّ الحقيقة لا يُمكن أن تُفهم إلاّ ككلّ مترابط، ككليّة دالة. فالفكرة التّي لا تتصوّر العالم الموضوعي ككلّ، إنّما تعزل الظواهر الفردية الواحدة عن الأخرى، ستبقى مجرّدة. و المقاربة التّي تتصوّر الظواهر بالنّسبة للكلّ، الذي لها فيه دلالة، لتقيم، بعد ذلك، علاقات بينها، هي الوحيدة التي تُمثّل الحقيقة بشكل ملموس.

إنّ وظيفة الفيلسوف، حسب هيجل، هي فهم العالم ككلّ دال في تطوّر و ككليّة تاريخية. بالتّالي، ستُصبح هذه الجملة، المعروفة من ظاهراتية الروح، مفهومة: "الحقيقة في الكليّة، لكن الكليّة ليست إلاّ الجوهر الذي يتحقّق في الصيرورة". و الفلسفة التّي تفهم الكائن ككلّ هي في حالة تسمح لها بفهم الجوهر المختفي وراء الظواهر بشكل محسوس. المهمّ، أنّ هيجل قد عرف وظيفة الفّن استناداً إلى معايير فلسفية لجدليته. فالفنّ يؤدّي، حسب هيجل، مثله مثل الفلسفة، وظيفة معرفية يجب عليها أن تضمن فهماً أفضل للحقيقة. يجب على العمل الفنّي، مثل الفلسفة (التفكير التصوري)، أن يكشف الجوهر الموجود وراء الظواهر. و يلاحظ هيجل في جماليته، بخصوص الوظيفة المعرفية للفنّ: "إنّه هكذا، مرّة أخرى، بعيدا عن أن تكون مجرّد مظاهر و توهّمات، بالنّسبة للحقيقة الجارية، فإنّ تجلّيات الفنّ تملك واقعاً أكثر رفعة، و وجوداً أكثر حقيقة". (هيجل، 1964: 38-39).

إنّ الفنّ ينفذ، شأنه في ذلك شأن الفلسفة، إلى غاية الواقع الحقيقي، إلى الجوهر. ينجح العمل الفنّي، و يظهر "العمل الكبير" قانونا عاما في ظاهرة خاصة: في طبع، في فعل أو في وضعية ما، فيصبح، بالتّالي، القانون العام، التصوّري، الذي يكتسي شكلاً خاصاً، سهل النفاذ للمعنى.

يفرض، إذن، هيجل، في المجال الجمالي، نظاماً بين العام و النّسبي من جهة، والشعور من جهة أخرى. إنّه يعترف أنّ الفنّ ينتمي إلى مجال آخر غير التفكير الفلسفي: "إنّ الجمال الفنّي، في الحقيقة، يتوجّه إلى الحواس، إلى الإحساس، إلى الحدس، إلى الخيال...، إنّه ينتمي إلى مجال مختلف عن مجال التفكير [...]". (هيجل، 1964: 27).

مع ذلك، فإنّ غرابة الفنّ هذه، بالنّسبة للتّفكير التصوّري و الفلسفة، ماهي، في نهاية الأمر، سوى مظاهر: لأنّ الروح ستتعرّف، في الموضوع الجمالي، على تأسيسها الخاص بها: "لهذا السبب، فإنّ العمل الفنّي، الذي يتحوّل فيه التّفكير من تلقاء نفسه، ينتمي إلى مجال التّفكير التصوّري، و الروح، بإخضاعه للفحص العلمي، لا تعمل إلاّ على إرضاء رغبتها الأكثر حميمية. (هيجل، 1964: 32).

إنّ خضوع الإبداع الجمالي و الأدبي للخطاب التصوّري للفلسفة، يظهر جليّا في موضع آخر، أين يُبدي هيجل رأيه دون غموض حول العلاقة التدرّجية التّي يقيمها، هو نفسه، بين الفنّ و "العلم الجدلي": "غير أنّ الفنّ، كما سنراه بوضوح في موضع آخر، بعيداً عن أن يكون الشكل الأكثر سموا للرّوح، لا يتلقّى قدسيته الحقيقية إلاّ في العلم". (هيجل، 1964: 32). و تفضي هذه المحاولة لإخضاع الفنّ للخطاب الفلسفي أهمّية خاصة لشرح و نقد الجمالية الماركسية

(لـ لوكاتش و ڤولدمان). إنّها جمالية تُواصل التّقليد الهيجلي مع الزّعم أنّ كلّ النّصوص الأدبية لها "مقابلات" تصوّرية و أنّه من الممكن تقليصها إلى أنظمة مدلولات (إيديولوجية، فلسفية أو لاهوتية).. يستبعد ممثلوها تعدّد معاني النّص الأدبي مع مطابقته لمعنى خاص، معرّف في إطار الخطاب الماركسي.

الكليّة و "النمطية" عند لوكاتش:

يمكن اعتبار جمالية ماركس وإنجلز (Engels) كاستمرارية مادية للجمالية الهيجلية. أثناء مناقشة أثارها فرانز فون سيكنجن (1859) (Franz Von Sikingen)، ألقى ماركس و إنجلز اللّوم على المؤلّف (فرديناند لاسال (Lassalle)، واحد من مسيّري الحركة الاشتراكية في تلك الفترة) كونه قد جعل من البطل شخصيّة مجرّدة، الناطق باسمه الخاص و ليس شخصية حيّة. بعبارة أخرى، هما ينتقدانه لأنه جعل شخصياته تُعبّر عن أفكارٍ و حِكمٍ عامة عوض تركها تظهر من خلال صفات ذات طابع خاص، أحداث أو وضعيات خاصة.

نلاحظ، خاصة في حججهما، إعادة المقتضى الهيجلي القائل بأنّ الفنّان لا يجب عليه أن يعبّر عن الأفكار العامة إلاّ بطريقة خاصة، مخاطباً الحواس و ليس الملكات المعرفية.

أعاد ج. لوكاتش، الفيلسوف و عالم الجمال، الذي أعدّ، بعد الفترة المثالية (التي تنتمي إليها جمالية هايدڤير، روح و أشكال و نظرية الرواية)، جمالية نظامية و مادية، أعاد التصوّر النمطي ("Der Typus") الذي أدخله ماركس و إنجلز، و طوّره باستنتاجه من المقولة الهيجلية للكليّة. كان يأمل أن يسمح له هذا التصوّر بتمييز أدب مجرّد طبيعي عن أدب واقعي يعكس الحقيقة بطريقة محسوسة (بطريقة هيجل).

أين يكمن، إذن، الاختلاف بين الانعكاس المجرّد "الطبيعي" و الانعكاس المحسوس "الواقعي"؟. يكتفي الأدب الطبيعي، الذي لا يشمل عمل كاتب مثل زولا فحسب، بل أيضا التيارات الحديثة للطليعة، بإعادة أحداث، أفعال، أعمال أو ملفوظات معزولة دون إدماجها في كلّ متماسك.

إنّ الأمر مُتعلّق بانعكاس لا يتعدّى الظاهرة، و لا يتوغّل حتى الجوهر. بالتّالي، فهو لا يستجيب لمتطلبات الجمالية الهيجلية التي أعاد لوكاتش أفكارها الأساسية في تعريفه للواقعية (والطبيعية).

لم يكن إميل زولا الوحيد الذي أعاد الحقيقة بطريقة مجرّدة في تحقيقاته الصحفية، التي تستهدف تفاصيل الحياة الاجتماعية و غناها عوضا عن تماسكها: إنّ الطليعة التّعبيرية و السريالية تُخلّد التّجريد الطبيعي اعتمادا على شراكة و تلصيق تقنيات تُفجّر ترابط العالم بدلا من إثبات المثال الكلاسيكي (الهيجلي) للكليّة. تحتلّ هذه الفكرة اللوكاتشية، و التي فحواها أنّ الوسائل الأسلوبية للطليعة مجرّدة و "طبيعية"، مكانة هامة في النّظرية الماركسية ليو كوفلر (Léo Kofler) 1970، و في الواقعية الاشتراكية، كما طُوّرت في ألمانيا الجنوبية و الإتحاد السوفييتي.

يمكن اعتبار الجمالية "الماركسية – اللّينينية (léninisteّ)" لهذه البلدان كجمالية ذات أصل هيجلي تأثّر فيها علم المصطلحات بلوكاتش. (بيير زيما، 1978).

إنّ الكاتب "الواقعي" يبني، على خلاف الكاتب "الطبيعي"، وضعيات، أفعال و طبائع نمطية على طريقة ماركس و إنجلز. فكلمة "انعكاس"، إذن، لا تعني، عند لوكاتش، "عروضاً تصويريةً" للحقيقة، لكّن "بناءا للنمطيّ" الذي يصبح الأساس لأسلوب واقعي.

يبيّن لنا المرور من جمالية لوكاتش، التّي يُطوّر فيها المؤلّف المصطلحات الإنسانية والمثالية لجمالية هيدلبرغ في سياق مادي، كيفية استخدام مفاهيم هيجلية للجوهر و الكليّة من أجل تعريف النّمطي: "لا يتمّ السموّ بالموضوع، بصفته كليّة منظّمة بطريقة عقلانية، و مؤسّسة على روابط عقلانية، على مستوى الخاص، "النّمطي"، إلاّ عندما يكتسي الجزء صبغة عَرَضية وجوهرية، كاشفاً عن صيرورة". (لوكاتش، 1972: 169).

يمكننا أن نستنتج من هذه الفقرة، أنّ الخاص، الذي يُعتبر كمقولة جمالية، يشكّل تركيبا بين الظاهرة الفردية، المفردة و الحكمة النظرية العامة. فلا يمكن أن نسمّي واقعياً، حسب لوكاتش، سوى الشّكل الفنّي القادر على تأسيس الخاص في النمطي.

من الواضح أنّ لجمالية لوكاتش، شأنها في ذلك شأن كل جمالية ذات أصل هيجلي، صبغة آمرة و خاضعة في آن واحد، بالنّظر إلى أنّها تختزل وظائف الأدب في وظائف التّفكير التصوّري (الماركسي). تعتبر المتنافيات مثل طبيعي/واقعي، مجرّد/محسوس، مهم/غير مهم، أساس نظرية لا تخفي التزامها السياسي: إذ اختارت أن تكون إلى جانب ما تعتبره " قوى تقدمية للمجتمع".

يعتقد لوكاتش، على خلاف هيجل، الذي لا يولي اهتمامه للمهام التحرّرية للفنّ، أنّ الوظيفة المعرفية للأعمال مرتبطة مباشرةً بالفهم الفوري للشّعب. كما أنّ الفنّ يسهم، كما يراه و يتمنّاه، في نموّ الدّيمقراطية و "الاشتراكية".

يمكن إعادة النّظر في التصوّر اللوكاتشي لـ "الواقعية" لسببين:

1. أنّه مرتبط عن كثب بالتّقليد الأدبي لما يسميه لوكاتش و ممثّلي "الواقعية الاشتراكية" بـ "الواقعية النّقدية"، و التّي تنتمي إليها أعمال بلزاك، سكوت، إلى جانب الأعمال الحديثة لتوماس مان.

لقد حاول لوكاتش مرارا و تكرارا، وضع معايير جمالية عالمية مقبولة من خلال نصوص هؤلاء المؤلّفين؛ هذه المعايير كان من المفروض أن تكون قابلة للتّطبيق على النّتاج الأدبي المعاصر. ليس من التعسّف إذا كان ب. بريخت (B. Brecht) و آخرون قد لاموا لوكاتش على تكريسه، بطريقة مثالية و يقينية، بعض أشكال الماضي الأسلوبية. و نتيجة لذلك، العجز على فهم التطوّرات الحديثة، خاصة تجارب الطليعة التّعبيرية أو السريالية.

2. أنّ مفهوم الواقعية، في حدّ ذاته، في غاية الإشكالية، لأنّ مسألةَ معرفةِ إذا ما كان العمل الفنّي واقعياً، و إذا كان يمثّل وضعيات "نمطية"، لا يمكن أن تجد جوابا إلاّ بالنّسبة لتعريف خاص (فقط ممكن، و ليس ضروريا) للحقيقة. يميل بعض المنظّرين (أدورنو أو بلوخ (Bloch)، مثلا، الذّين يتبنّون تعريفا آخر للحقيقة غير تعريف لوكاتش، إلى وصف أعمال أدبية كلّها مختلفة، بأنّها واقعية (أعمال كافكا أو بيكيت، مثلا).

الكليّة و رؤية العالم لدى ڤولدمان:

تحتلّ مقولة الكليّة مكانةً هامةً في البنيوية التّكوينية لـ لوسيان ڤولدمان (Lucien Goldman)، الذي يتخّذ أعمال لوكاتش كنقطة انطلاق. فهو ينطلق، على خلاف هيجل في "ظاهراتية الروح"، و لوكاتش في "تاريخ الوعي الطبقي" (1923)، من فكرة أنّ الظواهر الفردية لا يمكن أن تُفهم فهما محسوسا، إلاّ في إطار تناسق إجمالي، لكنّه يختلف عنهما عندما يشير، في مقدمة كتابه "الإله الخفيّ" (1955)، إلى أنّه، في تفسير النصّ، لا يجب أن تكون العناصر الفردية تابعة لمجموعة، أو بكلّ بساطة مُستنتجة منها: يجب أيضا إثبات كيف أنّ المجموعة تظهر في كلّ عنصر من العناصر. هذا يعني، بشكل محسوس، أنّ كلّ إشكالية قصيدةٍ ما، مثلاً، يمكن أن تظهر مصغّرة في بيت من أبيات هذه القصيدة.

يدرس ڤولدمان بدقّة، في "الإله الخفيّ"، أفكار باسكال و يحاول إثبات أنّه يمكن إيجاد كلّ إشكالية الفلسفة التراجيدية لباسكال في بعض "أفكاره" المأخوذة بشكل منعزل. يحتلّ، إذن، التفاعل بين الكليّة و كلّ جزء من أجزائها مكانة هامة في تأويلية ڤولدمان.

يكتب ڤولدمان، فيما يخصّ تحليله للأفكار، أنّه يمكننا تمييز سيرورتين معرفيتين متكاملتين:

سيرورة الفهم و سيرورة التّفسير. يمكننا القول، إذا بسّطنا الأمور ، أنّ وصف التّرابط الداخلي لبنية ما (حكمة، فكرة لباسكال) مثلا، يوصل إلى فهم هذه الأخيرة، لكن من أجل التوصّل إلى شرح هذه البنية، فإنّه من الضروري أن نضعها في علاقة مع البنى الإجمالية:

أوّلا مع نصّ الأفكار بأكمله، و سيُفسَّر شكل و مضمون هذا النّص، بدورهما، نسبة إلى بنية أعمّ، أي رؤية العامل الجانيسنية (Janséniste) التّي لعبت دوراً سياسياً هاماً في النّصف الثاني من القرن 17، والتّي ربطها ڤولدمان بالوضعية الاجتماعية و بالمنافع الاجتماعية لنبالة البلاط (noblesse de robe).

من بين جميع الكليّات الممكنة، و التّي تربطها علاقة فيما بينها، في سيرورة الفهم و التّفسير، اثنتان فقط تظهران بأهمّية منقطعة النّظير: البنية الدّالة و رؤية العالم. البنية الأولى لا بدّ أن تكون جواباً للسؤال التّالي: كيف يمكننا فهم عملٍ فلسفيٍّ أو أدبيٍّ ككلٍّ مترابط، ككليّةٍ مترابطةٍ؟. يمكن اعتبار البّنية الدالة، حسب ڤولدمان، كالمبدأ الآمر، كالعامل الحاسم الذّي يجعل من النصّ الفلسفي أو الأدبي كلاًّ مترابطاً.

أثناء مناقشة مع أدورنو، خلال مؤتمر رويومنت (Royaumont) حول سوسيولوجيا الأدب، قال: "إنّ العمل الفنّي عالم كامل، و هذا العالم الكامل، الذي يُثمّن، الذي يتّخذ موقفاً، الذي يصف، و الذي يُثبت وجود بعض الأشياء، لديه، عندما نُترجمه، نظاماً فلسفيّاً كلازمة". (ڤولدمان، 1973: 532).

"نظام فلسفي": هاتان الكلمتان جدّ هامتان و يجب فهمهما في سياق هيجلي. فكل عمل أدبي يتضمّن، حسب هيجل، نظاماً تصوّرياً يمكن تعريفه بشكل متواطئ، و يجد هذا النّظام تعبيره في البّنية الدالة، التّي تُعتبر "بنية مدلولات"، حتّى نستخدم مصطلحات رولان بارث في S/Z. بتعبير آخر، يمكن نقل الأعمال الأدبية بنفس الطريقة إلى أنظمة فلسفية.

نجد هنا تفكير هيجل الذّي، حسبه، يُعبّر الفنّ عن تصوّرات بطريقة عاطفية مخاطبا الحواس. و إذا لم يقم بذلك، فإنّه غير مترابط و رديء.

ينطلق ڤولدمان، على خلاف هيجل، من فكرة أنّ تعدّد معاني النّص الخيالي ظاهريٌّ فقط، و أنّه، في الحقيقة، يمكن تعريف أيّ منتوج أدبيّ بالاستعانة بمترادف تصوّري. ولقد أشرت سابقا، في "من أجل سوسيولوجيا نصّ أدبي" (باريس، 1978)، إلى أنّ هذا الاستدلال مجرّد

وهم و غير مقبول لسوسيوولجيا النصّ. و يقوم هذا النّظام التصوّري الضّمني (sous - jacent) لعمل فنّي، حسب ڤولدمان، بوظيفة مزدوجة.

يُنظّم، من جهة، وحدة العمل، و يُعبّر عن رؤية العالم، و وعي جماعة اجتماعية من جهة أخرى. فالعمل الأدبي ليس نتاج مؤلّفٍ بصفته فرداً، إنّما يكشف عن الوعي الجماعي، المنافع و القيم الاجتماعية لمجموعة أو طبقة. فالأعمال الكبيرة هي الوحيدة التّي تُعبّر، بترابطها، عن رؤية العالم و وعي جماعة ما.

ينطلق ڤولدمان، على خلاف هيجل و لوكاتش، من حكم قيمي جمالي مع التّأكيد أنّه على الفنّ و الأدب محاولة الوصول إلى ترابط على جانب كبير من الكمال. من المؤكّد أنّ هذا الحكم تعميم غير مقبول، و لا يأخذ بعين الاعتبار فن الطليعة (السريالي، التعبيري أو المستقبلي)، الذّي يرفض ممثلوه المسلّمة الكلاسيكية والكلاسيكية الجديدة للتّرابط.

ليست رؤية العالم، كما عرّفها ڤولدمان، فعلاً تجريبيّاً، إنّها لا تنتمي إلى عالم التجارب اليومية التّي تُميّزها سلالم قيمٍ نسبية الثبات. و لا يبنى وعي جماعةٍ اجتماعيةٍ بطريقة تظهر بها "رؤية العالم"، إلاّ في عملٍ "كبير": كليّة دالة من القيم و المعايير.

لهذا السبب، فإنّ رؤية العالم التّي نجدها في "عمل كبير"، لا تعبّر عن الوعي التّجريبي، الحقيقي لوعي جماعةٍ ما، إنّما تعبّر عن وعيّ مثاليّ، أقصى وعيٍ ممكن. إنّ الأمر متعلّق بوعي كامن، لأنّنا نجده في حالة ضمنية في العمل الذي يحلّله سوسيولوجيو الأدب ويعيدون بناءه.

سنرى كيف يجد ڤولدمان رؤية العالم الجانسيني في تراجيديات و دراما راسين وكيف يربطها، على المستوى الوظيفي، بنبالة البلاط (noblesse de robe). إنّه يتحدّث عن اِنسجام بنائي بين العمل (بنيته الدّالة) و رؤية العالم التّي نجدها سواء داخل العمل الراسيني أم خارجه (المعتقد الجانسيني).

نلاحظ هنا، إلى أيّ حدّ تُعتبر الحجج التّي قدّمها بعض النّقاد، من أجل إثبات أنّ النّظريات الأدبية الماركسية تعتبر النّصوص كإعادات آلية للحقيقة، تبسيطات غير عادلة. و الدليل على ذلك أعمال لوكاتش و ڤولدمان: يظهر فيها الأدب كشكل من أشكال الإنتاجية (وليس كإعادة جامدة) تتعدّى عالم التّجربة اليومية. إنّه (أي الأدب) يكشف عن الجوهر (لوكاتش) أو أقصى وعي ممكن (الوعي المثالي) لجماعة ما (ڤولدمان). فهو، إذن، يلعب دوراً فعالاً، بما أنّه يُنظر إليه كنشاط مُبَنْيَنٍ يُغيّر الواقع و يتعدّاه.

د. نقد أدورنو للجمالية الهيجلية:

إنّ وجهة النظّر التّي تبنّاها ت.و.أدورنو، أحد أبرز أعضاء مدرسة فرا كفور (Fracfort) (التّي تأسست عام 1923)، ، اتجاه جماليّة هيجل تبدو مغايرة تماما. و تتعلّق إحدى حججه الرئيسية بإمكانية تحويل الفنّ (الأدب) إلى تفكير تصوّري فلسفي، معتقدي أو علمي. إذ يرى أنّه من المستحيل إيجاد مكافئات تصوّرية لنتاج أدبي، و هو، بالتّالي على خلاف تام مع ڤولدمان عندما يزعم أنّه يمكن اختزال نصّ أدبي، مأخوذ ككليّة متجانسة، إلى نظام تصوّري (إلى "رؤية عالَم").

يمكننا القول، بنوع من التّعميم، أنّ أدورنو يعرِّف الأدب كسلبية تميّزها مقاومتها للإيديولوجية، للفلسفة و للتّفكير التصوّري بكل بساطة. و أثناء قراءتنا لأدورنو، يجب الأخذ بعين الاعتبار كونه يتّخذ كنقطة انطلاق الإنتاج الفنّي لـ "الجمالية" و الطليعة، و أنّه، بالتّالي، لا يأخذ بعين الاعتبار إلاّ الأدب النّقدي (أدب مالارمي، جورج، كافكا و بيكيت) الذي يحاول، دائما بطريقة واعية (لنفكّر في مالارمي و جورج)، التحرّر من رواسم اللّغة التواصلية: لغة الإيديولوجية و التّجارة.

كيف يمكن تفسير مقاومة النّص الأدبي النّقدي للتواصل؟

- إنّ وجود عناصر تخلقية، وغير تواصلية داخل النّص، يُضعف وظيفته التواصلية ("وظيفته النّقدية « sa fonction de numéraire » السهلة و التمثيلية"، كما يقول مالارمي) و يتسبّب في انفصال نهائيّ بين الخيال و الايدولوجيا.

من النادر أن يلاحظ مناصرو النّظرية الماركسية للأدب هذه القطيعة، و حتى هيجل، حسب أدورنو، لم يلاحظها، ما يفسّر لماذا تمكّن من لعب دور رائدٍ لجماليةٍ خاضعة، كما طوّرها ماركسيين أمثال لوكاتش: "كان هيجل يعتبر الروح في الفنّ كدرجة لطريقة ظهورها، يمكن استنتاجها انطلاقا من النّظام، و سهلة، إن صحّ التّعبير، في كلّ جنس(genre) و ممكنة في كل عمل فنّي، على حساب القيمة الجمالية للغموض (أدورنو، 1974: 126).

يتّضح من نقد أدورنو أنّ خضوع الجمالية الماركسية (إختزاليتها) ليس ناتجا عن مسلمة الالتزام السّياسي فحسب، إنّما أيضا، و ربما خاصة، عن الفكرة التّي نجدها عند هيجل، لوكاتش و ڤولدمان، و التّي يمكن، حسبها، أن تُترجم الأعمال إلى أنظمة تصوّرية متجانسة.

و يرفض أدورنو، بالمقابل، أولوية التصوّر في الفنّ ليركّز على اللّحظات غير التصوّرية، غير التواصلية و التخلّقية للّغة الخيالية. باللّغة السّيميائية: إنّه يلحّ على دور الدّوال

متعدّدة المعنى على حساب المدلولات، (التصوّرات). (فهو، بهذا الصدد، يتبع الشكلانيين الرّوس، ومنظّري حلقة براغ، خاصة يان ميكاروفسكي (Jan Mukarovsky).

إنّ الأدب النّقدي (أدب الطليعة مثلا)، كونه لغةً غامضةً و غير تواصلية، يناقض التّواصل الاجتماعي و أهدافه النّفعية و العملية. و يكتسي نقده مظهرين:

1. يبدو أنّه غير منسجم مع مبدأ الهيمنة (أدورنو، هورخيمر Horkheimer)، الذّي يمكن أن يتّخذ شكل مناورة إيديولوجية.

2. إنّه يرفض مسلّمة النّفعية الضّمنية للتّواصل ذي الغرض التّجاري، وينزع إلى التحرّر من قانون السوق و من الوساطة و ذلك عن طريق قيمة التبادل.

1) لقد حاول أدورنو و هورخيمر سابقا، في جدلية العقل (أمستردام Amsterdam 1947)، إثبات أنّ معظم أشكال التّفكير الفلسفي، كما هي موجودة منذ عصر الأنوار، عبارة عن أدوات للهيمنة، و ما يسميه ماركوس (Marcuse) بـ "مبدأ الارتجال . فالأمر متعلّق خاصة بتفكير يبحث عن الفاعلية التقنية، يصنِّف، يحسِب و يقيس من أجل احتجاز الحقيقة في نظام.

إنّ تفكيراً كهذا يفضّل هيمنة الإنسان على الطبيعة التّي حُوّلت إلى مادة أوّلية. و هو تفكير يكتسب أهمّيته أكثر فأكثر في الفلسفة و العلوم الاجتماعية المعاصرة الموجّهة نحو الفاعلية التّقنية والمرتبطة دائما بـ "المنافع الكبرى" للصّناعة و التّجارة. و يؤكّد أدورنو و هورخيمر أنّ هذا التّفكير، الذي يسمّونه بـ أداتي (Instrumentale)، سينقلب على الذي يُفكّر في استخدامه بسيادة مطلقة: ضدّ الإنسان باعتباره موضوعا مهيمنا و مؤلّفا للخطاب العقلاني والنّظامي. إنّه يشتبك في نظام يدور فيه كلّ شيء حول الفاعلية، و تتوازى فيه هيمنة الإنسان على الطّبيعة مع استغلال الإنسان لأخيه الإنسان.

لن يُتَّخذ، إذن، أيّ إجراء ضدّ النّظريات و تصوّراتها إلاّ بالنسبة لمنفعتها التقنية. والتّفكير الذي يستند إلى العلوم الدقيقة و نجاحاتها، لا يأخذ بعين الاعتبار المضمون النّقدي لتلك النّظريات و أهمّيتها في السعادة أو التعاسة الإنسانية. (ج.هابرماز، التقنية و العلم كإيديولوجا، باريس، 1973)، إلاّ أنّنا نجد أنّ لأدورنو رأياً آخر، إذ يفكّر في إمكانية إعطاء توجّه جديد للنّظرية، و يكون ذلك بالأخذ بعين الاعتبار البعد النّقدي و التخلّقي للفنّ: "لم تعد الروح تظهر، في الأعمال الفنّية، كالعدوّ القديم للطبيعة. إنها تعتدل إلى حدّ التصالح". (أدورنو، 1974: 181).

كيف يمكن فهم جملة النظرية الجمالية هذه؟

إنّها تعني أنّ الأدب و الفنّ يتبنّيان، بفضل جوهرهما التخلّقي، غير التصوّري، سلوكا تجاه الحقيقة غير التّفكير التصوّري: سلوكا غير مهيمن، مُصالح، يميّزه غياب أيّ خطاب نظامي و تصنيفي. (إنّه لمن المهم ملاحظة أنّ نقد أدورنو للواقعية، يتقاطع، في بعض النقاط، مع النّقد الذي وجّهه جاك دريدا لـ "النّزعة المركزية" في الفلسفة الأوربية. جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، باريس، 1967).

يخلص أدورنو إلى أنّه يجب على نظرية نقدية، ترفض خدمة الأهداف الإيديولوجية و الهيمنة الخاضعة، أن تمتصّ اللّحظات غير التصوّرية، و التخلّقية للأدب. و يشهد النّقد التّجريبي، الذي يمارسه أدورنو، محاولته للتّفكير كنموذج، إلى جانب البنية Paratactique (لا Hypotactique، لا تدرّجية) لنظريته الجمالية، على مجهوداته للتّوفيق بين المبدأ التخلّقي للفن مع البناء المنطقي و التصوّري للنّظرية.

2) لا يمكن الفصل بين المظهر الآداتي للنّظرية و النّفعية التّي تهيمن على مجتمع السوق. و ما يفسّر عدم تمثيل سوسيولوجيا الأدب و الفنّ في معاهد و مؤسسات السوسيولوجيا، هو كونها ليست نافعة لا للاقتصاد و لا لإدارة الدولة. فالنّظريات التي تتمتّع بفرصٍ أكبر للنموّ، هي تلك التي لا شكّ في منفعتها.

و على عكس ذلك، فإنّ الأدب الطلائعي، الذي يهدف إلى إضعاف الوظيفة التصوّرية و المرجعية للّغة، بتفضيل الدّال متعدّد المعاني و القابل للتّأويل، يقصي نفسه بنفسه من نظام تواصلٍ تُسيّره قوانين السوق.

إنّه (أي الأدب الطلائعي) يختار، حسب أدورنو، أن يكون عديم الفائدة، في مجتمع تُهيمن عليه قيمة التّبادل. و يتنافر شعر الطليعة (شعر مالارمي، ريمبو (Rimboud)، أو سيلان Celon)، بفضل انغلاقه، مع كلّ تفكير آداتي (ذو غرض تجاري أو إيديولوجي) و مع التواصل، بكل بساطة.

تكتسي، إذن، مقاومة الفن للتّفكير الآداتي، النّافعة، في جمالية أدورنو، مظهرين:

إنّها في نفس الوقت رفض للإيديولوجيا و لقيمة التّبادل، التّي يُعتبر فيها التّفكير الشفوي تواصلاً ذو غرض تجاري. و يلعب هذان المظهران للرّفض النّقدي، للسّلبية الجمالية، دوراً هاماً في تأويلات قصائد أدورنو. يحرّره الغموض والصّبغة الفريدة من نوعها للشّعر النّقدي سواء من المناورة الإيديولوجية أم من التّواصل ذي الغرض التّجاري. فمضمونها للحقيقة يختفي، حسب أدورنو، في لا هويتها و سلبيتها بالنّسبة للأنماط الإيديولوجية و قوانين السوق.

النقد و الإيديولوجيا لدى ماشيري (Macherey):

يرفض بيير ماشيري، شأنه في ذلك شأن أدورنو، اعتبار النّص الأدبي ككلّ متجانس، كتعبير عن رؤية العالم (ڤولدمان) أو عن إيديولوجيا. إنّه يعارض، مثل أدورنو، جمالية هيجل الكلاسيكية، التّي تُركّز على ترابط العمل و وحدة معناه: "لا يجب البحث في النّصوص، كما كتب مع باليبار، عن علامات اتّساقها، لكنّ عن إشارات على التّناقضات المادية (المحدّدة تاريخيا) التّي تنتجها، و التّي تتواجد فيها على شكل نزاعات، حُلّت بطريقة غير متساوية". (باليبار، ماشيري، 1974: 37).

يُعتبر مفهوم "العمل" (الذي يتطابق معه مفهوم "المؤلّف")، بالنّسبة لتلامذة ألتوسير: ماشيري و باليبار، جزءا من "الإيديولوجيا الأدبية"، التّي يتعلّق الأمر بالكشف عنها كوسيلة هيمنة للبرجوازية. و بعيدا عن تعبيره عن إيديولوجية مترابطة (إيديولوجيا البرجوازية مثلا)، فإنّ النصّ يكشف، رغما عنه و رغما عن مقاصد المؤلّف، عن التّناقضات الإيديولوجية، التّي من المستحيل حلّها في الحقيقة الاجتماعية. إنّه لا يمثّل الايديولوجيا، لكنّه يعرضها بإظهار تناقضاتها و خلافاتها: "منها فكرة أنّ النصّ الأدبي ليس تعبيراً عن إيديولوجية (صياغتها في كلمات)، بقدر ما هو تمثيل لها، تعريتها، عملية، تنقلب فيها، بشكل ما، على نفسها [...]". (باليبار، ماشيري، 1974: 39).

يكشف النّص الأدبي، إذن، على خلاف النّظرية الماركسية لكنّ في مستوى آخر و بوسائل أخرى، يكشف عن حدود الايديولوجيا، و يسمح للقارئ (النّاقد) بتخطّيها و مراقبتها "من الخارج". ستكفّ الإيديولوجا، في هذه الحالة، عن ظهورها كطبيعيةٍ، "كأمر مفروغ منه": إنّها تبدي احتمال وقوعها و تاريخيتها. و لا توجد نتائج النّص الأدبي هذه سوى في وعي القارئ النّاقد(الألتوسيين « althusseriens »)، لأنّ البعد النّقدي للنّص، حسب ماشيري، ليس ناتجا عن قصد المؤلِّف، لكنّ عن كونه يعبّر عن الحقيقة (تناقضات الايدولوجيا) دون أن يُدرك ذلك.

يلاحظ ماشيري، بصدد بلزاك، في "من أجل نظرية الإنتاج الأدبي" أنّه: "يُعتبر عمل بلزاك، أكثر من أي عمل آخر، أفضل تمثيلية لهذا الواجب الذي يتواجد فيه كلّ كاتب، من أجل قول شيء، و حتى قول أشياء أخرى في نفس الوقت". (ماشيري، 1966: 326).

لم يقصد بلزاك بتاتا، في روايته "الفلاحون"، نقد إيديولوجية البرجوازية المتصاعدة، بل على العكس من ذلك: كان يحاول إثبات (حسب ماشيري) أنّ فلاحي مورفان (Morvan) يشكّلون خطرا على النّظام الإجتماعي. إنّه يثبت، في الحقيقة، دون أن يقصد ذلك،

أنّ مجموعة الفلاحين في طريق الاختفاء و أنّ السبب الرئيسي في اختفائهم هو التطوّر السريع للرأسمالية الأدبيّة.

يبدو ضروريا، بقبولنا فكرة ماشيري التّي مفادها أنّ النّص الأدبي بنية غير متجانسة، و حتّى متناقضة، توجيه بعض الملاحظات النّقدية للمقاربة الألتوسيرية في نظرية الأدب:

1. لا يرى ماشيري، بإعادة فكرة ألتوسير (التي يدين بها لـ لاكان) دون تحفّظ، و التّي مفادها أنّه يجب وضع الايديولوجيا في اللاّوعي و أنّ الفرد (الكاتب) يقبل بطريقة لاواعية بعض الافتراضات الإيديولوجية، أنّ الممارسة الأدبية يمكن أن تكون، أنّها كانت دائما، نقداً واعياً للخطاب الإيديولوجي. كانت كذلك عند بلزاك، الذّي يقدّم للقارئ نقداً مفصّلاً – و واعيا تماما – للنّبالة ذات النّزعة الشّرعية، و التّي لها كلّ تعاطفاتها السياسية.

إنّ نقد الإيديولوجيا هو أيضا واعي عند المؤلفين أمثال موسيل (Musil)، سارتر و كامو، حيث يتّخذ أشكالاً أكثر دقّة ممّا هي عليه عند بلزاك، بالنّظر إلى أنّه يمتدّ، ليس فقط إلى "الوقائع التاريخية" و دلالة النّص، لكن أيضا إلى البنى السردية للقصة التّي تبدأ في التّفكير في تركيبها و تناقضاتها.

2. ينزع ماشيري، مثل باليبار، نحو تحويل الممارسة الأدبية إلى إيديولوجية، مثبتا أنها تنتمي إلى "الأجهزة الإيديولوجية للدولة". و منطلقا من فكرة أنّ كل كاتب يقترح (دون أن يبلغ غايته) حل تناقضات إيديولوجية في نصّه.

يبدو لي، بهذا الصدد، أن مقاربة أدورنو، التّي تمّ عرضها سابقا، أكثر دقّة: فمع أنّه يُسلّم أنّ للنّص الأدبي (قصائد ستيفان جورج مثلا) مظاهر إيديولوجية وردعية، إلاّ أنّه يعتبره (أي النصّ) كظاهرة مزدوجة تؤلّف عناصر نقدية مع عناصر إيديولوجية.

بالمقابل، وحسب ماشيري، فإنّ الأدب يُعتَبر، قبل كل شيء، ممارسة إيديولوجية، و طموحه في السيادة سيرورة مؤسّسة في إطار الهيمنة الثّقافية للبرجوازية. و الأدب، في نظر أدورنو، "فعل اجتماعي" (من أصل برجوازي)، و في نفس الوقت عالم مستّقل يظهر فيه ما وراء النّظام الاجتماعي السائد. فعلى خلاف تلامذة ألتوسير، الذّين ينزعون دائما إلى إرجاع الفنّ إلى أصله ("البرجوازي")، فإنّ أدورنو ينظر إليه، بالتّوازي مع الفلسفة الجدلية الحديثة التّي يمكن اعتبارها دائما، رغم نشأتها في مؤسسات برجوازية، كنفي لهذه المؤسسات.

المقال الأصلي:

Les méthodes empiriques et dialectiques de la sociologie de la littérature

Pierre v. Zima & Picard

Editeur

ترجمة ومناهج

التَّرجمة الآلِيَّة

بقلم: ترجمة:أ. الجوهر خالف (ج. تيزي- وزو)

1. تعريفها وتاريخها:

الترجمة الآلية هي أداة مفيدة، غير أنَّه لا يمكنها أن تستبدِل المترجِم المحترف ولا نقصد بها أن تحل محلَّه. فالإنسان لا يتدخل خلال العملية، على عكس الترجمة بمساعدة الحاسوب (TAO) التي تتطلب بعض التفاعل بين الإنسان والآلة.

يقوم البرنامج المعلُوماتيّ للترجمة الآلية بِتحليل نصّ في اللغة المصدر (النص المُراد ترجمته) ويُوَلِّد تلقائيا نصًّا مُقابلِا في اللغة الهدف (النص المترجَم)، وذلك باستخدام قواعد محدَّدَة لتحويل البنية النحوية إذ نقرأ على موقع EAMT (الرابطة الأوروبية للترجمة الآلية) ما يلي:« يوجد اليوم عدد لا بأس به من الأنظمة التي تأتي بِنتائج مُرضيَة، و حتى إنْ لم تكُن كامِلة، فإنَّ نوعيتها كافية للاستِفادة منها في بعض التطبيقات المُحدَّدة ، ويكون هذا عادةً في مجال الوثائق الفنية. بالإضافة إلى ذلك، تتمتع البرامج المعلوماتية للترجمة، التي تهدف في المقام الأول إلى مساعدة المُترجِم البشري في إنتاج ترجمات، بشعبية متزايدة لدى الهيئات المهنية في مجال الترجمة.

وهذا مُوجز لِلأخبار عرضه الموقع الإلِكتروني لِشركة Globalink، التي فُقِدَت منذ ذلك الوقت لِيَتِمَّ اقتناؤها مِن قِبَل Lernout & Hauspie عام 1999.

لقد كانت الترجمة الآلية و المعالجة الآلية للغات الطبيعية تتطوَّران منذ بداياتهما الأولى، جنبا إلى جنب مع تطور المعلوماتية الكميَّة. فخلال الحرب العالمية الثانية، استفاد تطوُّر أجهزة الكمبيوتر المُبرمَجة من تقدُّم عِلْم التشفير والجهود المبذولة لمحاولة فكِّ الشفرات السرِّية الألمانية والشفرات الأخرى للحَرْب. و قد شكَّلَتْ الترجمة وتحليل النصوص في اللغات الطبيعية، إثر الحرب، قاعدة للعمل في مجال تكنولوجيا المعلومات الناشئة .

و ارتكز البحث، في خمسينيات القرن الماضي، على الترجمة الحرفية، أي الترجمة كلمة بكلمة دون مراعاة القواعد اللسانية. فالمشروع الرُّوسِيُّ الذي انطلَق من جامعة "جورج تاوْن" عام 1950، يُمثِّل أوَّل مُحاولة منهجية ترمي إلى إنشاء نظامٍ للترجمة الآلية بحيث يُمكن استخدامه في مجال الترجمة. وقد أجرِيَت أيضا الأبحاث في أوروبا والولايات المتحدة في الفترة الممتدة بين الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضي. وفي الوقت نفسه، عرفتْ الأبحاث في مجال اللسانيات النظرية تقدُّمًا سريعًا لِتَبلُغ ذروَتَها سنة 1965 بإصْدار "نعوم تشومسكي" كتاب Aspects of the Theory and Syntax الذي يقترحُ تعريفًا جديدًا لِعِلْم الأصوات و النَّحْو والصّرف والدّلالة في اللُّغة الإنسانية.

و في عام 1966، قدَّم تقرير وكالة ALPAC بالولايات المتحدة تقديرًا سلبيا قبل الأوان حوْل قيمة أنظمة الترجمة الآلية و الآفاق التي تُوَفِّرُها فَتَسبَّب ذلك في وضع حدٍّ للتّمويل والتجريب في هذا المجال طيلة العقد الذي والاه. إلا أنه وفي أواخر السبعينيات من القرن الماضي، أعيدت الكرة بإجراء مُحاولات جادة مُوازاة مع تقدُّم المعلوماتيَّة وتكنولوجيات اللغة. وشهدت هذه الفترة أيضا تطوير أنظمة التحويل و بُرُوز أولى المحاولات لأغراض تجارية. وقد اقتنَعَتْ شركات مثل Systran و Metal أنّ الترجمة الآلية هي سوق مُجدية ومُفيدة إذْ طوَّرَتْ مُنتجات وخدمات في الترجمة الآلية واصلةً إيَّاها بخادِم مركزي(serveur central). ولكن هناك العديد من المشاكل المُتمثِّلة في ارتفاع تكاليف التنمية والمعاجم التي تتطلب جهودًا جبَّارة و وُجود صعوبات لاقتراح ثُنائيّات لُغَوِية جديدة وعدم تمكُّن المُستخدِم العادي من التحصُّل على مثل هذه الأنظمة وأخيرًا صعوبة التقدُّم نحو محطات جديدة للتنمية.

2. رداءة النوعيَّة و التقدم الملموس:

إنَّ أحدث البرامج المعلُوماتية في الترجمة الآلية من صُنع شركة IBM و يُعرَف بخادِم الترجمة WebSphere الذي يُمكنُه ترجمة صفحات وِيب تلقائيًّا إلى عدَّة لغات و كذلك رسائل البريد الإلكتروني وحِوَارَات دردَشَة مُباشِرَة. إنَّه قادرٌ على تأويل 500 كلمة في الثَّانية كما يسمح بإضافة مفردات مُتخصِّصَة (في المالية و العلوم...). و يمكن لِمُزَوِّدِي الخدمات على الأنترنيت وكذا الشركات عرْض نُصُوصَهم المكتوبة باللغة الإنجليزية على شكل نُسَخ بالإسبانية والألمانية والفرنسية والإيطالية و العكس بالعكس. ويمكن أيضا ترجمة الوثائق المَوْجُودة باللغة

الإنجليزيـة إلـى اللغـة الصـينية واليابانيـة والكُورِيَّـة، ولكـن العكـس يظـلُّ مُسـتحيلا. وبعـد أنْ قامـتْ Deutsche Bank خُصُوصًا باختبار هذا البرنامج المعلُوماتيّ، تمَّ تسويقه في شهر مارس2001 بمبلـغ 10 000 دُولار أمريكـيّ، أيْ مـا يُقابِـل 10 500 يُـورُو. و فـي بَيَـان ذَكَرَتْـهُ وكالـة الأنبـاء الفِرنسـيَّة، يُصـرِّح SteveMcClure ، نائـب رئـيس Speech و Natural Language Software التي هي إحدى فُرُوع مكتب المجلس الدولي Data Corporation قائلاً: « لم تكُن صناعة الترجمة الآلية، إلى حدِّ الآن، مُشَكَّلَةً سِوَى مِن عددٍ قليل من الشركات و لم يَكُن لدَيْها زعيمًا بارِزًا. فدُخُول شركة IBM في هذه السُّوق يُمَثِّل نقطة تحوُّل حاسِمَة مِن شأْنِها أن تسمحَ بحلول عام 2003، تسريع اعتماد الترجمة بالكمبيوتر، وهي سوق تُقَدَّر بـ 378 مليون دولار أي ما يقابل 397 مليون يُورُو.

ومـع ذلـك، فقـد حقَّقَـتْ "بعـض الشَّـرِكات" المُنافسـة لشـركة IBM العديـد مـن الإنجـازات لِحِسَابها. فشركة Softissimo التي أصـدَرَت برامج معلوماتيـة للتَّرجمـة الآلية وتعلُّم اللُّغات، هي مُنشِئَة Reverso، سلسلة من البرامج المعلوماتيـة للتَّرجمـة. وتُعَدُّ الشركة أيضـا صـاحبة مُنتجـات للكتابـة المتعددة اللغات و القواميس الإلكترونيـة و المسـاعَدة علـى التَّحرِيـر ومنهجيَّات اللغات. كمـا يتكفَّل Reverso على الأخصّ بتجهيز Voilà و هو مُحرِّك بحث "فْرَانْسْ تِيلِيكُوم". وقد اختصَّ Systran (و هـو مُختَصَـر لـِ System Translation) فـي مجـال التكنولوجيـا والبـرامج المعلوماتيـة للترجمـة الآليـة. و يُستَخدَم برنامجُـهُ خُصُوصًـا فـيAltavista World، الـذي يُمثِّل خدمـة الترجمـة الآليـة لِـ AltaVista. وتقترح شركة Alis Technologies تكنولوجيات وخدمات استشارية في مجال التَّواصُل اللغوي، كما تحتلُّ شركة Lernout & Hauspie (L&H) الرِّيَادَة عالميًّا فـي ميدان التعرُّف الصَّوْتِي بحيث تَعرِض مُنتجات وَخَدمات في الإملاء والترجمة والضـغط الصَّوْتي و التركيب الصَّوْتي والتَّوْثيق الصِّناعي الآلي للجُمهور العريض وللمِهَنيّين والصِّنَاعيّين.

تُوجَـد كـذلك فِـرَق بحـث نشـيطة جـدًّا فـي هـذا المجـال، وفيمـا يلـي بعضـها: شـبكة (European Network of Excellence in Human Language Technologies) ***ELSNET*** التـي يُمَوِّلُها برنـامج (Human Language Technologies) ***HLT*** للمجموعة الأوروبية تَضُمُّ135جامعة وشركة من 26 بَلَد مُختلف، كلُّها مُتخصِّصَة في تكنولوجيات اللغة والكلام. و في رِحاب مَخْبر ***CLIPS*** (Communication langagière et interaction personne-système) التـابِع لِمعهـد المعلُوماتيـة والرياضـيات التطبيقيـة (IMAG) بجامعـة "غرُونُوبْل"، فإنَّ مجموعة(Groupe d'étude pour la ***GETA*** traduction automatique)

هو فريق متعدد التخصصات يتكوَّن من علماء في المعلُوماتية واللسانيَّات و تُغطِّي مجالات البحث فيه جميع الجوانب النظرية و المنهجية والتطبيقية للترجمة بِمُساعدة الحاسوب (TAO)، و للحَوْسَبَة المتعدِّدة اللغات بصُورة أَعَمّ. وتُشارك ***GETA*** في البرنامج العالَميّ للُّغة عبر الشبكة (UNLP) ، وهو مشروع "في اللغة الرقمية الواصِفَة " للترميز والتخزين والبحث و تبليغ معلومات متعددة اللغات بمَعزِلٍ عن لُغة مصدرٍ ما، وبالتالي عن نظامٍ مُعيَّن للفكر. ويجري هذا المشروع تحت رعاية جامعة الأمم المتحدة بِطُوكيو. ففي إطار معهد علم الأنباء بجامعة جنوب كاليفورنيا، يَدرُس فريق Natural Language Group العديد من مظاهر مُعالَجة اللغة الطبيعية منها: الترجمة الآلية والتلخيص الآلِي للنُّصُوص والتحصُّل على الأفعال بالتعدُّد اللُّغوِي، و تسيير النُّصُوص و تطوير تصنيفات للمفاهيم (أُنطُولُوجيات) والخطاب وتوليد النصوص، و وَضْع معاجم كبيرة لعدَّة لُغات، والاتصالات المُتعدِّدة الوسائط.

إنَّ أقوَال Eduard Hovy ، رئيس الفريق Natural Language Group ، التي جُمِعَت طيلة ثلاث سنوات (1998 ، 1999 ، 2000) تَدُلُّنا بشكل واضح على آخِر تطوُّرات الترجمة الآلية.

و قد كانت تَعالِيق "هُوفِي" في أغسطس 1998 كالتَّالي: « في سياق البحث التَّوْثيقي والتلخيص الآلي للنُّصوص ، يُعتَبَر التعدُّد اللُّغَوِي على الأنترنيت ضربًا من التعقيد للموضوع. فالناس يكتبون بلُغاتهم لأسبابٍ عدَّة: للتَّسهيل أو للتكتُّم أو للتَّواصل على المستوى المَحَلِّي، ولكن هذا لا يعني عدم اهتمام أشخاص آخَرِين بقراءة ما يقُولُه هؤلاء! وهذا ينطبق بصفة خاصة على الشركات العاملة في مجال تكنولوجيا المعرفة المستمرة (و لْتَكُن شركة إعلامية تسعى إلى معرِفة جميع المقالات المنشُورَة في الصُّحُف والدَّوْريات اليابانية والمتعلقة بمجال نَشَاطِها) و وكالات الاستخبارات الحكومية التي تُوَفِّر آخِر نَبَأ يستعمِلُهُ المسؤُولُون بعد ذلك لِتقرير السِّياسة المُتَّبَعة ...). و تتمثَّل إحدى المُشكلات الأساسية التي تُوَاجهُها هذه الوكالات في كميّة المعلُومات الهائلة، لذا فهي تستخدِم مُوَظَّفِين ثُنائيِّ اللغة "جامِدِين إن صحَّ التعبير" يستَطيعُون تصْوِير النصوص بسرعة لِيَترُكُوا جانبًا ما لا أهميّة فيه و يُقدِّمُوا بعد ذلك الوَثائق المُفيدة لِمُترجِمِين مُحترِفِين. و يبدُو من الواضح أنَّ التركيب بين التلخيص الآلِي للنصّ والترجمة الآلية سيُشكِّل فائدة كبيرة في هذه الحالة. وبما أنّ الترجمة الآلية طويلة في الغالب، يُمكن أوَّلاً تلخيص النص في اللغة الأجنبية، ثم القِيَام بِترجمة آليَّة سَرِيعة انطلاقًا من النتيجة المُتحصَّل عليها، ونترك للإنسان أو لِمُصَنِّف

النُّصُوص (المُتخصِّص في البحث التَّوْثيقيّ) المجال لِيُقَرِّر ما إذا وَجَبَ الاحتفاظ بالمَقال أو رفضُهُ.

لهذه الأسباب، قامتْ حكومة الولايات المتحدة، خلال خمس سنوات، بتمويل أبحاث في الترجمة الآلية و التلخيص الآلي للنُّصوص و البحث التَّوْثيقي كما تهتمُّ بإطلاق برنامج بحث جديد في الحَوْسَبَة التَّوْثيقية المتعدِّدة اللُّغات. و بذلك سنَتَمَكَّن مِنْ فتح مُتصفِّح وِيب (navigateur web) مثل Netscape أو Explorer و إدخال طَلَب باللُّغة الإنجليزية و كذا الحصول على قائمة الملفَّات في كلِّ اللُّغات بحيث تُجمَّع هذه الملفَّات في فِئات فرعية مع تلخيصٍ لِكُلِّ ملفّ و ترجمةٍ للتلخيصات الوارِدة باللُّغات الأجنبية و كلُّها أُمور قد تكون نافعة جدًّا.

و بِزيارة MuST نِظام البحث عن المعلومات المُتعدِّدة اللُّغات و الترجمة والتلخيص (multilingual information retrieval, summarization and translation system)، ستَحصُلُون على عرضٍ لِنُسختِنا مِن برنامج البحث هذا الذي يَستعمِل اللغة الإنجليزية كلُغة للمُستخدِم (langue de l'utilisateur) على أساس مجموعة تتكوَّن مِن زُهَاء 5000 نصّ بالإنجليزية و اليابانية و العربية و الإسبانية والأندَنُوسية. أَدْخِلُوا طَلَبَكُم (فَلْيَكُن مثلاً "baby" أو أيَّ مُصطَلَحٍ آخَر) ثم اضغطوا على مَلْمَس عَوْدَة (touche Retour). ستَرَوْنَ في النافذة الوَسَطيَّة العناوين (أو الكلمات المِفتاحية المُترجَمَة) و على اليسار، لُغة هذه الملفَّات حيث يُمثِّل 'Sp' اللغة الإسبانية و 'Id' اللغة الأندَنُوسية، و غيرها. أُنقُرُوا على العدد الواقع في الجزء الأيْسَر من كلّ خطّ لِرُؤية الملفّ في النافذة السُّفلية ثم أُنقُرُوا على 'Summarize' لِلْحُصُول على المُلَخَّص و على 'Translate' للحصول على الترجمة (حذارِ من الترجمات العربية و اليابانية فهي بطيئة لِلغاية! جرّبُوا بدَلاً من ذلك الأندَنُوسية لِترجمة سريعة كلمة بكلمة). إنَّ برنامج العرض هذا لا يُعَدُّ مَنْتُوجًا (بعد) فمازال علينا القيام بالعديد من الأبحاث لتحسين نوعية كلِّ مرحلة غير أنَّ هذا يُبيّن الاتِّجاه الذي نسير فيه.

و في أوت 1999 ، أَدْلَى " إدْوَار هُوفي " Eduard Hovy بالتعاليق التالية: « خلال الأشهُر الإثْنَا عشَر الأخيرة، اتَّصَل بِي عدد هائل من الشَّرِكات و الشَّرِكات النَّاشِئة الجديدة في تكنولوجيا المعلومات يَنْوِي مُعظمها عَرْض خَدَمات مُتَعَلِّقة بالتِّجارة الإلكترونية (بيع على الأنترنِيت، تبادُل، تحصيل معلومات...و غيرها). و بالنَّظَر إلى النَّتائج الضعيفة التي تُسَجِّلُها التكنولوجيات الحالية لِمُعالجة اللُّغة خارج مراكز البحث، فالأمر مُفاجِئ نَوْعًا ما. ما هي آخِر مرَّة وَجدْتُم فيها بِسُرعة إجابة صحيحة عن سؤال طَرَحْتُمُوه على الأنترنيت دُون أن تقُوموا خلال فترة

باستِعراض معلومات لا علاقة لها إطلاقًا بِما تَبحَثُون؟ و لكن الجميع بِنَظري يُحِسُّ بأنَّ التطوُّرات الجديدة المُتمثِّلَة باختصار في التلخيص الآلي للنُّصوص و تحليل الأسئِلَة وغيرها، ستُتِيحُ، و كُلّي أَمَل في ذلك، تَقَدُّمًا مُعتَبَرًا بيْد أنَّنا لم نصِل بعد إلى هذا الحدّ.

يبدُو لي أنّه لن يكون تغيُّرًا مُعتَبَرًا غير أنَّنا سنَصِل إلى نتائج مقبُولَة ثم سيتِمُّ التحسُّن بِبُطء و لكن بكلّ تأكيد. و هذا يُفَسَّر مِن مُنطَلَق صُعوبة جعل حاسُوبِكم " يفهم " حقيقةً ما تَوَدُّون قَوْلَه ممَّا يضطرُّنا إلى وَضْع شبكة معلُوماتية من " المَفَاهِيم " و علاقاتها فيما بيْنَها. و مِن شَأْن هذه الشبكة أنْ تعكس العقل البَشَري إلى حدٍّ ما وذلك على الأقلّ في الميادين النافعة التي يُمكن تصنيفُها وِفق المَواضيع. فالكلمة المأخوذة " سطحِيًّا " غير كافِية بحيث مَثَلاً إذا أَدْخَلْتُم 'عاصمة سويسرا' ، فإنَّ الأنظِمَة الحاليَّة لا تملك أيَّة وسيلة لِمعرفة ما إذا كُنتُم تُفكِّرُون في 'العاصمة الإدارية' أو 'العاصمة المالية'. إلاَّ أنَّ الأغلبية السَّاحقة مِن الناس تُفضِّل نَمَط البحث القائم على عِبارة مُعيَّنَة أو على سُؤال تتِمُّ صِياغتُهُ باللُّغة العادية.

إنَّ العديد مِن بَرَامِج البحث هي إمَّا بِصَدَد إعداد شبَكات واسعة من "المَفاهيم" و إمَّا تقوم باقتراح إعدادِها. و لا يُمكن القيام بذلك في غُضُون عامَيْن و لا الحُصُول على نتائج مُرْضِيَة بسُرعة. يجب علينا تطوير الشبكة و التّقنيات في آن واحد قصْد جعل هذه الشبكات نِصْف آلية بِنِظام ذاتيُّ التكيُّف. إنَّنا نُواجِه تَحَديًّا كبيرًا.

وهذه هي تعاليق "هُوفِي" في سبتمبر 2000 : « إنَّني أرَى أكثر فأكثر الشَّرِكات المُصغَّرَة تستعمل التكنولوجيات المتعلِّقة باللُّغات بصفة أو بأُخرى لتَوْفير بُحُوث أو ترجمات أو تَقَارِير أَوْ خَدَمات أُخرى تسمح بالتَّوَاصُل. و لاَزِلْتُ أتفاجَأُ مِن عدد المجالات التي يُمكن فيها استعمال هذه التكنولوجيات و هذا من التقارير المالية و تحْدِيثاتها إلى الاتِّصالات بين الشَّرِكات مُرُورًا بالتَّسويق.

أمَّا بِخصوص البحث، فأهمُّ تقدُّم أُلاحِظُهُ راجِع إلى "كِفين نَايْتْ" Kevin Knight، و هو زميل في معهد عُلُوم الاتِّصال بجامعة كاليفورنيا الجنوبية و هذا يُشرِفُني كثيرًا. لقد قام فَريق باحثين و طَلَبة من جامعة " جُونْس هُوبكِينْس" Johns Hopkins بالمارِيلانْد منذ نحو إثنَيْ عشر عامًا بتطوير نُسخة أحسَن و أسرع في الوقت ذاته لِكيفية طوَّرتْها شَرِكَة IBM في الأصل و بَقِيَتْ مالِكَة لها. تسمح هذه الكيفيَّة بإنشاء نظامٍ للترجمة الآلية بشكل أُوتُومَاتيكيّ إذا ما زوَّدْنَاها بِحَجْمٍ كافٍ من النُّصوص الثُّنائية اللُّغة. أوَّلاً، تجِد هذه الكيفِيَّة كلّ المُقابِلات بين الكلمات و مَوَاقِعها من لُغة إلى أُخرى ثمّ تَضَع جَدَاوِل كامِلة جدًّا للقواعد المَوْجُودة بين النصّ و ترجمَتِه و التَّعابير المُكافِئة.

و قد قام الفَرِيق في ظَرْف أرْبَعٍ و عِشرين ساعة بِإنشاء نِظام (بسيط) للتَّرجمة الآلية من الصِّينيَّة إلى الإنجليزية. و رغم أنَّ نوْعيَّة النتيجة لا تزال غير مُرْضية إلى حدٍّ بَعيد بحيث لا يُمكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يعتَبِر النِّظام مُنْتَجًا نِهائِيًّا أو أنْ يستعمِلَهُ كما هوَ، إلاَّ أنَّ هذا يُشكِّل مَفخَرَة باهِرَة لم يسبِق أبَدًا تحقيقُها مِن قبْل. ويُمكِن طبْعًا لِثَالِبِيّ المَشروع أنْ يَقُولُوا بأَنَّنا في هذه الحالة بِحاجةٍ إلى ثلاثة ملايين جُمْلَة في كُلِّ لُغَة و أنَّهُ ليس باستِطاعتِنا التَزَوُّد بِمثل هذه الكمِّيَّة سِوَى في برلَمانات *كَنَدا* أو *هُونْكُونْغ* أو غيرِهما من البُلدان الثُنائيَّة اللُّغَة. كما بِإمْكانِهِم طَبْعًا أنْ يتَحَجَّجُوا بِالنَّوعية الضَّعيفة للنَّتيجة. بَيد أنَّ الواقِع هو أنَّه تُوضَع كلّ يوْمٍ على الانترنيت نُصُوص ثُنائِيَّة اللُّغَة ذات مَضْمُون مُتكافِئ إلى حدٍّ ما و أنَّ نَوْعيَّة هذه الكيفِيَّة ستَتَحسَّن باستِمرار لِتبلُغ على الأقلّ نَوْعيَّة البَرْمَجِيَّات الحاليَّة للترجمة الآليَّة التي تُصَمَّم يَدَوِيًّا و أنا مُتَأَكِّد من ذلك تَمامًا.

و تُوجَد تَطوُّرات أخرى أقلّ ذُهُولاً إذ نُلاحِظ تحسُّنًا مُستَمرًّا للنَّتائج في الأنظِمَة التي بِإمكانِها أنْ تُقرِّر عن أنْسَب ترجمة لِمُصطلح (جِناس) لَدَيْهِ معانيَ مُختلفة (مثلاً في اللُّغة الفرنسية: père ، pair و père). وإنَّ الاهتمام مُنصَبٌّ كذلك على البحث عن المعلومات بِتَوافُق اللُّغات ممّا سيسمحُ لَكُم قريبًا بِإيجاد وثائق على الأنترنيت بالصِّينيَّة و الفرنسية حتى لَوْ أَدْخَلْتُم أسْئِلتَكُم بالإنجليزيَّة. نُلاحِظ أيضًا تطوُّرًا سرِيعًا للأنظِمة التي تُجيبُ آلِيًّا عن الأسئِلة البسيطة (مثل النِّظام المعروف AskJeeves الذي يُستَعمَل في الأنترنيت و لكن تسييرهُ يتمُّ بالحاسوب لا بفضل كائنات بَشَرية). تُحِيلُ هذه الأنظِمَة إلى حَجْم كبير مِن النُّصُوص التي تسمح بِإيجاد " معلومات مُقَدَّمَة على شكل وَقائِع " (لا على شكل آراء أو أسباب أو تَسَلْسُلات من الأحْداث) إجابَةً على أسئِلَة من نوْع: " ما هي عاصمة *الأُوغنْدا* ؟ " أو " ما هو سِنُّ الرَّئيس *كلينتُون*؟ " أو كذلك " مَن ابتَكَرَ طريقة Xerox ؟ و النتائِج المُتَحَصَّل عليها حقًّا أفضل ممَّا تَوَقَّعْتُهُ.

المرحلة المُوالِية يُحدِّدُها " رانْدي هُوبْلر " Randy Hobler، و هو مُستَشَار في التَّسويق على الأنترنيت فيَقُول: « سنَصِل بسُرعة إلى حدِّ أنَّ الترجمة الوَفِيَّة للنصّ والكلام ستَبْدُو عادية إلى درجة تَمَكُّنِها مِن اقتحام أرضِيَّات (plate-formes) بل حتَّى رُقاقات (puces). و هكذا، عندما سَيَبلُغ الأنترنيت أوَجَّ سُرعَتِهِ و وَفاء الترجمة أكثر مِن 98 % و تتمكَّن مُختَلَف الثُّنائِيات اللُّغَوِية المَوْجُودَة مِن تغطِية أغلبِيَّة السُّوق، سَتَصبَح شفافيَّة اللُّغة (كلّ تَوَاصُل مِن لُغَة إلى أُخرى) رُؤية مَحْدُودَة جِدًّا بالنِّسبة للَّذين يَبِيعُون هذه التِّكنولوجيا. و سيتَمَثَّل التطوُّر المُوَالِي في "الشفافية عبر الثقافات و البُلدان" التي تدْخُل فيها جَوَانِب أُخرى للتَّواصُل البَشَري و التجارة و الصَّفَقَات مُتَجاوِزَةً بذلك اللُّغة لِوَحْدِها حيث أنَّ الإشارات الحرَكيَّة مَثَلاً لَدَيْها معنى، كذلك ملامِح الوَجْه و هي

تتَغيَّر حسب المُجتَمَعات. فالحرف O الذي نُشَكِّلُهُ بِالإبهام و السبَّابَة يعني " OK " في الولايات المُتَحِدَّة بينما يُمثِّل إشارة فاحِشَة في الأرجنتين.

و عندما سَيَحدُثُ تَطوُّر مُحاضرة الفيديُو المُتعدِّدة اللُّغات و المُتوافِقة مع وسائل إعلام مُتعدِّدة الذي لا مَحَالَة منه، فسَيَكُون تصحيح الإشارات الحَرَكِيَّة بالرُّؤية أمرًا ضرُورِيًّا. لذلك يعمل MediaLab بِمعهد التكنولوجيا في الْمَاساتْشُوسِتْسْ وMicrosoft و غيرهما على تطوير تقنيات التعرُّف المعلُوماتيّ على مَلامِح الوجه و على الخصائص البيُومِتريَّة بواسطة الوَجه... فَلا جَدْوَى مِن أن يَقُوم رجل أعمال أمريكي بِعرْضٍ مُمتازٍ لِأرجنتيني خلال مُحاضرة فيديُو مُتعدِّدة اللُّغات على الأنترنيت حتَّى لَو كان خِطَابُهُ مُترجَمًا بتَفوُّق إلى اللُّغة الإسبانية الأرجنتينية إذا قام في الوقت نفسِهِ بإشارة O بالإبهام و السبَّابة. لذلك فمِن شأْن الحَوَاسِيب اعتِراض هذا النوْع مِن الرَّسائِل و تصْحِيحُها بالرُّؤية.

تَختلِفُ الثقافات بِطرَائِقَ عِدَّة و غالِبِيَّتُها قابِلة للتَّعديل بواسطة الحاسُوب عندما نَمُرُّ من الواحِدة إلى الأُخرى. وهذا يتضمَّن القوانين و التَّقالِيد و عادات العَمَل والأخلاقِيَّات و تحويل العُمْلات و تَبايُن مَقَاسات الأَلْبِسَة و اختلاف النِّظام المِتْرِيّ عن نِظام القِياس الأُنْجلُوفُونِيّ، وغير ذلك. و ستقُوم الشَّرِكات النَّشيطة بِفَهرَسَة و بَرْمَجَة هذه الاختِلافات كما سَتَبِيع مُنْتَجَات و خَدَمَات حتَّى تُساعِد قاطِنِيّ الكُرة الأرضية على التَّوَاصُل فيما بينَهُم بشكْلٍ أَفْضَل. و عند انتِشار هذه المُنْتَجَات و الخَدَمَات على نِطَاقٍ واسِع، فَإنَّها سَتُساهِمُ حقًّا في جعل التَّفاهُم أفْضَل على المُستَوَى الدَّوْلِيّ.

المقال الأصلي للدِّراسة:

« La traduction automatique »
Marie LEBERT, chapitre 15 de son livre électronique disponible sur le lien : **http://www.etudes-francaises.net/entretiens/15traduction.htm** (Consulté le 25/05/2011).

الترجمة المتخصصة في أقسام ما بعد التدرج

عبد الكريم شريفي*[29]

[29]* أستاذ جامعي: اختصاص هندسة التصنيع الميكانيكي.

مدخل:

لا شك أن "الترجمة المتخصصة" فرضت نفسها بقوة في هذا العصر، وذلك لاعتبارات كثيرة لعل أهمها توسع الأسواق وتعدد مصادر العلوم والمعارف؛ و من هذا المنطلق وجب الاعتناء بتدريسها بوصفها تخصصا قائما بذاته لطلبة ما بعد التدرج في كليات الترجمة على الأقل.

إن الطالب الذي ينهي الطور الجامعي الأول، أو طور التدرج، يجب أن ينتقل إلى حصر مجالات اهتماماته وتدقيقها؛ فلا مجال في هذا العصر إلى المترجم الموسوعي الذي ينقل كل شيء من لغة إلى أخرى، لسبب بسيط أن العالم الموسوعي بالمعنى القديم لا مكان له في عالم يعج بالمعارف والمفاهيم والمصطلحات.

ونحاول الوقوف في هذه الورقة متسائلين أولاً، عن كيفية التعاطي مع "الترجمة المتخصصة"، وكذا عما يمكن أن يحتاج إليه المترجم بعد تخرجه إضافة إلى الرصيد النظري والعلمي الذي تحصل عليه خلال سنوات دراسته في الطور الأول؟.

و إذا تساءلنا كذلك، عما يمكننا إضافته لطلبة مختصين في الترجمة – وما بعد التدرج – من مفاهيم ومعلومات نظرية نجد أنفسنا عاجزين عن إضافة شيء ذي بال في هذا الميدان، فلا مناص حينئذ من النظر إلى الترجمة من جانبها التطبيقي الميداني، محاولين في هذا السبيل وضع الرصيد المعرفي المكتسب لدى الطلاب على محك الواقع العملي لهذا الاختصاص.

و علينا إضافة إلى الاعتبارات السابقة، أن نعمد إلى منهجية تصرف الطالب عن النظر باستمرار إلى أن مستقبله مرهون بالبحث عن وظيفة إدارية، قد تستغرق منه سنوات ثمينة من عمره، ربما دون جدوى، ليقترب من فكرة الاعتماد على الذات والتوجه رأسا إلى بناء منصب شغله بالمبادرة الخاصة – الفردية أو الجماعية – تكون بدايتها صعبة لكنها في النهاية مجدية، وتجنبه إهدار سنوات من العطاء والإبداع من حياته.

ومع ذلك علينا أن نحافظ على المؤهلات الأكاديمية للطالب في حال مواصلته لمشواره الدراسي لنيل شهادة الدكتوراه، بأن نجعل تحت تصرفه الماهية الحقيقية لمهنة الترجمة حتى إذا باشر البحث العلمي المعمق باشره من منطلقات واقعية بعيدة عن تنظير محض لا يمت للواقع بصلة بل يعمد إلى التنظير للواقع المعيش بما يخدم تطور المهنة وتقدمها. هذا التنظير المنطلق

من الواقع وللواقع وبعيدا عن الخيال والتخيّل يعزز مؤهلاته (الطالب) الترجمية و يولد حركية علمية في المجتمعات العربية الضئيلة الإنتاج في هذا المجال بالذات.

يدفعنا ذلك كله وغيره إلى وضع خطة عمل تتناسب والأهداف التي نصبو إليها من خلال مادة "الترجمة المتخصصة"و بناءا على المنهج التحليلي والبحث التوثيقي الذي تتبناه كبرى معاهد الترجمة في العالم.

و عليه فإنا نقترح التدرج البيداغوجي التالي في مادة "الترجمة المتخصصة" لما بعد التدرج:

1- التسمية : ونتعرض إلى مختلف التسميات التي تطلق على هذه المادة

2 – التعريف: حيث نبيّن المقصود بهذه المادة وما هو متعارف عليه

3 – مجالات الاهتمام : نتطرق إلى المجالات الواسعة التي تشتغل فيها هذه المادة ونحاول سرد كل الميادين التي يمكن لهذه المادة أن يكون لها دور فعّال.

4 – المجالات الأكثر إلحاحا: بعد سرد المجالات الواسعة لنشاط هذه المادة نركز على نواحي عمل المجالات التي نكون في أمس الحاجة إليها في واقعنا ونفردها بالدراسة والتحليل وبالخصوص الترجمات التقنية والاقتصادية والقانونية والطبية وكذا الدعائية.

5 – خصائص الترجمة المتخصصة: بعد التيقن من شساعة ميادين اشتغال مادة "الترجمة المتخصصة" نتطرق إلى خصائصها الكبرى ككثافة المصطلح (كثرة المسميات) وبساطة التراكيب النحوية مع تعقد التراكيب الاسمية وكذا وضوح العبارة وأحادية المعنى.

6 – دور المترجم المتخصص: عندما تُعرف خصائص "الترجمة المتخصصة" يتضح دور المترجم المختص إذ عليه نقل المفاهيم برمتها دون زيادة أو نقصان مع احترام المحيط اللغوي وكذا الثقافي وغيرهما.

7 – مؤهلات المترجم : العمل الذي يقوم به المترجم يقتضي منه التمكن من مؤهلات معيّنة تؤهله لأداء مهامه على أحسن وجه ومنها

- مؤهلات لغوية قوية في اللغتين الأصل و الوصل
- مؤهلات ترجمية
- مؤهلات تحريرية
- مؤهلات معرفية
- مؤهلات بحثية
- مؤهلات معلوماتية
- مؤهلات توثيقية تخزينية

8 – الخطوات الذهنية لعملية الترجمة المتخصصة: نعتمد في تحديد الخطوات على تجارب كبار أساتذة الترجمة في العالم وما توصلوا إليه من استنتاجات في مجال تعليمية مادة "الترجمة المتخصصة".

- فهم معمق ودقيق لمعنى النص المتخصص
- تجريد المعنى من اللغة التي جاء بها النص أي اللغة المصدر
- صياغة المعنى من جديد بلغة الترجمة أي اللغة الهدف

9 – تنظيم مؤسسة خدمات ترجمية : نهتم هنا بإبراز الإجراءات المنهجية والتقييسية لعملية "الترجمة المتخصصة" وكذا المراحل التي تمر بها العملية انطلاقا من تلقي النص إلى غاية تسليمه مترجما.

10 – تطبيقات لما سبق في ترجمة نصوص متخصصة :

- الترجمة في سبق في ترجمة نصوص متخصصة
- الترجمة في المجالات الاقتصادية
- الترجمة في المجالات القانونية.
- الترجمة في المجالات الطبية
- الترجمة في المجالات الدعائية.

تفصيل الخطة

ونحاول الآن أن نفصل ما أجملناه آنفا، ونعرض الخطة العامة التي دعونا إليها بشيء من التفصيل الذي يسمح به هذا المقام:

1 – التسمية:

نجد في المراجع عدة تسميات لهذه المادة وأبرزها الترجمة المختصة والترجمة التقنية وكذا الترجمة المتخصصة ونعتمد هنا تسمية الترجمة المتخصصة لتقارب المعاني بالنسبة للتسميات الثلاث.

2 – التعريف:

اتفق تقريبا جل العاملين في هذا المجال على أن "الترجمة المتخصصة".تعني ترجمة النصوص ذات الطبيعة التقنية أو التكنولوجية أو العلمية من جميع الاختصاصات أو بتعبير آخر ترجمة كل نص ما عدا النص الأدبي بمختلف أوجهه.

يتضح من ذلك أن "الترجمة المتخصصة"؛ تعتني بكل مناحي النشاط البشري – عدا المنحى الأدبي – على تعدد أوجهه واختلاف مظاهره و لا سبيل لحصرها في هذه الوثيقة ونكتفي بما اقترحناه في خطتنا والمتمثل في:

- الترجمة التقنية
- الترجمة الاقتصادية
- الترجمة القانونية المالية
- الترجمة الطبية
- الترجمة الدعائية

وإذا تساءلنا عما يمكن أن نقوم بترجمته من نصوص في هذه المجالات والحقول المعرفية فإننا نخلص إلى ما يلي:

3 – مجال الترجمة التقنية:

يتمثل أغلب عمل المترجم في مجال التقانة في الأمور ذات الصلة بالصناعة وتوابعها ومن ذلك:

- دلائل استعمال الأجهزة والآلات
- المناقصات وعروض الخدمات
- التسعير التقني
- كيفية الاستعمالات
- عتاد وأجهزة الأمان و الصون و الحفظ.

- تصميم وتزيين
- مجّلات وكتيبات وإصدارات تقنية
- البيئة والمحيط
- الاتصالات بنوعيها السلكي واللاسلكي
- الصناعات الزراعية والغذائية
- التقييس وتأمين الجودة
- الكيمياء ومواد التنظيف والتجميل.
- الإلكترونيات والأجهزة الكهرومنزلية
- تصميم وصناعة الأجهزة والآلات والأدوات
- الصناعات العسكرية والحربية
- العمارة والبناء

4 – مجال الترجمة الاقتصادية والتسويق والإشهار:

- تقارير اقتصادية دورية
- دراسات الأسواق وتحولاتها
- مواقع الإنترنت
- مطويات التعريف بالشركات ونشاطاتها
- التغليف والتعليب
- دراسات تقنية اقتصادية
- الإصدارات الجديدة والبحوث الأكاديمية

5 – مجال الترجمة القانونية والمالية :

فصلنا الجانب المالي عن الاقتصاد وربطناه بالقانون لأنّ التعاملات المالية أصبحت تتم عن طريق العقود الموثقة التي لها قوة قانونية:

- عقود الملكية والحيازة والتمتع
- مواثيق وملفات تأسيس الشركات
- عقود العمل والتوظيف والإقامة
- الغرامات والإجراءات الجمركية
- دراسات بنكية في جانبها القانوني
- عقود الزواج والوفيات والميلاد وأحكام الطلاق
- استصدار الأسهم التجارية والصناعية
- القوانين التجارية
- تراخيص موافقات مزاولة نشاطات
- عقود البيع والشراء
- قرارات وتوصيات ووصايا
- تقارير مالية وبراءات علمية

6 – مجال الترجمة الطبية:

- الترجمة البيوطبية
- التخدير والإنعاش

- الإحصائيات الطبية والبيوطبية
- أمراض القلب والأوعية والشرايين
- طب الأسنان وجراحتها
- التشخيص الكهرومغناطيسي
- وثائق ومستندات وتقارير طبية
- المعاينات الباطنية والغدد و التسممات
- تصميم الأعضاء الاصطناعية وتركيبها
- جراحة التجميل والتعديل
- مطالبة الحقوق التأمينية.

خصائص الترجمة المتخصصة:

بما أنّ المترجم المختص يتعامل مع النص المتخصص فهما وإدراكا في اللغة الأصل وصياغة وتحريرا في اللغة الهدف، عليه إذا التقيد بخصائصه ولذلك تكون خصائص "الترجمة المتخصصة".هي نفسها خصائص النص المتخصص. لنتأمل في النص التقني التالي:

" تركيب النواعير الهوائية"

تتوقف مردودية الناعورة الهوائية كثيرا على الموقع الذي تركّب فيه و كيفية استعمالها نظرا لتقلّب الرياح. و توجد المواقع الأكثر ملاءمة على السواحل أو على قمم التلال و الجبال المكشوفة، إلا أنّنا نواجه مشاكل التآكل في الأولى و مخاطر التّجلّد في الثانية.

تستعمل الطاقة الهوائية بكثرة لتزويد المناطق المعزولة ذات الاحتياجات الطاقوية المحدودة من الطاقة الكهربائية،أو لضخ المياه بكلفة أقل و بطريقة أخفت من المحرّك الحراري. كما يمكن أن تشكّل حلا في البلدان التي لا تصل فيها كوابل الربط لقلّة الكثافة السكانية.

و من الضروري إجراء دراسة اقتصادية بسيطة في حال إمكانية استعمال مصدر آخر للطاقة الكهرومائية المولّدة من السهول أو الأنهار في القطاع الخاص و كذا الخطوط العمومية لتوزيع الكهرباء .

و يمثل استكشاف المواقع المحتملة العمل الأول الذي ينبغي القيام به لتقدير إمكانية استعمال الرياح. كما يجب القيام بمتابعة الأحوال الجوية للمواقع المحتملة، لمدّة سنة على الأقل، و عدم الاكتفاء بمعرفة السرعة المتوسّطة، بل علينا أيضا معرفة كميّة الطاقة السنوية و ذلك وضعت مراييح عدّادة خاصة لقياس الطاقة في المتر المربّع.

و أهم الرياح التي تقدم أكبر قدر من الطاقة سنويا هي الرياح العادية مثل الصابيات التي تتراوح سرعتها المتوسطة بين 6 إلى 8 م/ثا و قد تصل حتى 10م/ثا. لذا وجب استبعاد المواقع التي ليست لها كمية كافية من الطاقة السنوية و كذا المواقع الخاضعة لتغيرات عنيفة لسرعة الرياح (كريح الميسترال). كما تقوم التضاريس المحلية بدور هام لذا وجب أخذها بعين الاعتبار في تفسير القياسات المنجزة على ارتفاع 10م فوق سطح الأرض (ارتفاع معتمد من قبل دائرة الأرصاد الجوية الوطنية). و يعكف المصنعّون على استغلال البحار بتصميم نواعير ذات استطاعة عالية. إذ أنّ تنصيب حظائر ذات استطاعة عالية على بعد كيلومترات من السواحل يسمح بتقليص كلفة الطاقة لتوفر مصادر الرياح وغياب الأذى البصري.

و يشكّل السياج النباتي و حواجز الأشجار كواسر للريّاح. إذ تعيق هذه الأخيرة تنصيب النواعير ذات العلّو المنخفض.

و تبرز ظواهر دورية على فترات تتراوح من نحو عشر دقائق إلى بضع ساعات وفي بعض الأحيان إلى عدّة أيام وقد تتواصل طيلة الموسم كله. و تبيّن أنّ معرفة تردّد هذه الظواهر مفيد لسلامة النواعير الهوائية. و تشهد بعض المناطق نشوء أو مرور إعصار أو أكثر سنويا أو عواصف و زوابع لذلك تسن البلدان التي تزخر بمحطات الأرصاد الجوية قوانين موجهّة لحصر فرضيات الحساب بشكل أفضل لرفع درجة سلامة النواعير."[1]

عندما نركز الإمعان في النص السابق نلاحظ ما يلي:

1 – النص واضح وجليّ ولا يستعمل الإيحاء والإشارة بل هو مباشر ويذهب إلى المعنى المرغوب بأقصر طريق.

2 – النص دقيق في الأرقام والأعداد والكميات و الأمكنة والأزمنة.

3 – النص يتسم بالموضوعية فلا تضخيم ولا تقزيم للمعاني المطروحة.

4 – النص وعلى قصره يطرح مفاهيم ومعاني كثيرة و بإيجاز.

5 – يحتوي النص على مصطلحات تقنية كثيرة.

6 – الأساليب والتراكيب النحوية المستعملة في النص بسيطة في معظم الأحيان.

7 – كما نلاحظ بالعكس تعقدا في التراكيب الاسمية.

يمكننا بعد ذلك إسقاط هذا الأمر على ما نحن بصدده فنخلص إلى أنّ الخصائص "الترجمة المتخصصة" تكون:

1 – الوضوح: والقصد من الوضوح الخاصية والقدرة على التعبير والتدليل عن الحدث والظاهرة في مجلات الاختصاص بألفاظ وكلمات لا يمكن معها فهم معاني مختلفة أو متعاكسة.

2 – الدقة: والقصد من الدقة هو الخاصية والقدرة على التعبير والتدليل عن الحدث والظاهرة في مجلات الاختصاص بمفردات وكلمات وصيغ لا تترك مجالا للارتياب في المقادير والكميات المقصودة.

3 – الاقتضاب (السرعة): والمقصود هنا ليست سرعة المحادثة المتخصصة و لكن القدرة على التعبير عن الحدث والظاهرة في مجالات الاختصاص بدقة ووضوح بأقصر الطرق أي بأقل عدد ممكن من المفردات والكلمات دون المساس بالمعاني والمفاهيم.

4 – كثافة المصطلح: يعج هذا النوع من النصوص بالمصطلحات المتخصصة على حساب الأنواع الأخرى من المصطلحات.

5 – بساطة التراكيب النحوية : إذ أنه غالبًا ما تكون الأساليب المستعملة بسيطة وغير مركبة وتؤثر المعنى والمضمون على الشكل و الصيغة الذي يبلغ به.

6 – تعقد التراكيب الاسمية: بما أنّ المصطلحات المتخصصة موجودة بكثرة فإنّ العلاقات فيما بينها هي الغالبة ومن ثمّ يتولد تعقد التراكيب الاسمية.

7 – وضوح العبارة وأحادية المعنى : يتعمد النص المتخصص المباشرة في الدلالة ولا يلجأ إلى أساليب الإيحاء والإشارة والترميز بل يتجنبها قدر الإمكان ويجتهد على ألا تحمل عبارته معاني متعددة بل يقتصر على معنى واحد للعبارة الواحدة.

واجب المترجم المتخصص :

إذا نظرنا إلى خصائص هذا النوع من الترجمة فإنه من المؤكد أنه لم تبق للمترجم خيارات كثيرة أثناء قيامه بمهامه فهو:

1 – ملزم بنقل المفاهيم برمتها دون زيادة أو نقصان إذ أنّ النص المتخصص تترتب عنه معلومات تفضي إلى فعل مباشر أو غير مباشر فوري أو مؤجل لا يمكن في كل الأحوال التهاون معه بيد أنّ النص الأدبي يترتب عنه ذوق وإحساس يؤتي ثماره مع مرور الزمن.

2 – ملزم باحترام المحيط اللغوي الذي يترجم إليه (اللغة الوصل أو الهدف).

3 – ملزم باحترام المحيط الثقافي الذي يترجم إليه (اللغة الوصل أو الهدف).

4 – ملزم باحترام المحيط التقييسي والوحدوي (وحدات القياس المستعملة في البلد) الذي يترجم إليه (اللغة الوصل أو الهدف).

مهارات المترجم المتخصص:

ليكون المترجم المتخصص فعّالاً وقادرًا وبسرعة على التأقلم مع المستجدّات الدائمة في مجلات الاختصاص المختلفة عليه أن يطور مهارات أدائية عدّة ومن بينها:

1 – مهارات لغوية: تتعلق هذه المهارات بالمعرفة الميدانية والمعمقة للغات التي منها وإليها يترجم، عليه إذا أن يطوّر ويقوي مؤهلاته في هذا الجانب. ومهما كانت مؤهلاته الابتدائية قوية فعليه دوما التطلع إلى الأحسن.

2 – مهارات ترجمية: عليه أن يتمكن من المؤهلات اللازمة ومن تقنيات وأساليب وكذا وسائل وأدوات التنقل من لغة إلى أخرى ضمن المقاييس المعتمدة والملزمة في المهنة، واكتساب وتطوير هذه المؤهلات يعتبر عنصرا أساسيا في تحديد مؤهلات المترجم.

3 – مهارات تحريرية: أهمية لغة التبليغ في الترجمة تحتم على المترجم التمكن والتحكم من أدوات صياغة النص وتحريره سواء أكان عاما أم متخصصا و مؤهلاته التحريرية هذه مكمّلة لمؤهلاته اللغوية و تسمح للمترجم بالتعبير بوضوح ودقة وإحكام عن معاني النص الأصلي في اللغة الوصل (الهدف) محترما خصوصيات النص واللغة.

4 – مهارات معرفية: إن اكتساب معارف أساسية في شتى مجالات النشاط البشري (القانون، الاقتصاد، التقانة, الاجتماع الخ) والتعامل المتواصل مع مختلف النصوص تعطي للمترجم فرصة تطوير أساليب عمل تمكنه من مواجهة ذكية لتنوع المجالات وبالمختصر عليه أن يكون مثقفا ثقافة واسعة في المجالات التي يرغب في التعامل معها مترجما.

5 – مهارات بحثية: على المترجم المتخصص التمكن من تقنيات وأساليب و منهجيات البحث الضرورية للحصول على المعلومة أو المصطلح الذي هو في حاجة إليه لترجمة نص في مجال ما. مؤهلات كهذه أساسية في عمل المترجم لأنها هي التي تضمن جودة الترجمة وتصبو إلى استقلاليته وتشعب مجلات تدخله فعليه إذا التحكم في تقنيات البحث الوثائقي والمصطلحي كي يتمكن من القواعد المنهجية والأحكام النقدية المطلوبة أثناء بحثه عن المعلومة التي يحتاج إليها.

6 – مهارات معلوماتية: تأخذ الأدوات المعلوماتية المدعمة للترجمة (TAO) يوما بعد يوم حيّزا أكبر من المحيط المهني للمترجم. وأصبح تحكم المترجم في هذه الأدوات من الضرورة بمكان إذ عليه إن يتقن على الأقل برمجية (منطاق) من البرمجيات الموجهة للمترجمين. و لئن كان في الماضي القريب يكتفي بالفهم البسيط لعمل البرمجيات فإنه أصبح الآن من الضروري التحكم في الأدوات المعلوماتية للمترجم و كذا التأقلم مع برمجيات الترجمة التي تسمح له بتسيير قواعد المعلومات المصطلحية ومذكرات الترجمات السابقة وبنوك المصطلحات والمفردات وكذلك أدوات الترتيب والتنظيم.

تعامل المترجم مع النصوص التقنية (المتخصصة):

تقترح كريستين دوريو في مؤلفها "أسس تدريس الترجمة التنقية" [2] المقاربة التالية في عملية ترجمة النصوص التقنية (المتخصصة) والتي تقصد بها كل النصوص ما عدا النص الأدبي.

"تتمفصل المقاربة المقترحة حول مرحلتين أساسيتين، إلا أن المنهج مختلف تماما: في المرحلة الأولى نفهم المعنى الذي يحمله النص الأصلي، وفي المرحلة الثانية نعبر عما فهمناه باللغة الهدف (ومن الأفضل أن تكون سليمة). ولا يضيرنا أن نكرر مرارا أننا لا نترجم لنفهم، ولكن

نفهم لنترجم. فالفهم يتمتع في الحقيقة ب"أسبقية" على عملية الانتقال إلى اللغة الهدف. ولا يمكن لإعادة التعابير الصحيحة والواضحة أن تكون إلا لما سبق أن فهمناه؛ وهذه الآلية يمكن توضيحها بالشكل التالي:

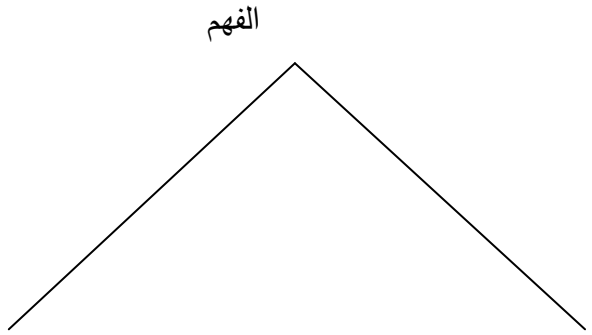

النص المصدر
نهج تبيان دلالات الألفاظ

النص الهدف
نهج تسمية المعاني

يبدو شكل الصورة المثلث مناسبا لأنه يظهر جيدا أن الفهم يسمح بالخروج من النص الأصلي والوقوف على مسافة منه.

تمكن الخاصية الأساسية لهذه المقاربة في وقوع جهد الفهم حتى قبل التفكير بإعادة التعبير بلغة أخرى عن محتوى النص الأصلي, "المرامزة طريق خاطئة وسبيل مسدود يتعين على مترجمي المستقبل تعلم عدم ولوجه. تعني المرامزة وضع كلمات مقابل كلمات أخرى، بينما تعني الترجمة البحث عن تعادل بين المرسلات"(راجع ج. دوليل) (3) وهكذا، يجب أن يأتي جهد الفهم مباشرة بعد قراءة النص الأصلي، وحتى يتطابق مع القراءة ليسمح باستخلاص معنى المرسلة. وأيضا يجب أن تؤخذ المرسلة بكليتها وليس جملة تلو الأخرى. فلسنا هنا بصدد التخلي عن المرامزة كلمة بكلمة حتى نعتمد شكلا آخر منها، أي جملة بجملة.

ويمكن تلخيص المقاربة المقترحة في النقاط التالية:

- الترجمة سلسلة من قرارات تتخذ.
- في الترجمة التقنية، يشكل استخدام المصطلح التقني الصحيح أمرا لا بد منه.
- لا تقتصر ترجمة النصوص التقنية على البحث عن مقابلات موضوعة سلفا للمصطلحات التقنية.
- لا وجود لترجمة مثالية، وكثيرا ما يمكن التعبير عن المعنى ذاته بطرائق مختلفة.
- نحن لا نترجم كلمات متتالية، ولكن مرسلة فهمنا معناها قبل أن نترجمها.
- لا ينتج معنى المنطوق عن مجموع معاني الكلمات المتتالية التي تكونه والتي تؤخذ كل واحدة منها على حدة.
- نحن لا نترجم حتى نفهم ولكن نفهم حتى نترجم.
- يأتي الفهم في مرحلة تسبق الانتقال إلى اللغة الهدف.

تنظيم عملية الترجمة وإجراءاتها :

لبناء منهجية مضبوطة وتطبيقية و واقعية للترجمة المتخصصة ندمج التوصيات الأساسية الموضوعة في معايير التقييس DIN2345 و UNI1074 وكذا معايير التقييس الأوربي EN-15038 (4) الخاص بإجراءات العمل الترجمي والتي تحدد المراحل والإجراءات الواجب إتباعها كي يكون العمل مطابقا للمقاييس الموضوعة:

1 – استلام النص الأصلي: أو طلب التسعير من الزبون وفي هذه المرحلة يتم دراسة المطلب وتحديد الجدوى التقنية للمشروع وكذا القدرة على انجازه في الآجال المحددة وكما يتم تقويم الأتعاب المنجّرة عن العمل.

يمكن في هذه المرحلة الاتصال بطالب العمل للاستفسار عن مستلزمة أو مواصفة خالصة أو للحصول على معلومات إضافية كتوفر دليل المصطلحات المتخصص (glossaire). على العموم يمكن في هذه المرحلة تحديد الأتعاب بدقة بناء على النص الأصلي موضوع الترجمة.

2 – قبول التسعير وانطلاق مشروع الترجمة: يمكن الآن البدء في العمل بتسليم النص لمترجم داخلي أو خارجي ومن المستحسن أن يترجم للغة الأم (Nativespeaker) وله خبرة في الترجمة المتخصصة ودراية بالمجال التقني محل الترجمة. توضع كل الوسائل والمراجع التقنية اللازمة لأداء العمل تحت التصرف.

3 – انجاز دليل المصطلحات : تجمع وتنجز دلائل المصطلحات الخاصة المتعددة اللغات لبناء قاعدة معلومات. تصلح هذه القاعدة للاستعمال الداخلي لضمان توافق المصطلحات التقنية في الوثائق المترجمة وكذا لترجمات مستقبلية محتملة. كما يخصص لكل زبون دليله الخاص كما يمكن أن يطلب من الزبون في هذه المرحلة المصادقة على بعض المصطلحات المستعملة في الوثيقة المترجمة. و يسير البحث المصطلحاتي عموما بالتوازي مع العمل الترجمي.

و يهدف هذا الإجراء إلى تحقيق معيار الجودة الخاص بالتوافق المصطلحي. قد يطلب بعض الزبائن أيضا دليل مصطلحات موسع يتطلب بحثا في الشابكة (الانترنت) وفي المراجع الخاصة وتجميع قواعد معطيات متعددة اللغات يتبع بتصفيف وتصنيف وتسيير المصطلحات التقنية. تعتبر هذه العملية خدمة منفصلة عن مشاريع الترجمة.

4 – المراقبة الإملائية الأولى والمراجعة: المراقبة لإملائية الآلية مرحلة سهلة لكنها أساسية في كل سياق الترجمة وتحرير النص و تكون الوثيقة بعد المراقبة الإملائية جاهزة للمراجعة (المراجعة كما تحددها المقاييس الأوروبية EN-15038). و بعد ذلك يراجع المترجم ويصحح عمله أي يقارن بين النصين المصدر والهدف ويدقق في توافق المصطلحات التقنية المستعملة و يصبو هذا الإجراء إلى تحقيق معيار الجودة المتعلق بدقة ومطابقة الترجمة.

5 – إعادة القراءة من مترجم ثاني والمراقبة الإملائية النهائية: بعد المراجعة السابقة والتي تمت فيها معالجة كل مسائل اللغة والترجمة يسلم النص لمترجم آخر يقوم بالقراءة الأخيرة (the review) حسب ما تنص عليه الفقرة 5.3.5 من المقياس الأوروبي EN-15038 و تهتم هذه المرحلة بمراقبة الجودة من الجانب اللغوي فقط (اللغة الهدف) وتصبو إلى تصحيح الهفوات والأخطاء المطبعية التي يمكن أن تفلت من انتباه المترجم (الأول). يولي القارئ المصحح أهمية خاصة لسهولة القراءة وانسياب الترجمة بحيث – في حدود الاستطاعة – يتلقاها المتلقي وكأنها نص أصلي بدل أن تكون ترجمة. تتم إعادة القراءة هذه دون الرجوع إلى النص الأصلي (المصدر) وتتزامن مع المراقبة الإملائية والترميز للتصحيحات المحتملة و يهدف هذا الإجراء أساسا إلى التأكد من معيار الجودة المتعلق بسهولة القراءة وانسياب الترجمة.

6 – تسليم الوثائق المترجمة: بعد التأكد من أن كل المستندات والعناصر النصية وأجزاء النصوص على الأشكال والرسومات قد تمت فعلا ترجمتها تكون الترجمة حينئذ جاهزة ويمكن تسليمها لصاحبها (الزبون) وغالبا ما يتم ذلك عن طريق البريد الإلكتروني.

7 – حفظ الوثائق (المصدر والهدف): تحفظ النصوص المترجمة (مصدر وهدف) لمعاينات لاحقة وكذا دلائل المصطلحات التقنية التي تم جمعها وإنجازها أثناء عملية الترجمة و تسمح هذه الطريقة بتكوين رصيد معرفي ولغوي متنامي مع كل ترجمة ما يجعلنا أكثر استعدادا لأداء مهام ترجمية أخرى.

المراجع:

(1) Mémoire de fin d'études d'ingéniorat d'état « étude de la pertinence de l'implantation des éoliennes dans la région de Tizi-Ouzou ». Zerrouki Farid et Gana Abdenour. 2010

–نقله إلى العربية عبد الكريم شريفي

(2) Durieux Christine « Fondement didactique de la traduction technique »2000

–ترجمة هدى مقنص عن المنظمة العربية للترجمة .ص64 و65 من الطبعة الأولى: بيروت 2007 توزيع مركز دراسات الوحدة العربية.

(3) Delisle, Jean «l'analyse du discours comme méthode de traduction: Initiation à la traduction française des textes pragmatiques anglais : théories et pratiques. Editions de l'université d'Ottawa, 1980 (cahiers de traductologie; 2)

(4) La norme européenne de qualité **NF EN-15038: 2006**, norme européenne spécifique aux services de traduction. Norme **NF EN-15038:2006**. Linguavox, garantie de qualité. Système de gestion de qualité certifié **ISO9001 :2008**. Service de traduction certifié **EN-15038:2006.**

تعلميات وبيداغوجيا

مقالات غير شعبية

وظائف المعلم

ترجمة : موسى زمولي

تقديم

التربية عبر العصور: كان الإنسان يحيا حياة بسيطة وكانت متطلبات العيش في تلك المجتمعات لا يكتنفها التعقيد لذا اتسمت متطلبات التربية البدائية بالتقليد والمحاكاة وكان جوهرها التدريب الآلي والتدريجي، أي أن لكل مرحلة من العمر نوعا خاصا من أنواع التربية ولم يكن هناك حاجة لمؤسسة معينة تقوم بنقل التراث و تدريب النشء لأنه لم يكن هناك تراث ثقافي كبير.

وكان يقوم بالعملية التربوية أو التدريبة وعملية تكيف الأفراد مع البيئة الوالدان أو العائلة أو أحد الأقارب؛ أما أنواع التربية التي كانت سائدة في ذلك العصر فهي التربية العملية التي تقوم على تنمية قدرة الإنسان الجسمية اللازمة لسد حاجاته الأساسية مثل الطعام والملبس والمأوى وبالإضافة إلى التربية النظرية التي تقوم على إقامة الحفلات والطقوس الملائمة لعقيدة الجماعة المحلية التي كان يقوم بها الكاهن أو ساحر القبيلة أو شيخها.

من ساحر القبيلة إلى الآلة الساحرة: الحاسوب وشيخه غوغل ... مرورا بما جادت به قريحة العالم الكبير برتران رسل (Bertrand Russel) من أخبار المُعَلم، هذا الذي قال أحمد شوقي في حقه:

قم للمعلم وفِّه التبجيل كاد المعلم أن يكون رسولا

لكن في مواقف أخرى عُذِّب فيها المعلم بل أُحرق بسبب أفكاره التي تعارضت مع أصحاب السلطة؛ وبين التقديس والتعذيب تبقى وظيفة المعلم من أهم الواجبات المميزة للمجتمعات في كل الأزمان.

المترجم.

• • •

تغيرت، في القرن الأخير، مهنة التّعليم خاصة من وظيفة صغيرة رفيعة المستوى تَهُم أقلية من الناس، إلى فرع كبير ومهم تابع للخدمات العامة. تتمتع المهنة بشرف وسمعة تقليديتين، ظلت تتطور من فجر التاريخ إلى أيامنا هذه.

لكن أي معلم في العالم العصري الذي يسمح لنفسه بالتأثُر بأفكار من سبقوه سريعا ما يكتشف بأن وظيفته تقتضي الآن أن لا يُدرِّس ما يعتقده هو ولكن عليه أن يغرس الإجحاف والأفكار التي يراها موظِّفوه مفيدة.

كان يُنْظر للمعلم في القديم على أنه رجل فوق العادة وصاحب معرفة وحكمة. ويسعى الجميع لحضور جلساته. لم تكن في العصور القديمة وظيفة المعلم محددة المعالم. ولم تكن هناك أي رقابة على ما يُدرِّسه المعلم. حتى ولو أن بعضهم قد عوقب فيما بعد بسبب معتقداته المدمرة. أُعدم سقراط ويقال أن أفلاطون قد زج به في السجن. ولكن لم تمنع هذه الأحداث أفكارهم وعقائدهم من الانتشار. وكل إنسان كانت له عبقرية المعلم تظل أفكاره خالدة من خلال كتبه ولا ترحل مع رحيل جسمه. تبقى حرية الفكر لدى المعلم في أداء وظائفه شرطا أساسيا لأن هذه هي المهمة والمعرفة والحكمة التي يستطيع تمريرها إلى الرأي العام.

أدى المعلم وظيفته في العصور القديمة بكل حرية فيما عدا بعض حالات تشنج عندما تدخل في هذا الشأن طغاة مستبدون . وفي العصور الوسطى وقعت، دون استثناء وظيفة التعليم تحت وصاية الكنيسة وكانت النتيجة ضئيلة من الناحيتين الثقافية والاجتماعية. ومع النهضة أدى التبجيل الكبير للتعلم إلى استرجاع المعلم للعديد من حرياته. حتى ولو أن رجال الاستخبارات أجبروا غاليليو (Galileo) على الارتداد عن معتقداته وأحرقوا جيوردانو برينو(Giordano Bruno)، لكن كلا الرجلين كانا قد أديا واجباتهما كاملة قبل أن يعاقبا. وظلت دور التعليم والجامعات تحت سيطرة المشعوذين وكانت نتيجة ذلك أن تمت أهم الأعمال الثقافية على يد أفراد مستقلين. في انجلترا، خاصة، حتى نهاية القرن التاسع عشر، لم تكن للبارزين من الرجال، ما عدا نيوتن، أي علاقة بالجامعات. لكن نظام المجتمع جعل تأثير ذلك ثانويا على نشاطاتهم وفعالياتهم .

وفي عالمنا الحالي الذي هو أكثر تنظيما تواجهنا معضلة جديدة. شيء اسمه التربية أُوكِلت لمن هب ودب، تحت رعاية الدولة وأحيانا تحت وصاية الكنائس. وأصبح المعلم، في معظم الأحيان، موظفا مدنيا يطبق أوامر أفراد أقل منه ثقافة، وليس لهم دراية بالتعامل مع الشباب، وهمُّهم الوحيد من التربية هو الدعاية والديماغوجية. ويصعب تصور ظروف عمل المعلمين وكيف يمكنهم أداء وظائفهم المؤهلين للقيام بها.

من المعلوم أن التعليم الحكومي ضروري، لكن من الواضح أيضا أن به مخاطر يجب تجنبها. والمساوئ المطلوب تفاديها هي ما شهدناها في حجمها الكبير لدى ألمانيا النازية وما زلنا نشاهدها في روسيا. حيث تطغى هذه المساوئ على كل شيء ولا يمكن لأحد ممارسة التعليم إلا إذا

تعهد بالانضمام إلى عقيدة دعائية لا يقبلها بإخلاص إلا القليل من المثقفين الأحرار. ولا يكفي انضمامه إلى إحدى الطُرُقِ بل يجب عليه غض الطرف عن المساوئ والتخلي بكل حذر عن التفكير أو النقاش في الأحداث الحالية(السياسة، المترجم) طالما هو يُدَرِّس اللغة وجدول الضرب التي عليها إجماع و لا يشمل برنامج تدريسه الدعاية الرسمية. لكن حتى عند تدريسه هذه المواد مطلوب منه في الأنظمة الدكتاتورية، عدم استخدام أحسن الطرق التي يراها أنجع للتدريس بل عليه أن يكتفي بغرس الرعب والتظليل في نفوس تلاميذه وفرض الطاعة العمياء له. وعند تخطيه حدود هذه المواد عليه أن يتبنى وجهة النظر الرسمية في مناقشاته. وبهذه الطريقة يصبح الشباب في ألمانيا النازية وفي روسيا متطرفين. جاهلين بما يجري في العالم من حولهم غير متعودين على النقاش الحر وعلى أن آراءهم قد تكون غير صحيحة. ورغم سوء هذه الأعمال كان بالإمكان أن تكون المهمة أقل خطورة لو كانت الأفكار المغروسة في الأذهان مثل الأفكار الكاثوليكية التي كانت رائجة عالميا في العصور الوسطى

لكن فكرة الثقافة العالمية يرفضها أصحاب الأيديولوجية العصرية الذين يتبنون عقيدة في ألمانيا وأخرى في إيطاليا وغيرها في روسيا وفي اليابان. في كل بلد من هذه البلدان تم التركيز عن التطرف الوطني في البرامج التعليمية وكانت النتيجة أن لا علاقة لمواطن من دولة بمواطن دولة أخرى. ولا وجود لفكرة مبدأ حضارة مشتركة تقف في طريق وحشية الحرب. بدأ اضمحلال الثقافة العالمية وزادت وتيرة الهرولة نحو الانحطاط منذ الحرب العالمية الأولى. قابلت سنة 1920 بلينينغراد أستاذ الرياضيات البحتة الذي كان قد زار لندن وباريس وعواصم أخرى حيث شارك في عدة مؤتمرات دولية. لكن، اليوم، يختلف الوضع بالنسبة للمثقفين الروس حيث لا يسمح لهم إلا نادرا بمثل هذه الجولات خوفا من أن يصبح لديهم انطباع سيئ عن بلدهم. الأمر أهون بالنسبة للتركيز على الأفكار الوطنية في المدارس ولكن أصبح في كل البلدان أقوى مما كان عليه من قبل. هناك اتجاه في انجلترا (وأظن أن الأمر كذلك في الولايات المتحدة) لإعفاء الفرنسيين والألمان من تدريس اللغتين الفرنسية والألمانية . إن تفضيل جنسية شخص على كفاءته في التوظيف يضر بالتربية وأمرا مشينا بالنسبة لمبدأ الثقافة العالمية الموروث عن الإمبراطورية الرومانية وعن الكنيسة الكاثوليكية وأصبح هذا المبدأ اليوم مغمورا بسبب غزو بربري يدفع إلى الأسفل وليس إلى الأعلى.

في البلدان الديمقراطية لم يصل الضرر إلى هذا الحد ولكن علينا الاعتراف بأن تفشي الخطر في التعليم قائم ولا يتم تفاديه إلا إذا كان من يؤمنون بحرية الفكر يقظين لحماية المعلمين من الاستعباد الثقافي. ولعل أول مطلب هو التحديد بكل وضوح لواجبات المعلم تجاه المجتمع. أنا مع كل دول العالم بأن من آخر واجبات المعلم الترويج لمعلومات غير مؤكدة. وهذا، بالطبع هو

الأساس الذي تبنى عليه البقية. بالنسبة للحضارات التكنولوجية مثل حضارتنا الحالية فهذا أمر فيه دون شك فائدته. يجب تكوين جمهور عصري من عدد كاف من الرجال ذوو كفاءة فنية للمحافظة على الهيكل الميكانيكي الذي يضمن لنا قسطا من الرفاهية المادية. كما أنه من غير اللائق أن يوجد بيننا نسبة من السكان الأميين. لهذه الأسباب فالكل مع جعل التربية والتعليم في كل العالم من الضروريات. لكن الحكومات ترى أنه من السهل والأنسب لها، بأن تقوم أثناء توفير التعليم بغرس أفكارها المثيرة للجدل وتخلق عادات وعقليات قد تتماشى أولا مع تلك السلطات. وإن حماية الدولة في كل الدول المتحضرة تقع تقريبا على عاتق المعلمين كما هي بين أيدي القوات المسلحة. أما في الدول المستبدة فإن حماية الدولة مرغوبة ولا يمكن أن تكون التربية موضع جدل لأن الانتقاد يأتي عندما تريد الدولة أن تحمي نفسها بالجهل الأعمى وتختار تلبية رغباتها غير المنطقية. هذه الوسائل غير ضرورية لدى أي دولة تستحق الدفاع عنها ومؤازرتها. لكن هناك رغبة طبيعية في إتباع هذه الوسائل لدى من ليس لهم المبادئ الأولية في التربية.

هناك اعتقاد متفشي بأن قوة الأمة تكمن في توحيد أفكارها والتخلي عن الحرية. وقد سمعنا مرارا مقولة أن الديمقراطية تضعف البلد أثناء الحروب. مع العلم بأن النصر في الحروب منذ سنة 1700 كان حليف الديمقراطيين. لقد دمرت أمم بسبب تعنت العقليات الضيقة المطالبة بتوحيد الأفكار لا بالحوار الحر وأفكار التسامح لدى القادة.

يعتقد العنيدون في العالم حتى عندما يكونون على دراية بالحقيقة بأن الآخرين سيسلكون مسلكا مؤديا إلى الاعتقاد الخاطئ طالما سمحنا لهم بالاستماع إلى الرأي والرأي الآخر.

هذه وجهة نظر تؤدي إلى إحدى المحنتين: إما أن ينحاز الفرد إلى العنيدين ليحتلوا العالم ويمنعوا نشر كل فكر جديدة، وإما ، وهو الأدهى، أن يستولى متنافسون على مناطق مختلفة وتحل العداوة بينهم. لقد وُجدت المحنة الأولى في العصور الوسطى والثانية أثناء الحروب الدينية ومرة أخرى في أيامنا هذه.

جمَّدت الأولى الحضارة وحاولت الثانية تدميرها التام.

يبقى المعلم أمام هاتين المحنتين مسئولا على تأدية دور الحامي المنقذ الرئيس.

من الواضح أن سياسة حزب ما مهيكل يعد في زمننا من أكبر المخاطر. عندما يتعلق الأمر بالوطنية فهو يؤدي إلى الحرب بين الأمم وبصورة أضيق إلى حرب أهلية. إنها قضية المعلمين ليقفوا خارج نزاع الأحزاب والسعي إلى غرس في عقول الشباب روح التساؤل والحوار المجرد الذي يسمح لهم بالحكم على أمور في متناولهم وأن يكونوا حذرين ضد قبول قرارات أحادية الجانب (فَرَمانات، المترجم) وما يترتب عنها. على المعلم أن لا يمدح الجمهور ولا الرسميين. تكمن فضيلة وشرف مهنته في استعداده لأن يكون عادلا في كل الحالات. وفي مسعاه إلى أن يرتفع في الجدال إلى مجال البحث العلمي الهادئ. وإن وُجِدَ أُناس ضد نتائج تحرياته يجب على أسحاب الشأن توفير الحماية له ضد إساءة الآخرين له إلا إذا ثبت تورطه في دعاية غير شريفة ونشر أفكار غير سليمة.

لا يعني ذلك أن وظيفة المعلم هي التخفيف من حدة الجدال القائم. لأن أمامه العديد من الأعمال الإيجابية عليه القيام بها ولا يمكن أن يكون معلما قديرا إلا إذا كانت عنده الرغبة في أداء هذه الأعمال. تقع مسئولية الحفاظ على الحضارة بالدرجة الأولى على طبقة المعلمين. عليهم أن يكونوا متفهمين تماما لمعنى الحضارة وراغبين في نقل تصرفاتهم وأفكارهم الحضارية لتلاميذهم. هنا نحن في حاجة إلى وقفة أمام معنى الجمهور المتحضر ؟ الجواب العادي لهذا السؤال يكون بإجراء تجارب مادية. يكون بلد متحضرا إذا كان يمتلك العديد من الآلات، ومحركات السيارات، وغرف الاستحمام ووسائل التنقل. هذه الأشياء، في نظري، هي التي يعطيها الرجل العصري أهمية كبرى.

وبمعنى أهم فإن الحضارة مرتبطة بالعقل وليس بالجانب المادي للحياة. جزء منها معرفي وجزؤها الآخر عاطفي. بخصوص المعرفة على الفرد أن يكون شاعرا وبدقة بوضعه وبجواره المرتبط بالعالم في الزمان والمكان. عليه أن لا يرى فقط بلده وهو داخل وطنه بل هو جزء من بين بلدان العالم التي لها نفس الحقوق في العيش والتفكير والشعور. عليه أن يرى سنه بالمقارنة بالماضي والمستقبل وأن طروحاته ستبدوا غريبة في العصور القادمة كما تبدوا طروحات الماضي بالنسبة لنا الآن. وبصورة أعم عليه أن يكون على وعي بتشعب العصور الجيولوجية وعلوم الفلك. يجب أن يكون شاعرا بكل هذه ليس كعبء يثقل عقل وكاهل الإنسان ولكن كرؤية شاملة تزيد عقل الناظر لها تفتحا.

في الجانب العاطفي من الضروري العمل على تفتح مماثل على مستوى الفرد إذا أراد الإنسان أن يكون فعلا متحضرا. يمر الناس من المهد إلى اللحد وهم أحيانا سعداء، وأخرى

أشقياء، أحيانا كرماء وأخرى جشعين، أحيانا أبطالا وأخرى جبناء ذليلين. وعلى من ينظر للسيرورة ككل، سيلحظ أشياء تستحق الإعجاب. بعض الناس اهتدوا إلى حب الغير وآخرون تميزوا بذكاء فائق وساعدونا على فهم العالم الذي نعيش فيه. منهم من ساهم بإحساسه الفني الفياض بتجسيده للجمال. جاء هؤلاء بأشياء إيجابية وجميلة للتخفيف من ثقل الوحشية والاضطهاد والشعوذة. قدم هؤلاء كل ما في وسعهم لجعل الحياة أمرا أفضل من سلسلة من الاضطرابات والعبودية. عندما لا يستطيع الإنسان المتحضر أن يرى الأمور بإعجاب فعليه أن يسعى لفهمها بدلا من شجبها. فاليحاول اكتشاف والتخلص من الأسباب الشريرة بدلا من كره الشخص الذي هو في قبضة تلك المساوي.

يجب أن تكون كل هذه الأمور كامنة ومستقرة في قلب وعقل المعلم ليمررها ويعلمها للشباب الذين هم تحت رعايته.

لا يصبح المرء معلما جيدا إلا إذا كان عنده شعور عاطفي قوي نحو تلاميذه ورغبة صادقة في تبليغهم كل ما يراه ذو قيمة. وليس هكذا يتصرف الغوغائيون. يرى الغوغائيون في هؤلاء التلاميذ إمكانية إلحاقهم بالجيش. سوف يخدمون أهدافا خارج نطاق حياتهم، ليس في اتجاه هدف واضح بل للدفاع عن امتيازات غير شرعية أو حكم طاغي. إن الغوغائي لا يرغب في السماح لهؤلاء التلاميذ بمعرفة ما يجري في العالم ليحددوا بأنفسهم الهدف الذي يرونه ذا قيمة. يريد الغوغائي، مثل الفنان المثالي، أن يكون نموهم في قالب يرضي صاحب الحديقة. وفي اعتراضه لنموهم الطبيعي يستطيع أن يحطم فيهم كل الفضائل الحميدة، لتعويضها بالحسد والتخريب والقسوة. لا حاجة للناس إلى القسوة؛ وعلى العكس من ذلك فأنا على يقين بأن معظم القسوة تأتي نتيجة الإعاقة في سن الشباب، والحرمان من كل ما هو حسن في الصغر.

إن الردع والرغبة في التعذيب أصبح شائعا كما تؤكده أفعال الدول الحالية. لكن الأمر غير حتمي وعلى العكس من ذلك، على ما أظن، كل هذا ناجم عن شقاء.

يجب أن تكون من بين مهام المعلم فتح الآفاق أمام تلاميذه مُبيناً لهم إمكانية النشاطات السارة والمفيدة وبذلك تتحرك حوافزهم الودية نحو الحرية تشجعهم على ازدياد رغبتهم في الانتفاع بمتع أخرى كانت قد تفوتهم.

هناك الكثير من الناس من ينتقد فكرة السعادة كنهاية المطاف بالنسبة لهم ولغيرهم، لكن البعض يظن أن النهاية هي عنب حامض. من المهم أن نفضل ترك السعادة للصالح العام ولكن يمكن التعامل مع السعادة كمفهوم عام على أنه شيء دون حدود. علاوة على ذلك فقد جرت العادة أن يتم ذلك باسم نوع من البطولة.

بالنسبة لهؤلاء يوجد لديهم بصفة عامة رابط قسوة أساسه ربما الحسد اللاشعوري ومصدر هذا الحسد يعود إلى عهد الطفولة والشباب. إنه من واجبات المربي تعليم البالغين على التحرر من هذه البلية النفسية.

وما هو معهود الآن فإن العديد من المعلمين هم غير قادرين على انجاز ما هو في استطاعتهم. ولذلك عدة أسباب، بعضها عارضة وأخرى عميقة ومستفحلة. لنبدأ بالقديم. نجد معظم هؤلاء مرهقين ومجبورين على إعداد تلاميذهم للامتحانات بدلا من تكوينهم للتفكير بحرية. وليس لدى العامة وعلى سبيل الخصوص جميع المسئولين عن قطاع التربية أي فكرة عن كلفة المجهود الفكري والروحي المبذول في هذا الأمر. لا يطلب من رجال الدين أن يقضوا ساعات عديدة كل يوم في التبشير ولكن مطلوبا من المعلمين القيام بعمل مماثل. لهذا السبب ينشأ لدى العديد من المعلمين شعور بالمضايقة والعصبية، بعيدين عن كل جديد في مادة التدريس، ليصبحوا غير قادرين على إلهام طلبتهم بالمعنى الثقافي المبهج الذي يمكن الحصول عليه وكسبه من المفاهيم والمعارف الجديدة.

وليس هذا هو الأخطر. ففي معظم البلدان هناك بعض الأفكار مصنفة على أنها جيدة وأخرى بأنها خطيرة.

ومطلوب من المعلمين ذوي الأفكار غير الصحيحة أن يلتزموا الصمت بخصوص أفكارهم.

ويعتبر إعلانهم عن أفكارهم على أنها دعاية بينما يدخل الإشهار بالأفكار الصحيحة في باب التدريس وينجم عن هذا تساؤلات عديدة لدى الشباب خارج الفصل لمعرفة الرأي الصائب لدى أصحاب الفكر من المعاصرين.

تدرس في أمريكا مادة تسمى التربية المدنية، يقدم فيها المعلم أكبر المغالطات. تملى على التلاميذ(نظريا، المترجم) لتدوينها في كراريسهم، الطريقة التي يجب أن تُدار بها الشؤون العامة مع العمل على عزلهم على معرفة ما يجري في الواقع. وعندما يكبرون ويكتشفون الحقيقة تكون النتيجة

عادة السخرية بكل الأفكار العامة، بينما لو عَلِموا الحقيقة بعناية وقدمت لهم الشروح المناسبة في السن المبكرة لكانوا قد صنعوا منهم رجالا قادرين على محاربة الشر الذي يواجهونه بإذلال ولا مبالاة.

تعتبر الأفكار الكاذبة إحدى الخطايا المحدقة بأولئك المكلفين بسياسة التربية. وفي نظري لا يكون الشخص أستاذا جيدا إلا إذا أخذ عهدا على عاتقه بأن لا يحجب الحقيقة أثناء تدريسه ولو سمي ذلك "تحدي".

إن الفضيلة التي قد يأتي بها حماة الجهل هشة ومآلها الفشل في أول وهلة تلتقي فيها مع الحقيقة.

يوجد في هذا العالم العديد من الرجال هم جديرون بالإعجاب ومن اللائق تعليم الشباب الطريق الذي سلكه هؤلاء الرجال لاكتساب الطفل هذه الفضيلة. ولكن ليس من اللائق تعليمهم الإعجاب بالمخادعين مع إخفاء خداعهم. إن معرفة الأمور على حقيقتها فيما بعد قد تؤدي إلى السخرية كما يحصل ذلك إذا تم اكتشاف الحقيقة فجأة وتبعتها صدمة وسلسلة من المفاجأت والرعب.

ولكن عندما تأتي الأمور تدريجيا كما ينبغي ويتوافق ذلك مع معرفة ما هو جيد وفي إطار دراسة علمية ترمي إلى معرفة الحقيقة سوف لن يكون لها ذلك الوقع المؤثر. في كل الحالات إن الكذب على الأطفال الذين لا يستطيعون الحكم على ما قيل لهم يتعذر تبريره من الناحية الأخلاقية. وفوق هذا وذاك على المعلم أن يسعى إلى تكوين تلاميذ قادرين، في حالة استمرار الديمقراطية على تفسيرها بأنها هي نوع من التسامح لفهم رأي من هم مختلفون عنهم. من طبيعية البشر أن يرى باشمئزاز عند الآخرين تصرفات وعادات مختلفة عن تلك التي يستعملها. يقتل النمل والمتوحشون الغرباء عنهم. وبالنسبة لمن لم يسافر ماديا أو معنويا يجد صعوبة في تفهم ما هو شاذ أو غير مألوف لدى أمم أخرى وفي أوقات أخرى وطوائف وأحزاب سياسية أخرى.

هذا النوع من عدم التسامح هو ضد مبدأ النظرة الشاملة للحضارة وهو من أخطر ما يتعرض له عالمنا المكتظ بالسكان.

يهدف نظام التربية لإصلاح مثل هذه الأخطاء ولكن لم يتحقق اليوم إلا القليل في هذا الاتجاه.

في كل دولة يتم تشجيع الحس الوطني ويتم تعليم أطفال المدارس ما هم جاهز وقريب من معتقداتهم وبأن سكان الدول الأخرى هم أقل درجة أخلاقيا وثقافيا من البلد الذي يقيم به صدفة أطفال المدارس. يتم تشجيع الهستيريا الجماعية وكل الانفعالات البشرية بدلا من إفشالها. يتجه الأطفال إلى تصديق ما يسمعونه باستمرار ولا ينتبهون للقواعد المنطقية. وفي كل الحالات لا يجب أن نضع اللوم على المعلمين. فهم ليسوا أحرارا في تعليم ما يرغبون تعليمه. في حين أنهم الوحيدون الذين يعرفون ما يحتاجه الشاب. من خلال اتصالهم اليومي بالشباب هم أفضل من يحسن العناية بالأطفال. لكن ليس المعلم هو الذي يقرر ماذا يجب تدريسه ولا طريقة التعليم. يجب أن يعطى له المزيد من الحرية إضافة إلى مهنة التعليم. يجب أن تكون له حظوظا أكبر في حرية الاختيار بعيدا عن تدخل البيروقراطيين والمتعصبين. لا يوافق حاليا أحد أن يقوم من هو خارج السلك الطبي بمراقبة وتقييم الأطباء في كيفية معالجة مرضاهم إلا إذا انحرفوا بطريقة إجرامية عن المهنة الطبية التي تهدف إلى أشفاء المرضى. إن المعلم هو ذلك الطبيب الذي يشفي المريض من طيش الشباب ولكن ليس له الحق بالاستعانة بتجربته في أن يقرر ما هي الطريقة الأنسب للبلوغ إلى الهدف. نجحت بعض الجامعات التاريخية بفضل شهرتها ووزنها في تأمينها استقلالية ذاتية فرضية. لكن السواد الأعظم من المؤسسات التربوية هو معاقب ويخضع لرقابة أُناس لا يفقهون شيئا في عملهم. لتجنب الاستبداد في عالمنا ذو التنظيم الرفيع علينا بالعمل على توفير قسط من الاستقلالية للكيانات التي تؤدي الخدمات العامة النافعة ومن بين هذه الكيانات يأتي هيكل التعليم في المقام الأول.

إن المعلم مثله مثل الفنان والفيلسوف ورجل الآداب لا يمكن أن يؤدي عمله كما يجب إلا إذا شعر بشخصية ذاتية يقودها حافز داخلي خلاق، دون هيمنة ولا قيد سلطة خارجية. من الصعب إيجاد في هذا العالم المتحضر مكانا للفرد. يمكن أن يبقى في منصب رفيع كمدير في دولة استبدادية أو مع نخبة أثرياء في دولة تمتلك مؤسسات صناعية كبرى لكن في عالم الفكر بدأت الصعوبات في تزايد لمن يريد الاحتفاظ بقوى منظمة كبرى تسهر على سبل عيش الرجال والنساء. إذا أراد العالَم أن لا يخسر أحسن ما جادت به قرائح أبنائه، فعليه أن يهتدي إلى طريقة منح المعلمين فرصة ونصيبا من الحرية حتى مع وجوده في منظومات. لكن هذا فيه تحد معلن

على حريات أصحاب السلطة ويفترض وجود وعي لديهم لفهم بأن هناك رجالا في حاجة لمنحهم الفرصة والحرية.

كان على قداسة البابوات أن يكون لهم هذا الشعور نحو فناني النهضة، لكن الرجال الأقوياء في أيامنا هذه يبدون وكأنهم يلاقون صعوبات أكبر عندما يتعلق الأمر بتبجيل الرجال العباقرة الأفذاذ.

إن اضطرابات أزمنتنا معادية للزهور الثقافة الرفيعة؛ يشعر المرء وهو في الشارع بالرعب الشديد ولذا لا يرغب في السماح بحريات لا يراها ضرورية. علَّه ينتظر زمنا يكون أكثر هدوءا قبل أن تصبح المطالبة بالحضارة أولى من روح الأحزاب. وفي هذه الأثناء من المهم أن يبقى بعض على الأقل مقتنعين بمحدودية ما تقوم به المنظمات.

يجب على كل نظام توفير منفذ للنجدة و للحالات الخاصة، وإن لم يتحقق ذلك فسيتم في النهاية سحق أحسن ما ميز الإنسان على الكائنات الأخرى.

النص الأصلي: *UNPOPULAR ESSAYS:*

Chapter 8
The Functions of a Teacher

By Bertrand Russell

تعليم الكفاية التواصلية

بقلم: إيدي رولي. ترجمة: الدكتور أحمد عزوز

***توطئة**

يجدر بنا قبل تقديم النص المترجم أن نعرّف الكفاية التواصلية، التي تعدّ "القدرة والابتكار المستمرّين دون اعتماد لائحة محدّدة من قبلُ لإنتاج الكلام وفهمه، وهي القدرة على المواجهة والتكيّف مع الوضعية غير المنتظرة القابلة للتطوّر،أي القدرة على عمل شيء بفعالية وبإتقان وبأقلّ جهد ممكن"[30].

ونلفي كلّ كفاية تتضمّن العناصر الآتية:

"1 – الغائية:وهي القدرة على الإنجاز (انطلاقا من معارف وتجار).

[30]- د.عبد السلام عشير،الكفاية التواصلية،اللغة وتقنيات التعبير والتواصل،ط:1،سنة:2007،ص:9

2 – القدرة على الإنجاز انطلاقا من معارف إجرائية تحقّق الهدف.

3 – التعلّم – حيث تحصل الكفاية بالتعليم.

4 – التنظيم – حيث تنظّم الكفاية في وحدات متناسقة.

5 – التحقّق – حيث لا تظهر الكفاية إلاّ من خلال تمظهراتها"[31].

***لماذا ترجمة هذا النص؟**

نقلنا هذا الموضوع إلى اللغة العربية لأنّه يحتوي على مسائل ذات فائدة معرفية تتعلق أساسا بـ :

أ – الكفاية التواصلية في حدّ ذاتها وسواء في اللغة الأمّ أم في اللسان الثاني.

ب – ما يرتبط باستعمال أي بتحقيق وإنجاز الكفاية التواصلية.

ج – لا يهمل صاحب النص اللغة الأمّ أثناء تعلّم اللغة الثانية وبالتالي فهو يوضّح الكفاية التواصلية في اللسانين.

ومن ثمّ فالموضوع في صلة مباشرة باللسانيات التداولية، أي فهم اللسانيات لأفعال الكلام أو أفعال اللغة، بمعنى إنّه عندما نتكلّم فإنّنا ننجز عملا معيّنا، ومن هنا تتغيّر الصيغة بتغيّر التحقيقات النطقية.

ثمّ يشير صاحب النص إلى كفاية اللسان الثاني التواصلية وهو لعمري موضوع يمكن فهمه في ضوء صناعة الملكة اللسانية التي تحدّث عنها ابن خلدون.

***ابن خلدون وصناعة الملكات أو الكفايات**

يرى بعض الدارسين أنّه يمكن تعليم الطفل اللسان الثاني مقترنا بلغته الأمّ، بل يمكن البدء باللسان الثاني ما دام يتعلم لغته الأمّ في البيت ويتكلّم لهجتها.

والواقع إنّنا نلفي ابن خلدون قد أجاب عن هذه القضايا في فترة مبكّرة، ففي فصل "في أنّ من حصلت له ملكة في الصناعة فقلّ أن يجيد بعدها ملكة في أخرى" يقول ما يلي:"...ومثال ذلك في الخياطة إذا أجاد الخياطة وأحكمها، ورسخت في نفسه، فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء، إلاّ أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها. والسبب في ذلك أنّ الملكات صفات للنفس وألوان؛ فلا تزدحم دفعة واحدة...فقلّ أن تجد صاحب صناعة يحكمها، ثمّ يحكم من بعدها أخرى، ويكون فيهما معا على رتبة واحدة من الإجادة، حتّى إنّ أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة.

[31]- د.عبد السلام عشير،المرجع نفسه والصفحة نفسها.

ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم وأجادها في الغاية، فقلّ أن يجيد ملكة علم آخر على نسبته، بل يكون مقتصرا فيه إن طلبه، إلاّ في الأقلّ النادر من الأحوال"[32].

ويذكر ابن خلدون أنّ اكتساب اللغة لا يختلف عن اكتساب الصناعة، ثمّ يوضّح كيفية حصولها فيقول:"اِعلم أنّ اللّغات كلّها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها...

والملكات لا تحصل إلاّ بتكرار الأفعال؛ لأنّ الفعل يقع أوّلا وتعود منه للذات صفة، ثمّ تتكرّر فتكون حالا. ومعنى الحال أنّها صفة غير راسخة، ثمّ يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة"[33].

فالملاحظ أنّه لمّا كان تعلّم اللغة شبيها بالصناعة، فإنّه لا يمكن اكتساب ملكة أو كفاية اللسان الثاني إلاّ بعدما تكون ملكة اللسان الأول أو اللغة الأمّ قد رسخت وتمكّنت من صاحبها؛ ولذلك فالحديث عن تعلمّ اللغة الثانية لا يعطيها الأسبقية في تشكيل الفكر وبنائه، وفي تعلّم منهجية التفكير ومنطقه، وقولبة العقل ضمن تصوّر الأمّة الذي يزوّده بقواعد لغته الأولى.

***عملنا في الترجمة**

– لقد سعينا في هذه الترجمة إلى أن نحافظ على مضمون النص بنقل أفكاره عن طريق المعنى وليس الاعتماد على الترجمة الحرفية.

– أهملنا بعض الهوامش التي وظّفها الكاتب في متن الصفحات المترجمة.

– لقد نقلنا الأمثلة التي استخدمها الكاتب إلى العربية لتوضيح أفكاره، وهذا لتنسجم مع الفكرة التي كان يشرحها مؤلّفها.

– وضعنا هوامش توضيحية.

– وضعنا عناوين فرعية اعتبرناها عناصر، لم تكن موجودة في النص الأصلي وهذا حتى يتضح المضمون والأفكار.

– أهملنا الفقرتين الأخيرتين من النص (ص:84) لأنّهما لا تقدّمان إضافات معرفية إلى الكفاية التواصلية التي يحلّلها الكاتب.

*تـرجـمة النـص

من كتاب: اللغة الأمّ واللغات الثانية – نحو بيداغويجة مدمجة –

[32]- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدّمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، سنة:1993، ص:379.
[33]- ابن خلدون المقدمة،ص:476.

من سلسلة اللغات وتعلّم اللغات لإيدي رولي ،سلسلة هايتيه 1980.

عنوان الموضوع: تعليم الكفاية التواصلية

تستلزم دراسة العلاقات بين بيداغوجية اللغة الأم وبيداغوجية اللغات الثانية تحديدا واضحا لأهداف كلّ واحدة منهما.

بالنسبة للغة الثانية، وبعد المدّة الطويلة التي هيمن فيها التعليم التقليدي الذي كان يركّز على الترجمة،وكان يهدف أساسا إلى تيسير الولوج إلى الآداب الأجنبية، فقد انتهى الأمر إلى الاعتراف،وتحت ضغط احتياجات (الاقتصاد، والسياسة والسياحة إلخ..) المجتمع المعاصر بضرورة تعليم اللغات الثانية كوسائل اتصال.

وإذا كان لا أحد يعارض هذا الهدف اليوم، فإنّه يبقى – غالبا– مثلما هو الحال في بيداغوجية اللغة الأمّ – مفهوما وبطريقة بسيطة ومختصرة، بل وبعواقب وخيمة في اللسان الثاني، أين لا تكون للمتعلم فرصة تحويل معارفه المكتسبة في القسم إلى تواصل يومي.

فما معنى التحكّم في اللغة كوسيلة اتصال؟وكيف يتمّ اكتساب هذا التحكّم في المدرسة؟

1 – اللغة أداة تواصل والقصد من التحكّم فيها

سنكتفي بإعطاء لمحة لبعض عناصر الأجوبة لهذين السؤالين،محيلين القارئ إلى دراسة عميقة للكتاب المميز لـ Widdowson[34] 1978، والذي صدر ضمن هذه سلسلة[35]، وإلى كتاب جوب Jupp وهودلين، وهيديشنين وليجرد Heddesheinein et Lagarde) 1978).

وليس المقصود – وبكلّ وضوح هنا – بالتحكّم في اللغة كأداة للتواصل إمكانية القراءة والكتابة للجمل بصورة صحيحة مثلما درّسوا لنا ذلك في التعليم التقليدي، أو فهم بسرعة وإنتاج آليا جمل صحيحة في جواب عن بعض المنبّهات الأساسية مثلما نتعلّم ذلك في مختبر اللغات.

ولكن الغاية هي أن نمتلك القدرة على فهم وإنتاج تراكيب أفعال اللغة المناسبة لمقصدية المشاركين في حدث التواصل، وتكون – أيضا – موافقة لمقام التفاعل.

2 – الصيغة التركيبية والتلوينات النطقية: تغيّر النطق يؤدّي إلى تغيّر الدلالة

[34]- لودوفسون كتاب بعنوان: تعليم اللغة للتواصل،صدر في أوكسفورد ينة:1978.

[35]-يقصد هنا بسلسلة اللغات وتعلم اللغات التي تصدرها دار الطبع هايتيه بفرنسا.

ولا تتماثل هذه الأفعال اللغوية (ومن الأهمية الانتباه لتجنب الوقوع في أخطاء المراجع المعاصرة الكثيرة) مع الصيغ التركيبية النحوية الأساسية الأربع وهي:

- الصيغة التقريرية – والاستفهامية – والأمرية– والتعجبية.

وهذا لعدّة أسباب:

أ – لا يوجد توافق أحادي المعنى بين الصيغة والفعل (الحدث)؛ نحو: هل يمكنك أن تعيد لي تلك الورقة يوم الاثنين؟ فقد تكون هذه الجملة استفهامية عِوَض أن تكون التماسا أو طلبا.

- اشرب كأسا آخر ! ؛قد تكون هذه الجملة عرْضا عوض أن تحمل دلالة النصح أو الأمر.
- أنهي تقريري يوم الاثنين؛ فهي جملة تحمل دلالة الإثبات والوعد، لا بل قد تكون تهديدا.

وبالعكس يمكن أن يكون الطلب المعبّر عنه إمّا بصيغة تقريرية مثل: أرغب قدّاحة، أو استفهامية هل عندك قدّاحة؟ أو يعبّر عن الطلب بالأمر: أعطيني قدّاحة[36].

2– إنّ أنواع أفعال الكلام التي نحققها في التواصل اليومي ليست خاصة فقط بالإثبات أو الاستفهام أو الأمر، أو التعجب (هذا إذا افترضنا أنّه لا يمكن أن نتحدّث عن فعل التعجب لأنّ قانونه يبقى الأقلّ إبهاما) ولكن من واجبنا أيضا أن ننصح ونعفو ونستنتج ونعارض...

3 – ويمكن لفعل الكلام في حدث تواصل معيّن أن ينقل في الوقت ذاته دلالات كثيرة، فالأمّ التي تستقبل ولدها مثلا، وهي تقول له:لماذا لم تعد إلى البيت بسرعة بعد الساعة الرابعة كما قلت لك ! فالملاحظ أنّ هذه الجملة تنجز غرضين على الأقلّ وهما:

- يتضمّن السؤال طلبا للإعلام(أي الولد يعلم أمّه عن أسباب تأخّره).
- أو هي تلومه (عن هذا التأخّر).

ومن ثمّ، فإنّه لا يكفي إدراك تعدّد دلالات الأفعال التي نحققها في التواصل اليومي،وتنوّع إنجازاتها الممكنة،ولكن يجب معرفة اختيار ذلك الإنجاز في علاقته بهذا المقام أو ذاك.

وبهذا الاختيار يعبّر المتكلّم عن نوع العلاقة التي يقيمها مع مخاطبه(بفتح الطاء). فالفعل الطلبي يمكن أن يسجّل درجات متنوعة من السلطة،العطف، الالتزام، التبجيل، أو العدوانية. وإذا كانت أشكال التعبير بدون شك تمكن بلوغ الهدف الأوّل المقصود (مثل دفع المخاطب إلى غلق

[36]- نستنتج من هذه الأمثلة أنّ المعرفة النحوية غير كافية لفهم دلالات الجمل،أو إنتاجها وفق المقام.ذلك أنّ النطق والإلقاء قد يغيّر من دلالة الجملة ومضمونها.فالجملة الواحدة قد تحمل دلالة الاستفهام أو الأمر أو غيرهما وهذا بحسب التلوينات الصوتية المختلفة التي تدخل على الجملة، والكفاية التواصلية لا تهمل هذا الجانب.

الباب) فإنّ اختيار هذا الشكل التعبيري أو ذاك هو الذي سيحدّد قدرا واسعا من تطور العلاقة بين المخاطب أو المخاطَب (بفتح الطاء).

فاختيار هذا الإنجاز أو ذاك هو الذي يعيّن– طبعا –شكل ردود الأفعال اللفظية التي نتركها للمخاطَب –(بفتح الطاء).

إنّ الجواب: لا؛ ليس لدي الوقت ! هو أكثر ملاءمة للالتماس في مثل:هل يمكنك أن تغلق الباب من فضلك ! منه إلى: أغلق الباب من فضلك.

وتضع هذه الملاحظة مشاهد أفعال الكلام بعين الاعتبار وليس فقط الأفعال المنعزلة.

ولا تسمح هذه المشاهد أبدا بأن يؤتى بالتراكيب النحوية التقليدية سؤال /جواب أو إثبات/ نفي.

فمن خلال التحليل القوالبي(التجميمي)[37] للحوار في محطة الحافلات، فإنّ طلب معلومة معيّنة يمكن أن يكون الجواب نفسه طلبا لمعلومة إضافية.

3 – منهجية اكتساب اللسان الثاني

والسؤال هو كيف يمكننا اكتساب تلك الكفاية التواصلية، المميّزة بالتحكّم في الأفعال الكلامية للخطاب في لسان ثان، إذا لم يكن لنا حظ الترعرع أو العيش في الوسط الذي يتكلّم ذلك اللسان.

فمن غير الممكن أن تنبّه المؤسسة المدرسية جيّدا الوسط التعلّيمي الطبيعي للسان الثاني، وما ذلك إلاّ لأنّ التحفيزات مختلفة، وعلاوة على ذلك فإنّ المتعلّمين لا يقضون كلّ أوقاتهم في المؤسسة المدرسية. ولهذا فإننا لا تصوّر كلّيا تعليما ضمنيا أو استنتاجيا انطلاقا من معطيات لغوية رسمية.

-ذكر الكاتب هذا التحليل في الفصل الثاني الخاص بتعلم اللغة الأم،ص:29.، كما أنّ هذا الحوار مذكور في ص:38 من الكتاب نفسه.
وهذا التحليل للباحث بايك ،ونظريته تقدّم أدوات التحليل التي تدخل دراسة اللغة في دراسة بنية السلوك الإنساني بصفة عامّة،وهي تفيد في بيداغوجية تعليم اللغات،واقترح وسائل بسيطة تيسّر الفهم والتطبيق وفكرة بايك الأساسية هي أنّ كل فعل للسلوك الإنساني سواء تعلق الأمر بخدمة دينية ، مقابلة في كرة القدم،أو فطور مع أفراد العائلة،طلب الاستعلام،تلفّظ جملة أو كلمة، يمكن أن تحلّل مختلف مستوياته إلى وحدات يطلق عليهاTagmémes
وهو مصطلح تقني.ولكن من هو بايك كنّيث (Pike kenneth):لساني أمريكي(1912)، رئيس المعهد الصيفي للسانيات، وصف عدّة لغات لم تنل حظّها من الدراسة مثل (غينيا الجديدة،الفليبين...)طوّر النظرية العامة في الوصف اللساني، التاجميمك التي تندرج ضمن التصوّر العام للنشاط اللساني من الطبيعة السلوكية،اللغة في علاقتها بنظرية موحّدة مع بنية السلوك الإنساني. [37]

كما لا نستطيع مطلقا تصور تعليم استنتاجي بدقة ومبرمج. ففي الرياضيات مثلا السبب بسيط، وهو أنّ المتخصصين أنفسهم ما زالوا يجهلون القواعد التي تتحكم في تسلسل وتأويل أفعال اللغة في خطابها.

ولهذا فإنّ تعليم الكفاية التواصلية في المدرسة لا يرتكز على تقديم المعطيات اللغوية كاملة فقط، وفي شكل تسجيل صوتي أو مرئي لأحداث التواصل الموثّقة، ولا على الوصف الوحيد الذي يعدّ أكثر تجزيئا لآليات تلك الكفاية التواصلية.

ومن هنا يجب إذن إيجاد حلّ وسط، وتصوّر تعويضات لسلبيات حال التعلّم المدرسي باستعمال مزايا حال هذا التعلّم المدرسي نفسه.

4- دور التواصل الشفوي في تعلمّ اللغة الثانية

لنشرح ما سبق،إنّ متعلّم اللغة مغبون في الوسط المدرسي، لأنّه لا يفيد من وفرة التفاعلات الشفوية ومن المنفعة الحيوية المقدمة له في الوسط الطبيعي، ولكن يمكن أن نتصوّر إمكانية تعويض تلك النقائص لحال التعلّم المدرسي بميزيتين وهما:

أ - إمكانية ملاحظة واكتشاف - بمساعدة دليل مجرّب - الهدف الذي نرغب بلوغه بمعنى نظام وكيفية اشتغال اللسان الثاني.

ب - إمكانية التركيز في هذا النشاط للاكتشاف والتفكير،على العمل الذي تمّ في القسم بخصوص موضوع آخر من نفس التعلّم وهو اللغة الأم.

وهذا يعني أنّ المؤسّسة المدرسية لها حدودها، فلا المدرّس، ولا المراجع تستطيع أن تقدّم الأجوبة الجاهزة لكلّ المشاكل التي نلفيها في نظام اللغة وفي كيفية اشتغالها؛ ممّا ينتج عنه ضرورة إعطاء مكانة واسعة لقدرات الاكتشاف، الفهم، وتعليم التلاميذ وتقديم لهم الأدوات الخاصة بذلك.

ولن نركز هنا على ضرورة استعمال المدوّنات الرسمية في تعليم اللغة الثانية؛ لأنّ هذا الاستعمال يتطوّر بسرعة،كما كان موضوع عدّة تجارب وإصدارات.

وللتوضيح فقط؛ يجب إدخال التعبير الشفوي الحرّ منذ المراحل الأولى من تعلّم اللغة الثانية إذا أردنا أن يكتسب التلميذ القدرة الجيّدة للتواصل بها.

وعلى هذا الأساس؛ فنحن لا نعارض - إذن - بصفة جذرية التصورّات الموضّحة بالمناهج السمعية البصرية الأولى، وأشرطة التمارين البنيوية التي تفرض التطور النحوي الصارم،من البسيط إلى المركب،وتحدّد بصرامة توسع المعطيات اللغوية المقدّمة إلى المتعلّم،وكذلك إمكانية تعبيراته.

ولكن نعارض مثل بوطون(Bouton) الذي يؤكّد:" حتمية استعمال في البداية خطاب شفوي محايد، الذي لا تقدم إنجازاته أيّ فرق بالنسبة للنظام الأكثر دقّة للغة المتعلّمة.

فبعض التجارب التي قام بها سافينيو[38](Savignon) توضّح بأنّه يمكن ملاحظة مرحلتين في اكتساب اللغة الثانية:

أ – الأولى وهي مكرّسة خاصة لتعليم النظام[39].

ب – والثانية إلى استعمال ذلك النظام في التواصل[40].

وإذا كان تسلسل المشاكل بهذه الكيفية فقد يعترضنا خطر خاص بالركون إلى الحفاظ على التصحيح النحوي فقط، وبالتالي فإننا لا ندفع بالتلميذ مطلقا نحو القدرة التواصلية الجيّدة[41].

وبالنسبة للوسائل الاستكشافية التي لا تطرح في بيداغوجية اللغات الثانية – نقترح وهذه هي الأطروحة المركزية لهذا المؤلَّف كما سيوضّحها الرسم الموجود في آخر الكتاب–[42] إدخال الوسائل التي وضعت تحت تصرّف التلميذtd اكتشاف اللغة الثانية وعرفها حينما بدأ يدرس اللغة الأمّ.

[38]- لهذا الباحث كتاب موسوم: الكفاية التواصلية،في تجربة تعليم اللغة الأجنبية،صدر في سنة:1972.

-النظام النحوي هو الذي يبين بأنّ متعلم اللغة قد اكتسب القدرة التواصلية وليس معرفته لمفردات اللغة. ومن ثمّ فإنّ فكرة النص هي أنّه يركّز في تعليم اللغة الثانية على المشافهة والحوار البيداغوجي، وأن نترك المتعلّم ينطق ويعبّر حتّى وإن أخطأ لنصحّح له لحنه بالجمل الصحيحة.

ويؤكّد على أنّ إتقان اللغة لا يكون إلاّ بمنهجيتين وهما: معرفة النظام النحوي، ثمّ التواصل وفق هذا النظام في المقامات والمناسبات المختلف[39].

[40]- بهذا الاستعمال اللغوي نتأكد بأنّ المتعلم سواء للغة الأم أم اللغة الثانية قد اكتسب الملكة اللسانية أي القدرة التواصلية أم لا.

- يهمّ التلميذ إذن تمكينه من اكتساب بعض كفاية التواصل،وتشجيعه على التواصل بكل حرية حتى وإن كان يفعل ذلك على حساب الخطأ منذ المراحل الأولى للتعلّم[41].

[42]- ص: 106 من الكتاب المترجم.

لسانيات

شركة الهند الشرقية:
من التجارة إلى اللسانيات

بقلم: كابيل راج ترجمة: الدكتور محمد قماري

دأبت شركة الهند الشرقية البريطانية منذ أن تأسست سنة 1600 على توطيد علاقاتها بالدوائر العلمية، وسعت في ذلك سواء بوساطة موظفيها من (علماء الفلك و علماء الطبيعة...) أم بواسطة كبار المساهمين في الشركة من العلماء (نيوتن، بويل...).

وفي العام 1783 تمَّ تعيين قاض شاب، هو عضو في الشركة الملكية، بمجلس القضاء الأعلى بكلكوتا، وما إن وصل إلى مكان وظيفته الجديدة حتى عمل على إنشاء هيئة مماثلة لجمعية العلماء اللندنية، عُرفت باسم الجمعية الأسيوية للبنغال (Asiatic Society of Bengal)، وبعد مرور سنتين قرأ وليام جونس (William Jones) أمام أعضائها بيانا يؤسس للدراسات اللغوية.

في يوم 23 سبتمبر 1783م توجه السيد وليام جونس، كان عمره 37 سنة، لقد تم تعيين هذا المحامي اللندني قاضيا بمجلس القضاء الأعلى بالبنغال*، ولأنه كان شغوفا باللغات والحضارات الأجنبية، فقد عمل على وضع برنامج موسع جدا، شمل دراسة "القوانين الهندوكية والإسلامية، وتاريخ العالم القديم، وشمل سياسة وجغرافيا الهند الحديثة، ومنتجاتها الطبيعية والمصنعة، زراعتها

وتجارتها، وأحسن السبل لحكم البنغال، الهندسة والحساب، والعلوم المختلطة، الكيمياء والجراحة عند الهنود، الشعر والموسيقى، الأخلاق والبلاغة الآسيوية..[1] ".

وبعد مضي أشهر معدودات، وفي يوم 15 جانفي 1784م، أنشأ جونس الجمعية الآسيوية للبنغال (l'Asiatic Society of Bengal)، هذه الجمعية العلمية التي أنشأها على صورة الجمعية الملكية اللندنية يقوم على تمويلها شركة الهند الشرقية البريطانية، تحولت سريعا إلى وسيلة لنشر أعمال المستشرقين، ووصلت هذه الأعمال إضافة إلى الهند إلى أوربا وأمريكا الشمالية..

.....سؤال حائر

والسؤال كيف تحولت شركة تجارية بريطانية، هدفها الوحيد المعلن التجارة وتحقيق الربح المادي، إلى الاهتمام الذي تعدى مجرد التشجيع إلى تمويل مثل هذا المشروع؟

منذ نشأتها سنة 1600 م وعلى امتداد 250 سنة تالية من وجودها، لم تتوان شركة الهند الشرقية البريطانية في أداء دور بارز تمثل في تنمية العلوم البريطانية والهندية، أولا لأن التجارة في بحار الشرق ترتكز بالأساس على الثورة العلمية للقرن السابع عشر. ومن البداية عملت الشركة على توظيف علماء فلك وعلماء طبيعيات: وكانت مهمة الفريق الأول المساعدة في مهمات الإبحار ومهمة الفريق الثاني في معرفة السلع التجارية، وكان عدد من مسيري الشركة ومساهميها علماء بارزون: كروبرت بويل وإسحاق نيوتن و جوزيف بنكس، ودون ريب فقد جذب هؤلاء الرجال في البداية الربح الذي تدره تجارة التوابل والشاي، إلا أنهم وجدوا في الشركة وسيلة مؤكدة لزيادة رصيدهم العلمي[2].

توطدت العلاقة العضوية، شيئا فشيئا، بين إدارة الشركة والمؤسسات العلمية البريطانية. فعلى سبيل المثال، كان لحدائق كيو الملكية للنباتات (Royal Botanic Gardens of Kew) تحت رعاية جوزيف بنكس، الذي كان يشغل حينئذ منصب رئيس الجمعية الملكية، منذ نهاية القرن الثامن عشر دور أساسي في التسيير الاقتصادي للبنغال بواسطة الشركة الهندية[3]. حيث عمل علماء النبات على انتقاء الفصائل المنتجة، وأصبحت مداخل إنتاج البنغال الزراعي تستغل في استيراد الشاي والفخار من الصين.

وفي المقابل أسس موظفون بالشركة جمعيات علمية، منها الجمعية الملكية الفلكية سنة 1820، برعاية المستشرق ومؤرخ علم الفلك الهندي هنري توماس كولبروك (Henry Thomas Colebrooke)، كما سعى العديد من حملة الشهادات الجامعية الاسكتلندية أم من شمال أوربا إلى الهجرة طلبا للعمل في مناطق ما وراء البحار، بعضهم انضم إلى جناح العمل العسكري التابع للشركة الهندية سواء أكان طبيبا أم في علم خرائط أو راهبا، وكان متاحا لهم جمع الآثار القديمة أو

جمع عينات من النباتات أو الحيوانات الغريبة، وهم بصدد عملهم هذا فإنهم يحصدون الكثير من الشهرة التي تضمن لهم عند عودتهم الانتساب إلى مصاف العلماء، الأمر الذي يوطد الصلة بين الشركة والجمعيات العلمية في مختلف الحواضر.

.....الغارة وأدواتها

لم تساهم شركة الهند الشرقية البريطانية فقط في منح علماء شباب فرصة للثراء المادي والشهرة. لكنها عبر مسار طويل وربما محزن في بعض أوجهه، سمح بظهور بعض العلوم الاجتماعية التي أخذت تطبيقاتها في آسيا وأصطلح على تسميتها بالاستشراق*.

هذه الشركة التي حلت بالهند في مطلع القرن السابع عشر، ومقصدها تحقيق أرباح من خلال التجارة في البهارات وأدوات الزينة، كان أعضاؤها في بادئ الأمر بعض التجار وجنود بريطانيين؛ وحتى عندما بلغت الإمبراطورية قمة مجدها في القرن العشرين، لم يتجاوز عدد المدنيين البريطانيين فيها بضع عشرات الآلاف، وهو عدد ضئيل دفع البريطانيين إلى الاستعانة بالسكان الأصليين لتنفيذ بعض المهمات التقنية والإدارية. ومن هنا و منذ أن وطئت أقدامهم الهند برزت صلات تعاون بين بريطانيين ومجموعة من السكان الهنود، كموظفي البنوك وأعوان الترجمة، وأيضا بعض الحرفيين في النسيج والصياغة وعمال المناجم وبنائي السفن..

جاء غزو الانجليز لبلاد البنغال سنة 1757، في أعقاب تنافس بريطاني فرنسي، الأمر الذي جعلهم مقدمين على تدبير شؤون سياسة بلاد مترامية الأطراف؛ لكن موظفي شركة الهند الشرقية لم يكن يشغلهم تحقيق هذا الهدف، بقدر ما انصرفت جهودهم في سلب ونهب المنطقة. لقد أزهقوا عشرة ملايين نفس في ثلاث سنوات (أي ثلث سكان البنغال في ذلك العهد، أغلبهم من المزارعين والحرفيين)، مع تعرض الباقين إلى غرامات مجحفة تؤدي إلى المجاعة والهلاك.

.....سياسات مغايرة

بحلول العام 1772م قررت الشركة أن تنظم شؤون البنغال، فقامت بتعيين وارن هاستنغس (Warren Hastings) حاكما عاما ليتسنى له أن يتولى بشخصه قضايا الإدارة المدنية في هذه المقاطعة القديمة من الإمبراطورية المغولية. وأمر الرجل بجرد كل "خيرات" المقاطعة على وجه السرعة، ولم يكتف في ذلك بالأمور المادية وحدها: "كل التراكم المعرفي" كما كتب "وعلى وجه أخص ذاك الذي كان نتاجا للتفاعل الاجتماعي مع القوم الذين تقع عليهم سيطرتنا المؤسسة على الحق في الغزو، لأن ذلك مهم للدولة"،وحظيت اللغات بنصيب وافر من جهود هاستنغس، ووضع

نظاما يكفل تحفيزا ماديا للضباط الذين يقبلون على دراسة مختلف مناحي المجتمع الهندي، ومن هنا بدأ التعويل على قوة المعلومة بدلا من قوة السلاح سواء في الهند أم في بريطانيا العظمى.

وأخذ التعاون بين البريطانيين والأهالي يتوسع ليشمل تحصيل الضرائب، وإدارة العدل ثم إلى التعليم؛ وحافظ البريطانيون على هيكلة الإدارة المحلية وأغلب موظفيها من الطبقة الوسطى، وكلها موروثة عن الإدارات المنغولية أو الأميرية، كالمسؤولين عن الأرشيف والحفظ العقاري ومسح الأراضي، القضاة والعمداء والشرطة الخطاطين والمعلمين...كلهم يشكلون حلقة اتصال بين البريطانيين والمجتمعات المحلية.

وعلى الرغم من تحفيز هاستنغس، فإن أغلب موظفي الشركة لم يبدو اهتماما بالقضايا اللسانية والقانونية؛ وقليل منهم كانت له المؤهلات في ذلك. إن هؤلاء الموظفين، يتم تجنيدهم في سن مبكرة، ويختارون من بين صغار عائلات تجار لندن، حيث تحول وضعيتهم المالية بينهم وبين دخول الجامعة، والتي يظفر بها عادة الطفل الأول أو الثاني في العائلة ويرسل للدراسات الدينية.

يصل هؤلاء الأطفال (الشباب) إلى الهند بين سن 14 و17 سنة، ولا يشغل بالهم إلا شيء واحد: بناء ثروة؛ ويتسلحون بشيء من معرفة الحساب (كالقاعدة الثلاثية)، والحساب التجاري مع تزكية من أحد ذوي النفوذ، وهذه الأمور وحدها كافية للانخراط في الشركة.

هذه القلة التي انجذبت للعمل الفكري تشبعت، في الغالب، بمذهب نخبة القرن الثامن عشر الأنجليكانية، والتي غرفت من منهل الكلاسيكية والكتب المقدسة، فتعليم النبلاء والمتميزين الجامعي تضمنه في الغالب "القلعة الكبيرة" وفي مركزها تظهر ايطاليا وتوابعها العتيقة؛ فكل شيء بدءا من نظرتهم إلى الدولة إلى سلوكهم وأسلوب معاشهم كل ذلك يحمل بصمة الثقافة الإغريقية اللاتينية.[4]

هذه الثقافة سوف تحكم نظرتهم في فهم بلاد الهند وسكانها، بعد انتقالهم إليها؛ فاللغة السنسكرية* في نظرهم لا تعدو أن تكون لغة منحصرة في لغات الهنود كما هو حال اللاتينية والإغريقية بالنسبة للغات الأوربية.

وعلى منوال جامعي الآثار الأوربيين في ذلك الوقت، الذين انصرف اهتمامهم إلى بعث مآثر أثينا وروما القديمة، عمل هؤلاء أيضا على تركيز بحوثهم في علم الهند على الآداب القديمة، والأعمال الفلسفية والعلمية، لاسيما ما كان منها مكتوبا بالسنسكرية، فجمعوا المخطوطات والنقوش الحجرية وأشياء أخرى أثرية، هذه القضايا شغلت اهتمام ووقت هذه الثلة من أهل التراث.

.....آفاق جديدة

كان قدوم وليام جونس وحزمه أن جمّد فجأة جهود هاستنغس، وربما يكون من المناسب قبل الخوض في هذه الحوادث أن نتوقف عند هذه الشخصية الوافدة؛ فجونس ولد في لندن العام

1746، وأبوه سليل عائلة ريفية من بلاد الغال، واستقر بلندن مع بداية القرن الثامن عشر، وكان مدرسا رياضيات، والتقى كلا من ايدموند هالي (Edmund Halley) وإسحاق نيوتن. وانتخب سنة 1712 عضوا بالجمعية الملكية نظير كتبه التي خصصها للتعريف بأعمال العالم الكبير نيوتن وانتصاره له في خلافه مع ليبنز (Leibniz).

داعبت ظلال هذه الشخصيات الشهيرة نفس الشاب وليام، وحركت فيها شيئا من الطموح. لقد أوتي موهبة إتقان اللاتينية وولع باللغات والحضارات الأجنبية، ودخل جامعة أكسفورد حيث بدأ بمعونة صديق سوري في تعلم العربية ثم انتقل إلى اللغة الفارسية الحديثة.

لقد بدا بأنَّ التعليم في أكسفورد ونسق الحياة فيها، باهظ الثمن مقارنة بالموارد المتواضعة لعائلة جونس، فأضطر وليام مكرها لقبول منصب مدرس خاص لأبناء عائلة سبنسر (Spencer)، وهي من عائلات نبلاء انجلترا، وبفضل هذا العمل كان لقاؤه بالسيدة التي اختارها بعد ذلك شريكة لحياته، وهي آنا ماريا شيبلي (Anna Maria Shipley) ابنة قس ونبليدن؛ واستطاعت عائلة شيبلي أن توثق علاقته بالمتشددين وأشياع الثورة الأمريكية، وبوجه خاص بنيامين فرنكلين، والذي أصبح فيما بعد من أصدقائه المخلصين.

وبطريق عائلة سبنسر أيضا، طلب منه ملك الدنمارك أن يترجم مخطوطا فارسيا إلى اللغة الفرنسية؛ وطبعت الترجمة سنة 1770 م ووضعت جونس بجدارة على طريق الشهرة، إذ تمَّ انتخابه سنة 1773 م عضوا في الجمعية الملكية ولم يتجاوز 26 ربيعا من عمره، عرفانا لجهوده في مجال اللسانيات والاستشراق.

هذا الطموح الذي تملكه في أن يظفر بمكانة اجتماعية، هو الذي حدا به أن يترك، في سبتمر سنة 1770م ، وظيفة المعلم الخاص عند آل سبنسر، ويتفرغ ليعد نفسه ليكون من رجال القانون، تماما كسيسرون (Cicéron) الرجل الذي اتخذه منه قدوة له.

واستقر في لندن مشتغلا بالمحاماة، لكن هذه المهنة لم تحقق له الدخل الذي كان ينشده، وفكر جونس بعد ذلك في الهجرة؛ وطبيعي أن يدفعه ولعه بالآداب الشرقية إلى شركة الهند البريطانية: فألف كتابا في النحو الفارسي موجه لعمال الشركة "فلا يمكن أن نثق في ترجمة الأهالي" كتب موضحا في مقدمة الكتاب، وتوجه بكتاباته للحاكم العام بالهند، وانطلق يساهم في الحياة السياسية...وفي نهاية المطاف مع مطلع سنة 1783 من الإصرار وبمساندة بعض معارفه النافذين، تم رفع جونس إلى طبقة النبلاء وعيِّن قاضيا بمحكمة البنغال العليا.

..... ورؤيا مستقبلية

دعا جونس إلى عقد جلسة أولى للجمعية الآسيوية للبنغال، في جانفي 1784م، ومن البداية فرض نظاما صارما استوحاه من عمل الجمعية الملكية، فكان يجتمع بالمنتسبين للجمعية كل أسبوع لمناقشة محاضرات في لغتها الأصلية؛ فلا مجال لقبول أي وثيقة شرقية بترجمة عجلى، ولا يجبر أحد على الانخراط في الجمعية. إنما المطلوب هو: "حب العلم والرقي به"، و حدود البحوث هو "الإطار الجغرافي للقارة الآسيوية"، ومجالها هو: "الإنسان والطبيعة:كل ما هو من تدبير البشر أو عطاء الطبيعة".

لم يكن جونس قد تعرف بَعدُ على حقيقة الواقع الهندي، فعمل على رسم برنامج موسع ودقيق لانطلاق أعماله، وحثَّ المنتسبين الجدد للجمعية بأن "يعيدوا رسم الخريطة الهندية بملاحظات واكتشافات جديدة [...]، ووجههم إلى دراسة الحوليات و[...] وتقاليد هذه الشعوب[...] ومختلف أنماط الحكومات مع مؤسساتها المدنية والدينية" وكتب مخاطبا تفحصوا " نهضتهم وطرائقهم في الحساب والهندسة وعلم المثلثات والقياس والميكانيكا والفلك والفيزياء العامة؛ وانظروا في سلوك أخلاقهم، وفي النحو، البلاغي والمنطقي، ومهارتهم في الجراحة والطب، وتفوقهم في علم التشريح والكيمياء. ويجب أن تضيفوا إلى ذلك أبحاثا في زراعتهم وحرفهم وتجارتهم... وادرسوا بحب موسيقاهم وهندستهم المعمارية والرسم والشعر".

يبدو أن اللغات لم تحظ باهتمامات جونس: "أنا لا أعتبر اللغات إلا من حيث هي مجرد أدوات للمعرفة الحقيقية، وأعتقد أنه من الخطأ خلطها بالعلم"، لكن لم تمض إلا سنتين، لنجد وليام جونس يصدر عن موقف مختلف تماما: "اللغة السنسكرية، على الرغم من قدمها، ذات بنية رائعة، أكثر دقة من اللغة الإغريقية، وأكثر ثراء من اللاتينية، وأشد نقاء من هذه ومن تلك، ومع ذلك نجد فيها تقاربا مع هاتين اللغتين، في جذور الأفعال، وبناء النحو، وهذا ليس من قبيل الصدفة، فكل مهتم بفقه اللغة سيدرك أن هذا التقارب بأن اللغات الثلاث إنما تعود إلى أصل واحد ربما يكون قد اندثر". هذا الخطاب الذي أشار فيه إلى تقارب اللغات الهندية القديمة مع الإغريقية واللاتينية، جعلت منه مؤسس علم الهند وعلم اللسانيات المقارن.

لقد كان لمرافعته في النص ذاته، وحكمه بأن التقارب بين الشعوب، استنادا إلى "لغاتهم وآدابهم، الفلسفة والدين[...] وآثار النحت القديمة، والهندسة المعمارية، والعلوم والفنون "، فتح المجال أمام علم الأجناس البريطاني مع مطلع القرن التاسع عشر.

ما الذي حدث حتى يغير جونس رأيه، وهو الذي كان يعتبر اللغات مجرد ناقل للمعرفة وفقط إلى حد القول بتقارب الحضارات الهندية والإغريقية اللاتينية وجعلها في مصاف واحد؟ إن

الأمر لا غرابة فيه إذا علمنا أن القاضي جونس، واجه واقعا أدرك من خلاله أن حياته اليومية و(حياة جميع البريطانيين) في شبه القارة الهندية مرتبطة بتسهيلات يقدمها لهم السكان الأصليون.

في ذلك الزمن كانت ساحة القضاء يتقاسمها نظامان: الأول للمسلمين وآخر للهنود؛ وإذا كانت قوانين الشريعة الإسلامية في الغالب ثابتة من خلال نصوص دينية مدونة بالعربية أو الفارسية (اللغة الرسمية للإمبراطورية المنغولية)، فإن الشرائع الهندية تختلف بحسب المناطق والأقاليم، إضافة أنها غالبا لا تستند إلى نصوص مدونة.

وقصد إرساء القضاء، فكر البريطانيون أنه يتحتم عليهم أن يثبتوا القوانين الإدارية الهندية بالتدوين على صورة القانون الروماني، لتعم الأقاليم الهندية كلها، وقاموا بتوظيف لفيف من المتعلمين لكتابة النصوص القانونية ونقلها من السنسكرية إلى الفارسية التي كانت اللغة الأقرب إلى فهم الأوربيين.

ولقد كان جونس نفسه، خلال عمله بالقضاء يأخذ بمشورة خبراء القانون (مسلمين وهنود)؛ ومع انقضاء عامه الأول في الهند، واجهته مشكلة الشهادة الكاذبة في الشريعة الهندوكية، فعلى الرغم من الحرج المهين لكثير من مرؤوسيه من الأوربيين والهنود مجتمعين، فقد احتاج إلى الاستعانة ببعض معاونيه من السكان المحليين. ولكن تبقى مشكلة التحقق من مصداقية أقوال وكتابات أشخاص ينتمون إلى ثقافة أخرى، بل هي ثقافة قوم مستعمرين؟

سؤال مهم في زمن كانت فيه المرأة والأطفال والمرضى المجانين، كلهم لا يعدون من العدول؛ وهذا الرجل الذي كان يعتقد، قبل أشهر قريبة، بأن دراسة اللغات لا تختزن "إلا أهمية متواضعة في ذاتها" بدأ في تعلم "لغة الآلهة"، لأنه احتاج إليها أولا للتحقق من صدق من يحادثهم، ومن جانب آخر ليستطيع تأليف مختصر في القوانين الهندوكية والإسلامية، وحينئذ اكتسى خطابه "عن الهندوكية" أهمية أخرى.

.....منهاج جديد للدراسة

رسم جونس أول الأمر منهاجا جديدا في تحليل اللغات، تاركا وراءه الخطة القديمة المبنية على مقارنة جذور الكلمات، ورجح عليها منهاجا يعتمد فحص كل عناصر البناء النحوي، وأسس بهذا للسانيات المقارنة؛ وفي المقام الثاني قال بالأصل الواحد للغة السنسكرية واللغة الإغريقية واللاتينية، وبذلك ألحق الهنود بالإغريق والرومان...آباء الإنجليز.

ويؤكد بعض المؤرخين المحدثين[5]، بأن الاستشراق قد خدم بريطانيا العظمى، ومنها أوربا كلها، وعزز هويتها بجعل الشرق والهند بمثابة "الآخر" الكبير. لكن مسار جونس الفكري يؤكد

عكس هذا الرأي فالتواطؤ الذي حصل بين النخبة البريطانية وبعضا من النخب الهندية شاهد على توافق، من دونه لم يكن البريطانيون ليمكثوا حكاما طيلة هذه المدة على شبه القارة الهندية.

لقد كان لهذا الانضواء للنخب الهندية داخل العائلة الانجليزية العتيقة بعض النتائج غير المتوقعة؛ ففي سنة 1800م، شعر البريطانيون بالقلق خوفا من انتقال موجة الثورة الفرنسية إلى عمال شركتهم، فأسسوا في كلكتا مدرسة فور وليام (Fort William) أين يتعلم إطارات الشركة الجدد اللغات، والعلوم والفلسفة، والبنية الاجتماعية وتعقيداتها في الهند؛ واقتسم مهمة التدريس مستشرقون بريطانيون مع علماء هنود. وفي سنة 1806 م افتتحوا في الضواحي مدرسة شرق الهند (East India Collège) بهاليبوري (Haileybury)، حيث ساهم أساتذة هنود في تكوين الكوادر الجدد في الشركة، بل إن ثلاثة منهم أقدموا على التدريس في الأكاديمية العسكرية للشركة بأديسكومب (Addiscombe).

من هنا فإن مسعى جونس في كسب ولاء النخب قد ساهم أيضا بوضوح في إظهار أن "الآخر" الحقيقي الذي تشير له بريطانيا العظمى بأصبعها هو: فرنسا!

محطات هامة في تاريخ الشركة

- سنة 1600 م تم تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية.
- 1664 م أسس غولبير Colbert شركة الهند الفرنسية.
- استوطن الفرنسيون بمدينة بونديشيري (Pondichéry) جنوب شرق الهند.
- 1688 م أسس الفرنسيون مستوطنة شاندرنغور (Chandernagore) في البنغال.
- 1690م تأسيس الانجليز لكلكوتا.
- 1756م بداية حرب السنوات السبع، وتمكن ملك البنغال سراج الدولة من السيطرة على كلكوتا.
- 1757م استرداد كلكوتا من قبل روبرت كليف، بعد انتصار الانجليز في بلاسيي وغارتهم على البنغال.
- 1761 م وقوع بندوشري في قبضة الانجليز.
- 1763م معاهدة باريس واستعادة بندوشري ومستوطنات أخرى للرعاية الفرنسية من الانجليز.

- 1765م الشركة البريطانية تتلقى حق الامتياز من الإمبراطور المغولي بالتسيير الإداري والمالي في البنغال.
- 1770م مجاعة في البنغال وهلاك عشرة ملايين من البشر، والشركة البريطانية تعرف عجزا ماليا حادا.
- 1773م وارن هستيغ يعين حاكما عاما.
- 1776م إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية وسقوط أول الممالك البريطانية.
- 1857 م انتفاضات عارمة للجنود الهنود.
- 1858م حل شركة الهند الشرقية البريطانية، والهند تلحق بالتاج البريطاني.

.

- **<u>العناوين الفرعية من وضع المترجم</u>**

المقال الأصلي: Du commerce à la linguistique

الكاتب: *Kapil Raj*

المصدر: Recherche N°300 - 07/1997

- **<u>إحالات ومراجع</u>**

(1) La quasi-totalité des écrits de William Jones se trouvent réunis dans Anna Maria Jones (ed.), *The Collected Works of Sir William Jones*, 13 volumes, Londres, 1799, et dans Garland Cannon (ed.), *The Letters of Sir William Jones*, 2 volumes, Oxford, Clarendon Press, 1970.

Les principaux écrits orientalistes ont été traduits en français : L.-M. Langlès *et al.* (éds.),*Recherches asiatiques, ou mémoires de la société établie au Bengale ...* , 2 tomes, Paris, Imprimerie impériale, 1805.

(2) S. Schaffer, « Defoe's Natural Philosophy and the Worlds of Credit » *in* J.R.R. Christie et S. Shettleworth (éds.), *Nature Transfigured : science and literature, 1700-1900* , Manchester, New York, Manchester University Press, p. 13, 1989.

(3) L. Brockway, *Science and Colonial Expansion. The Role of the British Royal Botanic Gardens* , New York, Academic Press, 1979.

(4) Pour l'histoire de l'éducation en Angleterre, voir J. Lawson et H. Silver, *A Social History of Education in England* , Londres, Methuen, 1973.

(5) Edward Said, *L'Orientalisme. L'Orient créé par l'Occident,* Paris, Le Seuil, 1997.

المعنى و الدلالة

بقلم: أ.شارودو، ترجمة: الدكتورة فاطمة ولد حسين

المقدمة:

إن المشكلات المتعلقة بمعنى الجملة ليست حديثة العهد وإن علم الدلالة لم يستطع توضيحها تمام الوضوح و هو الأمر الذي يجعل من كل أخصائي في علم الدلالة ملزما بتقديم عمل متواضع يدعم به هذا الاتجاه.

و من بين هذه المشكلات، الإختلاف والتخصيص و التفاعل الموجود بين ما يلحظ بالحدس في"المعنى الثابت" للجملة و ما يلحظ بالحدس في"المعنى الظرفي" في خطاب خاص .

و عندما تتضح هذا المسألة يمكننا إضافة مسألة ثانية و هي : أيّ معنى من هذين المعنيين قد يكون موضوع دراسة لسانية ؟ أو هل يمكننا معالجة المعنيين معا معالجة لسانية كاملة ؟

بمعنى أنّنا نقترح أولا وجودنا على أرضية التفكير الابستمولوجي و البدء بدراسته ثم النظر بعد ذلك في أثرها المنهجي.

و سنقف في هذا المقال عند الأرضية الأولى تاركين إشكالية التحليل المعجمي – الدلالي للعمل المقبل الذي سنستخرج منه الأثر المنهجي للتحليل المعجمي الدلالي كما سنقترح مجموعة من الملاحظات قبل محاولة شرحها، متبعين في ذلك الطريقة العامة للعلوم التجريبية.

1. ملاحظة

1.1 ليكن المثال التالي:

[1] La situación que afecta… gran número de trabajadores en nuestro país, es parecida a la de los demás países europeos

الوضع الذي يعصف العدد الكبير من العمال في بلادنا هو شبيه لما يحدث في باقي الدول الأوربية

أ) نلاحظ في هذه الجملة وجود ثغرة في علاقة فعل – مفعول و نتساءل إذا ما سنستعمل في هذا السياق علامة أ أو Ø

ب) إنّ أول تحليل"داخل اللغة"(أي انطلاقا من السياق اللغوي الظاهر) سيعطينا العلامات التالية[43]

- إن الفعل،الأكثر دلالةً (قسم دلالي + متطلبات تركيبية) يستلزم (أ)
- المفعول ينتمي إلى قسم "حي" – "انساني" فهو ليس مفردا بحكم أنّه جاء بصيغة الجمع و محددا للعدد (gran número) فهو يؤدي قولا شاملا و جماعيا – لا يستلزم – أ–

نلاحظ عندئذ أنّ التحليل اللساني المحدود في هذا السياق لا يسمح لنا بتحديد موقفنا في اختيار أ أو Ø. لأنّ المتطلبات التركيبية للفعل و المفعول متناقضة مما يفسر لنا أنّ الأجوبة المقدمة لهذا الاختبار مقسمة بين أ و Ø.

فيجب إذن اللجوء إلى ظروف التواصل لإزالة هذا التوازن التوتري و ترك كفة الميزان تميل إمّا لجانب أو لآخر.

فلو نظرنا إلى المتكلم (الأنا) صاحب الخطاب، على أنه عضو في المعارضة التي تنتقد بعنف الظرفية الاجتماعية – الاقتصادية للبلد، نفهم حينها أنّه يبحث فعلاعن إجلاء هذه "الوضعية" التي أصبح العمال فيها ضحية لها ".

و سيكون الاقتراح أ أحد الإجراءات اللغوية الأكثر توافقا و تلاؤما لتأكيد هذا المطلب الذي سُيدخل موضوعية المتكلم تحديدا في هذا الخطاب.

و إذا حدث عكس ذلك، و جعلنا المتكلم [الأنا] مقررا للجنة تقنية متعددة الأعضاء فإنّه، عندئذ ،سينسحب بصفته ضميرا للمتكلم [الأنا]و سيحاول أيضا الابتعاد نوعا ما عن خطابه . و يؤدي هذا البحث الهادف المصاحب لخطاب تنعدم فيه الذاتية طواعية [الأنا] إلى استعمال Ø (أو رفض أ)

و نرى، في هذه المرة، أن الإحالة على سياق غير لغوي (غير معلن عليه بوضوح) يجعلنا نتخذ الإجراء الحقيقي الدلالي – التركيبي لخطاب معين. و أن انعدام هذه الإحالة لا يسمح لنا القيام بالاختبار (وهو الأمر في مثل هذه الحالة) و الترجمة (إذا ورد الخطاب من البداية باللغة الفرنسية) ثم الشرح .

43-إنّ اختيار الاقتراح أ يخضع لعلاقة (فعل مفعول) و ليس للمفعول فقط و لتعريف ذلك ينظر :
Pottier, BSLP, t. CXIII (1968), Klincksieck,et P.Charaudau,Cours de linguistique, SEDES.

هذا ما يفسر لنا انتظام الأجوبة (أ في الفرضية الأولى و Ø في الثانية) منذ أن بدأنا في توضيح ظروف التواصل.

ج) و يمكننا إعادة التجربة مع نظم أخرى، كنظام أسماء الإشارة مثلا [44] في اللغة الاسبانية. حينئذ سنفكر في اللجوء بسرعة إلى ظروف التواصل لنتمكن من اختيار أحد مفاهيم النظام أو القدرة على تبريره بعد ذلك.

مثلا - [2] muralla divisoria constituye un paramente sonrojo para el /.../ mundo- occidental

الجدار الفاصل يمثل إلى الأبد وصمة عار في وجه العالم الغربي .

نلاحظ مرة أخرى في هذا المثال أن سياق اللغة الداخلي وحده لا يسمح لنا بإختيار este-ese ou auquel esto هذا، ذاك أم ذلك ، ذاك مما يستدعي اللجوء إلى السياق غير اللغوي، مثلا :

إن الأنا– المتكلم موجود أمام "حائط برلين (هذا este) أو هو الصحفي الذي يقوم بهذا التعليق في جريدة، تحت صورة حائط برلين ← esto

- إن الأنا موجود في قارة أخرى غير القارة الأوربية ← auquel ou ese (ذاك ذلك)حسب درجة قوة ظهوره إلخ (يمكننا تصور ظروف أخرى)

بعد هذه الملاحظة الأولى سنقدم عددا معينا من الملاحظات :

أولا: لا نريد القول أن لشرح كل أحداث الخطاب يجب بالضرورة اللجوء إلى السياق غير اللغوي. لذا قد يكون السياق اللغوي مفسرا لنفسه تفسيرا كافيا. كما هو الأمرفي:

[3] quiero a una mujer que es guapa (أحب امرأة جميلة).

يمكننا تبرير أ بسياقه غير اللغوي (querer vb الفعل الأكثر دلالة يستلزم فاعلا (حي- إنساني) و مفعولا (حي- إنساني) و mujer (امرأة)كلمة محددة تستلزم (حي -إنساني) فهي مُفردة بحكم وصفها الهادف نسبيا. و في هذه الحالة يمكننا القول أنّ ظروف التواصل قد أبرزها و كشف عنها السياق غير اللغوي محدثا في ذلك مضايقة . فظروف التواصل حاضرة دائما بطريقة أكثر أو أقل وضوحا، مما

يفسر لنا، عكسيا،أن السياق اللغوي الداخلي إذا كان واضحا يخبرنا عن ظروف التواصل.

و هكذا فالمتقابلة [4] vi a muche gente (رأيت الجماعة الكبيرة من الناس)

44- لتعريف هذا النظام نرجع إلى كتابنا Cours de linguistique

[5] vi muche gente (رأيت جماعة كبيرة من الناس) تشير لنا أنّ [الأنا] المتكلم "يعرف الناس" في [4] و لا يعرفهم في [5] كذلك المتقابلة:

[6] leiste a Freud ? قرأت فرويد؟

[7] leiste Freud ? هل قرأت لفرويد؟، يجعلنا نفكرّ في [6] أنّ الأنا المتكلم يلجأ إلى معرفة الفكر الفرويدي بينما في [7] يتعلق الأمر بمجرد قراءة تأملية فقط (perspective)

نستنتج مما سبق أن الملفوظ الذي يُنتج خارج ظروف التواصل لا يمكنه تحقيق قيمته التواصلية وذلك من منظورين اثنين هما :

- من منظور [الأنا] المتكلم، فأن اختياره للرموز يخضع لظروف تواصل معينة يكون فيها موجودا. فهو لا يستطيع تأويل ملفوظ تأويلا صحيحا إلاّ إذا كان عارفا بظروف التواصل .

- فإن كان هذا صحيحا، فظروف التواصل أيضا ستكون موضوع دراسة لغوية و المتقابلة داخل / خارج اللغة ستكون متقابلة ظاهرة في الخطاب، و بالتالي يصبح الصنفان لكلا السياقين لغويين.

و هو الأمر الذي نرغب تبيانه.لكن قبل أن نقترح تفسيرا نظريا وفيا لطريقتنا الاستقرائية، يمكننا أخذ مثال واحد فقط لتدقيق ملاحظتنا:

1. 2.ليكن هذا مثال آخر:

[8]qué bien se queda invitando con IIICarlos (ما أحلى ضيافتك مع كارلوس)

أ- لمن يملك الكفاءة اللغوية الكافية في اللغة الاسبانية سيتيقن بأن للملفوظ معنى.أي أننا سنفهم منه شيئا معينا مهما اختلفت الطرق التجريبية التي ورد فيها .

و أكثر من ذلك فنحن بصدد تفكيك الجزء الذي تلقيناه شاملا في بداية الأمر و هكذا سنحصل على :

- X invita con Carlos III لما (س) استضيف مع كارلوس III
- X (se) queda muy bien (س) ظل مرتاحا جدا

+ العلاقة التي تقوم بين الخبرين :

- Cundo (x) invita con Carlos III x se queda muy bien لما (س) استضيف مع كارلوس III (س) ظل مرتاحا جيدا

+ التحول إلى الملفوظية التعجبية

- qué bien se queda invitando con Carlos III ما أروع أن تكون مدعوا مع كارلوس III

ب- مع ذلك فإن هذه التجزئة لم تقدم كل شيء عن القيمة التواصلية لهذا الملفوظ .لذا فنحن نجهل ما يهدف إليه س(بوصفه اسم علم في الملفوظ) و نجهل ما يهدف إليه Carlos III.

ستسمح لنا ظروف التواصل – المشفرة تقريبا – بفك هذه الرموز بدقة. ويمكنها كذلك تحقيق أشياء كثيرة .فالأمر لا يتعلق بمجرد توضيح بسيط تقدمه ظروف التواصل للعلامات المرجعية – لأنّ جميع العلامات المرجعية (su, eso, el... إلخ)(أل ،هذا،هـ ،ها الضمير) لا يمكنها أن تؤول خلافا لذلك. لأن حتى و لو عرفنا ما يرمي إليه "س" و Carlos III فإنه يستحيل علينا افتراض أنّنا قد أدركنا العملية التواصلية كلها.

و إذا قمنا باختبار نوضح فيه ظروف التواصل التي تحيط بالخطاب و حاولنا تنويعها، سنلاحظ أنّ الخبر سيتغير جزئيا :

- "الأنا" هو ضيف للمتلقي الذي سيتوجه إليه.

زيادة عن الأخبار المفككة سابقا سيحتوي هذا الخطاب على الخبر التالي:

"لديكم ذوق" أو " أنتم تحسنون الاختيار" و في الوقت نفسه "أنا شخصيا أستحسن اختياركم" أو "يعجبني هذا الكونياك كارلوسIII "

- و إذا حصلت ربما مناقشة شديدة اللهجة بين الأنا و المتلقي الذي استضافه (في مقهى أو في منزله)، نراهن بأنّه سيتلقى الخبر جيدا : "إنّك لبق يا عزيزي" لقد لمست و كارلوسIII وترا حساسا في أعماقي – أنتم تعرفونه – إنكم مقتدرون.

- لنفترض الآن أنّ هذا الخطاب شعار إشهاري – و إذا افترضنا أنّ الهدف من وراء هذا الشعار هو إثارة الرغبة عند القارئ -المستهلك للحصول على المنتوج، و من أجل ذلك يربط الشعار الإشهاري شراء المنتوج بأمل الحصول على الرضى ،فيمكننا في هذه الحالة قبول أن كلّ شعار يعتمد ، بطريقة أو بأخرى، الحجة التالية:

"إن اشتريتم المنتوج م تتحصلون على النتيجة ن وإن أردتم النتيجة ن اشتروا المنتوج م و من هذا المنظور، و رجوعا إلى مثالنا السابق، نستنتج الأخبار التالية:

Cuando uno invita con Carlos, uno queda bien لماّ يكون شخص في ضيافة مع كارلوس، يكون الشخص مرتاحا جدا. و هو الخبر الذي احتواه الملفوظ من البداية، خارج ظروف التواصل.

و لكن زيادة على ذلك سنحصل على ما يلي :

Si Vd quiere quedar bien, invite con Carlos. إذا أردت أن ترتاح استضف أيّ شخص مع كارلوس.

Sea (3) tenga Carlos III en su casa[45] أن تستضيف كارلوس في منزلك

Sea compre Carlos أن تكون متفهما لكارلوس

ح) نرى عندئذ، أنّه لا يمكن فهم دلالة الخطاب كليا دون الاعتناء بظروف التواصل.

و يؤكد لنا هذا المثال نتائج ملاحظتنا الأولى علما بأنه يستحيل وجود تأويل صحيح[46] للخطاب خارج

ظروف التواصل، لكنه في الوقت ذاته يسمح لنا بالتقدم في ملاحظتنا ، لأنّنا إذا ما لاحظنا تغييرا في الدلالة كلها بمصاحبة تغيير في ظروف التواصل،فيبدو أن الملفوظ سيبقى حاضرا بمعناه الشامل الذي يتطابق مع الفهم التجريبي للمنطوق خارج السياق اللغوي عند كل فرد من المجموعة الإجتماعية -اللغوية نفسها ذات الكفاءة اللغوية المعتبرة.

نستطيع من الآن استباق شرحنا و افتراض أنّ الجملة التي تكون خارج ظروف التواصل هي ملفوظ ذو معنى. و أنّ الجملة نفسها الواردة في إطارها التلفظي هي خطاب ذو دلالة ، و منهما تكتسب الجملتان قيما تواصلية .

و قبل الانتقال إلى آخر مثال، نريد أن نقدم ملاحظة تفاديا لسوء الفهم؛ فنحن لسنا في المرحلة التفسيرية و لا المنهجية من بحثنا، بمعنى أنّنا لا زلنا لم نعرف وجه الظاهرة التي يمكن للسانيات أن تهتم به و لا الطريقة التي قد يتم بها معالجته.

وما نعرفه لا يتجاوز هذه المفاهيم المقترحة إن كانت سُتبرر ابستومولوجيا أو ستبقى مميزة في المنظور المنهجي.

و تجدر بنا الإشارة إلى أنّ ظواهر الكلام لا يمكن تناولها إلاّ بطريقة الملاحظة و التجريب و هو ماُ يبرر هذه المداخل.

45- Osea قد استعملت الكلمة طواعية لمعنى اسم العلم للعلاقة المنطقية القائمة بين مفهوميّ أ و ب. و نتفادى شرح هذه العلاقة لما تؤديه بنا إلى استطراد كبير.

46- « correcte » هنا كما ورد أعلاه تعني تطابقا لنوايا "الأنا".

. 3. ليكن هذا إذن المثال الأخير:

قصر في القمة	"castillo en la cima,
غابة مكشوفة	Soto, raso, era,
ضياء في القرية	Resol en la aldea,
منسك وحيد	Soledad, Erimita"

أ) هذا مقطع من المقاطع الخمسة من شعر "غيلان" (كانتينو) إذ تضعنا هذه العلامات بتسلسل خطها الطباعي و ما تكشفه من عناصر عروضية و فونيمية في ظرف تواصلي معيّن.

كما يمكننا كذلك تصنيفه في إطار التواصل الشعري.

قد يكون [الأنت] المتلقي الدائم الحضور محايدا أحيانا في عملية الحوار عندما لا يكون أحاديا (بل متعددا) ولما يكون أيضا [الأنا] المتكلم واعيا بموارد الرمز اللساني (اللغة) فيبحث عن إنشاء خطاب يكون فيه الشاهد الأكثر وفاء "لمقولة حول العالم" يرغب في تبليغها . و لهذا السبب يتميز الخطاب بانغلاقه في إطناب يسعى إلى تقييم محتوى دلالته[47]

- لذا يجد [الأنا]نفسه في حوار خيالي مع خطابه و العالم – و هي موجودة أيضا في الأصناف الأخرى من التواصل إلاّ أنّها كانت أكثر تضخما في هذه الحالة.

ب) و بالرغم من كل هذه الإشارات فلا ندعي فهم دلالة هذه الأبيات الشعرية فهما كاملا لأن السبب لا يعود فقط إلى سلوك الخطاب اللغوي لكل عملية تواصلية يكون فيها عسير التفسير و التبسيط - و هو أمر بديهي- و إنما يعود إلى إدراكنا بأن كثيرا من التأويلات يمكن تحقيقها حسب الانطلاق الظرفي الأول الذي نعتمده .

ت) و سنأخذ من هذا المقطع ما يلي:

_وصف لمشهد في كاستيي castille	←	I_1
_حزمة شكلية هندسية	←	I_2
_رأي في الغزل	←	I_3
		I_4

[47] – للحصول على هذه التعريفات ينظر : A.J Greimas , du sens , édition du seuil .paris

_رأي الشاعر	←

ج) لكل خطاب شعري تعدد–دلالي- و هو أمر مُعترف به في الأصناف الأخرى للخطاب مما يجعله أمرا بديهيا في هذا الصنف، خصوصا- يخضع للآراء التي تعطى للخطاب، أي المكانة التي نمنحها ل[الأنا] إزاء العالم و خطابه و [الأنت] - فالتأويلات لم تكن سوى إجراءات قصدية نقدمها ل[الأنا] حتى و لو كانت غير مقاصده و لهذا يمكن للقصيدة أن تبتعد عن صاحبها فلا يمكننا التملص من ذلك – و يعني ذلك في نهاية المطاف أنّ هذا التعدد الدلالي يخضع لظروف التواصل.

و قد لاحظنا من خلال الملاحظة الأخيرة أنّ "ظروف التواصل" تتسع لمعنى أوسع، فالأمر لا يرتبط بمادية المحيط للمتكلمين فقط (الأنا الأنت) و إنما بالطريقة التي يواجه بها الأنا هذه العلاقة الثلاثية من خلال خطابه ايضا.

الهو

هذا ما نريد توضيحه و تبريره الآن باقتراحنا تفكيرا تأصيليا (ابستمولوجيا) يمكنه الكشف عن هذه الظواهر التواصلية .

2. الشرح

هكذا إذن طُرحت مشكلة المعنى و الدلالة، و بتعبير آخر الدلالة الثابتة و متغيراتها في عملية التواصل و هو ما رأيناه في ملاحظتنا السابقة.

و لتوضيح هذه المشكلة سنبدأ أولا بتعريف التواصل بأنّه ظاهرة للتفاهم (2. 1.) ثم سنرى كيف يؤلف الكلام نفسه داخل هذا التواصل لنستنتج في الأخير ضرورة تأسيس ثنائية تمييز بين منطوق/ خطاب – معنى/ دلالة (2. 3.)

1.2. و لكي تتم عملية التواصل، أكدنا دائما وجود متكلم و مستمع يسميان أحيانا بمصطلحين عامين؛ المرسل و المتلقي.

و ربما لا زلنا لم نستنتج بعد أثر هذا الإثبات، و هو ما سنقترحه الآن.

أ) تحتوي كل عملية تواصل خبرا معينا يثير آجلا أم عاجلا استجابة جسدية أو لغوية – و هو الدليل التجريبي الوحيد الذي نتلقاه من هذه الظاهرة؛ و في هذا الصدد كان"بلومفيلد" اللغوي الأمريكي في الثلاثينيات من القرن العشرين قد لاحظ أنه" لا يمكن لوضعيتين

أن تكونا متشابهتين تماما ، و أن رسائلهما المتتالية ليست متطابقة و إن لاحظنا تطابق ردود فعلها عند أشخاص مختلفين".

و يمكننا أن نكون أكثر دقة في ملاحظتنا لنثبت أنّ المرسل في الحقيقة لا يكون مقتنعا – و بالتالي يعتقد بأن خبره قد وصل – إلاّ عندما يستجيب المتلقي لخبره و تمثل الاستجابة بالمقابل عند المرسل إثبات وصول الخبر الذي أرسله.

نرى إذن أنّ المتلقي لا يمكنه أبدا أن يكون قطبا سلبيا غير مؤثر في عملية التواصل، فهو فعال مثله مثل المرسل ،لأن الاستجابة هي إنتاج للخبر المُطالَب بإرجاعه.و نفهم في الوقت نفسه بأن المرسل ينتظر ما يرسله المتلقي ليتأكد من وصول خبره و مدى وقعه في نفسه . و هذا ما يجعلنا نستنتج أن المرسل،حين أدائه اللغوي ،يرغب في أن يفهمه المتلقي و يستجيب لخبره .

لنحاول صياغة ما سبق ذكره بمصطلحات أخرى:

- يُعد كل مرسل متواصلا من اللحظة التي ينتج فيها خطابا موجه للمرسل إليه. أي من اللحظة التي يباشر فيها كلمته ،لذا نمثله ب[الأنا] JE
- يُعد كل متلقي مخاطبا ل[الأنا] وهو في صدد تواصله . بمعنى أنّه في الوقت نفسه يتلقى الخطاب الذي يجب أن يفهمه و ينتج بدوره خبرا لإرجاعه. فنمثله ب[الأنت] TU.
- يمكننا القول عندئذ أنّ كل [أنا] هو في الوقت نفسه [الأنت] بالقوة ب لأنه ينتج خطابه إنطلاقا مما يعتقد أنّه قد فهمه من [الأنت] و سيكون فعلا [الأنت] (مختلفا عن السابق) عندما يأخذ المستمع بدوره الكلمة ليرد على خطابه.
- ونقول أيضا أنّ [الأنت] هو في الوقت نفسه [الأنا] بالقوة ، لأن فهمه للخطاب الذي يتلقاه هو محاولة لاستيعابه و كأنه هو صاحب الخطاب ، و عندما يباشر الكلام بدوره يصبح فعلا [الأنا] (مختلفا عن السابق).

ج)و هكذا لا ينظر إلى التواصل اللغوي بأنه مجرد إنتاج خطاب موجه إلى المرسل إليه فقط، و إنّما هو التقاء لهجي لحركتين ينطلق كل منهما من قطب و لكل قطب فاعل متميز (ذو شخصية مزدوجة). يمكننا تقدمهما في الرسم البياني التالي:

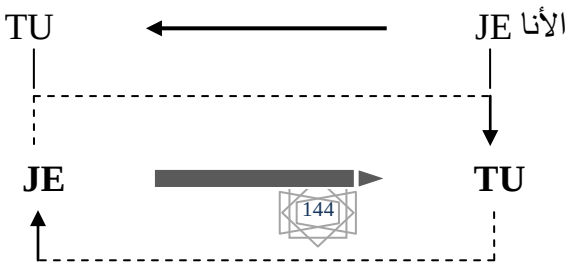

ا

2.2.أ) إذا الكلام لم ينجز لكن وجوده قائم و متضمن في عملية التواصل كلها، و إذا تحققت عملية التواصل في هذه الثنائية [الأنا] و [الأنت] ، فإننا سنكون حينها مرغمين على قبول أن لا وجود لقانون لغوي عند المجموعة الاجتماعية- اللغوية و إنّما هناك قوانين تفوق عدد الأفراد الذين ، في لحظة أو في أخرى، يمثلون [الأنا] ، و بمعنى آخر فإنّ كل فرد سيضطر إلى إيجاد قانون له من خلال مجموعة من العلاقات مع مختلف [الأنت] لأن دون هذا الإجراء لا يستطيع أن يكون مثل [الأنا] بينما [الأنا] كنا شاهدناه يبحث في مجموع العمليات التواصلية عن تفهم المتلقي له ، و لذلك ، سيسعى جاهدا لتحقيق الإجماع معه،لكن لماذا يريد هذا الإجماع؟لأنه ، لسبب بسيط ، يقدم الكلام دفعة واحدة و لأن كل " أنا" باستطاعته أن ينتج، في كل مرة ،خطابا ذا خاصية (و هو واع نوعا ما بهذه الخاصية).

ب) و يمكننا تقديم أدلة على ما ذكرناه و هي أدلة أسفرتها الملاحظة التي لا تقل أهمية عنها. وسنتناول واحدة منها فقط خوفا من التوسع في عرضنا.

ويتعلق الأمر هنا بتداخل مصطلحاتي في الكلام الإنساني.

لقد لاحظنا أحيانا أنّ [الأنا] يقاطع خطابه ليتوسل مباشرة [الأنت] لإصدار ملفوظات من هذا النوع:

Entiendes ? ves que quiero decir ? هل تفهم؟ هل تدرك ما أريد قوله؟

و الأنت من جهته يمكنه أن يتظاهر، حتى ولو لم يتوسله الأنا ،بما يلي :

_(أنّه فهم الخبر)ها،أنا أراه Ya veo, ya

_(أنه لم يفهم الخبر؛ أو قليلا)لا، لا أفهم No, no entiendo

Pero en este raso

Qué sentido hay

_(أنّه يشك في تأويله)لكن في هذه الحالة Que darle a ‘‘político’’ ?

ما المعنى الذي يمكن

إيصاله " للسياسي" ؟

إن هذه الملفوظات التي تحمل طابعا ساكنا و مستقلا هي –نوعا ما –بمثابة فتاحات لدراسة اللغة الاصطلاحية .بمعنى أن الخطاب اللاحق يسعى إلى تفسير الخطاب السابق .وهذا الخطاب على الخطاب هو وضع ثان لوضع أول في اللغة،و هو بالتالي يمثل دليلا لهذه اللعبة الثابتة التي يحتويها كل تواصل إنساني بين : الإجماع و الخاصية .

و بالتالي يعود نشاط دراسة اللغة الاصطلاحية إلى وجود رغبة عند [الأنا] و [الأنت] في إنشاء حلقة للإفهام .و ذلك يعني ان الإفهام ليس بالأمر الهين و أن لكل خطاب خاصية تميزه قبل توضيحه.و الدليل على ذلك إحدى "الفتاحات" المتمثلة في العبارة التالية:

Pero momento! es que hay democraciaydemocratia – لكن لحظة من فضلك، هل هناك ديمقراطية. أي بطريقة تعبيرية أخرى "hay x y x" هناك.

و تقوم الدراسة لآلية وضع العلامات – و دراسة اللغة العامية خصوصا –بإجلاء هذه الحزمة إجماع/خاصية التي يعتمدها كل تواصل يؤدي إلى تأليف الكلام.

حان الوقت أن نعود إلى المشكلة التي كنا قد طرحناها في الجزء الأول من هذا العرض، لنتناولها في ضوء ما نعرفه عن التواصل اللغوي.

3.2 لقد شاهدنا في أثناء ملاحظاتنا المتتالية أنّ لكل ملفوظ معنى ثابت و شامل – و هو ما يُعطى له خارج السياق – لكن بمجرد وضعه في ظرف تواصلي معين،فإنه يأخذ دلالة خاصة – و هنا سنتعرف على إجماع/ خاصية. فلنتناول هذه الفكرة من قريب:

أ– على ماذا يقوم المعنى؟

يقوم على قدرة إنتاج عدد من الجمل المتعاقبة حول ملفوظ معين و، بطبيعة الحال، تُجرى هذه العملية بطريقة آلية و منظمة. فهي تقر بالقوانين العامة في تنظيمها للعلامات اللغوية بمحوريها الاستبدالي و التركيبي، وكذلك بالقوانين الخاصة بكل رمز لغوي معتمدة في ذلك الاحتمال الذي يعطيه العرف اللغوي الذي تصنعه الجماعة من هذه العلامات و تراكيبها .

كأن يكون الملفوظ من هذا النوع:

10Juan esta de paseo خوان يتجول . قد يفهم الملفوظ خارج السياق. كما أنّنا نستطيع أن نعطيه معنى في حالة تقابل هذا الملفوظ مع غيره.

Juan esta de paseo خوان يتجول

Pedro esta de paseo بيدرو يتجول

Juan va de paseo ذهب خوان للتجول

Juan està de regresoخوان يرجع

لقد سمحت لنا هذه العمليات التي أجريت في مستوى محوري الاستبدال و التركيب بالتعرف على علاقة الوصف بين خوان و « de passeo » (يتجول) بمعنى أنّ خوان اسم علم مرجعي و أنّ « de passeo » (يتجول) أنه سلوك و أنّ esta تفسر علاقته من الخارج.

يتكون احتمال العرف اللغوي للجمل المتعاقبة من الإجماع التي يتم وضعه عند إجراء كل عملية تواصلية.

ب) على ماذا تقوم الدلالة؟:

تقوم على الطريقة التي يكون فيها [الأنا] إزاء [الأنت] و العالم (الهو) من خلال خطابه.

و لهذا الغرض يمكننا الحكم على خاصية الخطاب بالنظر إلى مختلف [الأنت] لا إلى الأنا في حد ذاته. وعلى إثر ذلك يُنتج [الأنا] خطابه حسب فهمه [للأنت] و [الهو]. فكيف يمكنه إذن أن يفهم [الأنت] والهو] إن لم تكن هناك خطب قد سبق إنتاجها؟

و بمعنى آخر، فنحن لم نقم إلاّ "باستنطاق العالم و الآخرين" و "باستنطاق العالم و الآخرين" يتكوّن لدينا تصور لغوي (1) للكون،بمعنى أننا ننشئ الدلالات وبالتالي فلا يمكننا إنتاج خطاب إلاّ استنادا لما سبقه من الخطب. (قد ينضم إليها أو يخالفها) و أحسن دليل على ذلك ، و قد ظهر هذه المرة في الكلام،هي علاقة دلالة اللزوم اللغوية.فلو قال الأنا Antonio sigue haciendo el tonto أنطونيو يواصل في الغباء. فإنه لا يكتفي بإثبات شيء للعالم و إنما هو يثبته للمستمع أيضا للزومه للمعنى حيث يعلم جيدا أن Antonio hacia el tonto antes أنطونيو كان يتغابى من قبل.

و نعود إلى المثال (10) لنفترض أنّ[الأنا] . هي زوج خوان و أنّ" الأنت" يغازل "الأنا"، فزيادة عن معناه كملفوظ يمكن لهذا الخطاب أن يكتسب دلالة podemos quedar juntos .و نرى أنّ هذه الدلالة لا تظهر إلاّ بالنظر إلى الخطب الضمنية الأخرى التي تبرزها المعطيات الخارجية للملفوظ . وعلى أساسها تُثبت الظروف التواصلية التي تكلمنا عنها في الجزء الأول . فالمحيط المادي لعملية التواصل ليس مسؤولا وحده ،عن إعطاء [الأنا] صفة الخاصية من خلال خطابه ل [الأنت] و العالم ، و إنما تُضاف إليه مجموعة معينة من الخطب تكون قد سبقته. و سنسمي، من اليوم فصاعدا، ظروف التواصل بالإطار التلفظي للخطاب لينقسم من جهته إلى حال التواصل (الظروف المادية لعملية التواصل) و إلى حال الخطاب (العلاقات المختلفة ل [الأنا] [الأنت] ،

[الأنا] [الهو] ، [الأنا] (الملفوظ،) وهي العلاقات التي سنصطلح عليها بالمتصوَرة imaginés.

و بما أننا لا نملك القدرة على تطوير هذا الإطار في مقالنا فإننا ، بالمقابل،نستطيع تقديم خاتمة أولى تتضمن مجموع أفكارنا.

- يُستمد معنى الملفوظ من **الإجماع** و يمكن فهمه خارج الملفوظية و بالتالي لا يستطيع الحصول على القيمة التواصلية . أما إذاُ وضع الملفوظ في إطاره التلفظي فيصبح خطابا ذا قيمة تواصلية تمنحه زيادة عن "معناه الإجماعي" ، "دلالة الخاصية"

لنكتب إذن؛

خطاب [48] ملفوظ + ملفوظية

(الدلالة) (المعنى) (الخاصية)

و هكذا يبرر التمييز المزدوج من الجانب الابستمولوجي : ملفوظ/خطاب، معنى/ دلالة.

و يبقى الجانب المنهجي من اختصاص اللسانيات التي بإمكانها أن تقيّم التمييز المزدوج السابق ذكره .

و كما أعلنا عليه في مقدمتنا فإنّنا سنعطي في مقال لاحق لمحة خاصة عن التحليل المعجمي-الدلالي.

P. Charaudau
Université Paris-Nord

أ.شارودو
جامعة باريس-شمال

المراجع

1) Pottier, BSLP, t. CXIII (1968), Klincksieck,et P.Charaudau,Cours de linguistique, SEDES

2) Osea

3) A.J Greimas , du sens , édition du seuil .paris

48-) نلاحظ أن الخطاب قد يفقد المعنى الذي ألفه من مادية الحروف وخطها الطباعي في عملية التواص- يمكن للخصوصية أن تصبح إصطلاحا.

الخطاب بين رولان بارث وهابرماس.

ا/حياة لصحف-جامعة تلمسان

الخطاب (Discours)[49]: إنه مصطلح معرفي، ثمة رابط بين أصله اللغوي ومعناه الاصطلاحي. لأن لفظة (خَطَبَ) من الجذر [خ ط ب] وخطب الناس وفيهم وعليهم، أي ألقى خطبة، وخاطبه مخاطبا وخطابا: كالمه وحادثه، أي وجّه إليه كلاما، وقد قيل قديما: خاطبه في الأمر، حدّثه بشأنه[50].

والخطاب: الكلام، وترددت هذه المفردة في القرآن الكريم نحو: **﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾** (سورة ص: 20)، و **﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾** (سورة ص: 23).**﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾** (سورة الحجر: 57).

والتخاطب: الأمر الشديد الذي يكثر فيه الحديث، والخطيب: هو المتحدث عن قومه، ويُراد من المصدر المشتق (خَطْبَ) بسكون الطاء: الشأن والغرض. وهذا المعنى تردد في القرآن الكريم خمس مرات في خمس سور نحو ما جاء في**﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾** (سورة يوسف: 51) و **﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾** (سورة القصص: 23).

ومن الأفعال: خَطَبَ وخَاطَبَ، المقصود منها كلام حامل الشأن وذاك الغرض، فورد في القرآن "خَاطَبَ" مرتين قُصد به مجرد الكلام، قال تعالى: **﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾** (سورة هود: 37)، وفي سورة الفرقان بالمعنى نفسه، أما في سورة (ص) فجاءت بإضافة شيء جديد وهو النفوذ والسلطة. قال تعالى:**﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾** (سورة ص: 20).

---

[49] – يُنظر: عيسى عودة برهومة، "تمثلات اللغة في الخطاب السياسي"، مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 36 يوليو- سبتمبر 2007، ص: 118.

[50] – لسان العرب، والمعجم الوسيط، خطب.

فإن معنى الخطاب هو إنجاز الشأن أو الغرض وإن له لقدرة تربوية، وتأثيرا في السامعين، لذلك يقترن دائما بالسلطة[51]. والآية : ﴿ **فَصْلَ الْخِطَابِ**﴾ تعني أنه قادر على التعبير عن كل ما يخطر في البال ويحضر في الخيال، بحيث لا يختلط شيء بشيء، وينفصل كل مقام عن مقام[52]. وتحت عنوان **"لكل مقام مقال" كتب السكاكي**: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة ... وجميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر".

الأصل الغربي للخطاب:

في الأصل الأجنبي كلمة (Discours) وأصلها اللاتيني هو (Discursus) وفعلها (Discurure) وتعني الجري هنا وهنالك. وتعبر عن الجدل (Dialectique) و"العقل" أو "النظام" (Logos) كما نألف عند أفلاطون[53].

أول من طرح مسألة الخطاب في الدراسات اللسانية هو **بيسونس (Buyssens)** عام 1943، في حين لم يشر الأوائل من اللسانيين المحدثين أمثال: دي سوسور، جاكوبسون، هلميسليف إلى مفهوم الخطاب.

ف **"بول ريكور Paul Ricoeur**" استخدم مفهوم الخطاب عوضا عن الكلام واستبدال ثنائية "دي سوسور" اللسان/ الكلام بثنائية اللسان/ الخطاب. وقد وضع بدلا من الكلام، ليس ليؤكد خصوصية الخطاب فقط بل ليفرق بين علم الدلالة والسيمياء، لأن السيمياء في نظره تدرس العلاقة بين علم الدلالة يدرس الخطاب أو الجملة[54].

[51] – يُنظر: الزواوي بغوره، "مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو".

[52] – عبد الهادي الشهري، "استراتيجيات الخطاب"، ص: 35.

[53] – يُرجع إلى: الزواوي بغوره، "مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو"، ص: 90.

[54] – بول ريكور، "نظرية التأويل"، ترجمة: سعيد الغانمي، ص: 11.

ويذكر **مانكونو (Maingueneau)** "أنه ينبغي ونحن نتحدث عن الخطاب أن نقطع الكلام في سياق تلفظ مفرد، وأن نتحدث عن نص ونؤكد ما يصنع الخطاب وجدته، فالنص في الحقيقة كلٌّ وليس مجرد متتالية من الجمل"[55].

وبهذا يكون الخطاب نصا مفتوحا من جهة وضعيات التواصل أو على سياق التعامل بالقول، ومن جهة أن يجعل النص مندرجا في نسق أكبر منه وهو الجنس، فالنصوص مختلفة ترتبط بالخطاب ارتباطها بالجنس [ارتباط النوع بالجنس]؛ لذا يمكن عدّ الخطاب جنسا من أجناس يحوي بدوره جزيئيات فرعية، وهذه الأجناس الفرعية تتشكل في صورة نصوص، وكل جنس فرعي من الأجناس الخطابية له بنيته الخطابية الخاصة، كما يرى ذلك "**هاليداي Hallidy**" أي أن لكل نص بنيتين: بنية ذاتية هي التي فيه، وبنية يشترك فيها مع غيره هي بنية الخطاب كما يلي:

بنية لسانية صغرى	بنية لسانية كبرى
Micro Linguistique	Macro Linguistique
↓	↓
بنية نصية	بنية خطابية
↓	↓
نسيج Texture	دلالة

وهذا البناء ينتج نسيج المادة الخطابية، لأنه مادة شاملة لجميع المواد –كما سلف الذكر– عبارة عن أجناس متكاملة تتداخل بها نصوص ومواد وأصوات وحركات وإيماءات وإيحاءات داخل الخطاب كما في أعمال **بارث (R.Barthes)** وهو المعني بالأمر في هذا التحليل أكثر من غيره وأعمال **"جينيت" (G.Genette)** من هذه الظاهرة التداخلية فسميت بـ "Intertexte" وبغيرها.

رولان بارث يقول عن هذا: "كل نص إنما هو تداخل بين النصوص (Intertexte) ففيه تحضر نصوص أخرى في مستويات متنوعة وتحت أشكال قابلة نسبيا لأن تتذكر، نصوص الثقافة السابقة ونصوص الثقافة المحيطة، فكل نص هو نسيج جديد من الشواهد المتطورة"[56].

[55] – توفيق قريرة، "التعامل بين بنية الخطاب وبنية النص"، مجلة عالم الفكر، ص: 183.

[56] – توفيق قريرة، "التعامل بين بنية الخطاب وبنية النص"، مجلة عالم الفكر، ص: 183.

وبهذا برزت ظاهرة التناص، النابعة من تداخل المعاني وتشابه الأغراض والأساليب المعبرة عنها وعن معانيها.

وعند **مكدونيل**: كل شيء يدل أو يحتوي على معنى يمكن أن يُعدّ جزءا من الخطاب[57].

أما **ساره ميلز (Sara Mills)** فقد أشارت في كتابها **(Discourse)** "**الخطاب**" إلى تعدد الخطابات بتعدد النصوص المكونة لها، خصوصا إذا ما أدركنا أن الخطاب هو التصور المجرد العام بينما النص هو المتحقق الفعلي له، وتعترف "**ميلز**" بصعوبة العثور على معنى بسيط وواضح للخطاب[58]. فأي نسق من الجمل لا بد أن يترابط لكي يصنع خطابا[59].

ويذكر **بنفينست (Benveniste)**: "أن كل قول يفترض متكلما ومستمعا، ويكون لدى المتكلم مقصد التأثير في الآخر على نحو ما"[60]، ويقرر أن "الخطاب يقابل اللغة، والجملة إبداع غير محدد لتنوع لا حد له، وهي الحياة الواقعية لكلام الناس في التحاور"[61].

فالخطاب هو الصيغة المختارة لتوصيل الأفكار إلى الآخرين، والصيغة التي نتلقى بها أفكارهم، فينبثق من المفهوم الضيق إلى الرحب، ليدل على ما يصدر عن المرسل من كلام أو إشارة أو إبداع فني[62].

وقد فسّره "**هندس**" و"**هيرست**" على أنه أفكار وُضعت في نظم محددة من التعاقب، منتجة لآثار محددة (طرح القضايا، نقدها، حلها) وهي بمنزلة نتيجة لذلك النظام[63].

ويعتقد "**عز الدين إسماعيل**" أن ما عرّفه "**هندس**" و"**هيرست**" إنما هو عبارة عن سياق من المعاني ويقتصر على الخطاب إجمالا ويشرحانه بأنه الكلام والكتابة.

---

[57] – يُنظر: ديان مكدونيل، "مقدمة في نظريات الخطاب"، ترجمة: عز الدين إسماعيل، ص: 133.

[58]- Sara Mills, "*Discourse*", pp: 22 -26.

[59] – ميشيل فوكو، "نظام الخطاب"، ص: 30.

[60] – المرجع نفسه، ص: 37.

[61] – يُنظر: الزواوي بغوره، "مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو".

[62] – يُنظر: سمير شريف استيتية، "اللغة وسيكولوجية الخطاب"، ص: 15.

[63] – يُنظر: ديان مكدونيل، "مقدمة في نظريات الخطاب"، ترجمة: عز الدين إسماعيل، ص: 133.

وأما **ميشيل فوكو** الذي يعتبره نشاطا إنسانيا بالغ الأهمية ولا يستطيع الفرد الاستغناء عنه، فقد عبّر عنه بقوله: "هو مصطلح لساني، يتميز عن النص والكلام والكتابة وغيرها، ويشمل لكل إنتاج ذهني، سواء كان نثرا أو شعرا، منطوقا أو مكتوبا فرديا أو جماعيا، ذاتيا أو مؤسسيا. وللخطاب منطق داخلي وارتباطات مؤسسية، فهو ليس ناتجا بالضرورة عن ذات فردية يعبر عنها أو يحمل معناها أو يميل إليها، بل قد يكون خطاب مؤسسة أو فترة زمنية أو فرع معرفي ما"[64].

والخطاب أيضا عملية عقلية منظمة متسقة منطقيا، أو عملية مركبة من سلسة العمليات العقلية الجزئية أو تعبير عن الفكر بوساطة سلسة من الألفاظ والقضايا التي يرتبط بعضها ببعض[65].

ويُعدُّ "**ميشيل فوكو**" المفكر الفرنسي أول من انشأ نظرية في وصف المقال في ميدان مستقل، فإنتاج الخطاب هو بدافع: 1- تحقيق الذات والنفس.

2- التحاور.

3- اكتشاف المجهول.

ويتردد لفظ الخطاب بالاقتران بوصف آخر: كالخطاب الديني، الفلسفي، السياسي، الثقافي، العلمي، الصوفي، الأدبي... والنقدي.

عناصر الخطاب:

1- المُرسِل: [المُخاطِب] الذات المحورية في إنتاج الخطاب.

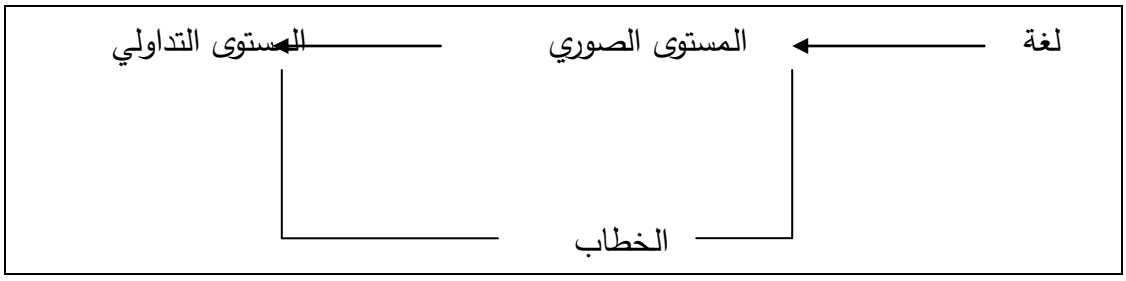

2- الرسالة: النص الكلامي أو الشفوي أو الإيحائي أو أي شكل كان.

[64] - ميشيل فوكو، "نظام الخطاب"، ص: 09.

[65] - ميشيل فوكو، "نظام الخطاب"، ص: 09.

3- المستقبِل/ المُرسَل إليه [المُخاطَب] الطرف الموجه إليه الخطاب ومتلق الشفرة ومفكك رموزها.

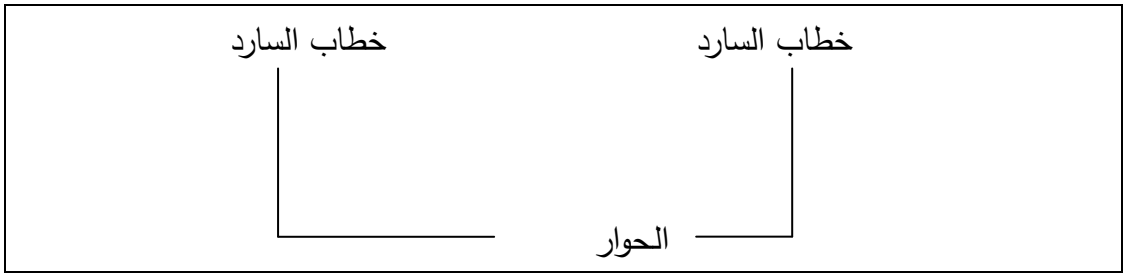

علاقة الخطاب باللغة والمعنى:

أ- اللغة سلوك اجتماعي[66].
- اللغة تواصل بشري[67].
- اللغة شكل وليست مادة[68].
- اللغة من دون كلام تصبح ميتة، والكلام من دون لغة لا إنساني[69].

ب- الخطاب عنصر محايد وشفاف، وهو بحد ذاته موضوع الرغبة وهو ما نصارع من أجله وبه، وهو السلطة التي نريد الاستيلاء عليها[70]. ونلاحظ انه ليس كل مناطق الخطاب مفتوحة على مصراعيها بالدرجة نفسها، فمنها ما هو ممنوع علانية كـ "الرغبة/ الجنس/ السلطة/ السياسة" والبعض الآخر يبقى مفتوحا تقريبا من دون إغفال أن الخطاب الحقيقي يتعلق بأمرين هما: الرغبة والسلطة.

أعتقد أن هذا المبحث هو شبه مغامرة أردت الخوض في غمارها، فما الذي سيضيفه قلم صحافية وباحثة أكاديمية مبتدئة على تراكم الموضوعات والمعالجات النقدية العويصة عن الخطاب الغربي؟ ما الذي ستقوله والخطاب الغربي بحر ممتد بلا ساحل وبلال نهاية وجزيرتها

66 - يرجع إلى: خليل حماش، "اللغة والحضارة"، ص: 38.
67 - حميد لحمداني، "القراءة وتوليد الدلالة".
68 - دي سوسور.
69 - صلاح فضل، "بلاغة الخطاب وعلم النص"، صك 21.
70 - ميشيل فوكو، "نظام الخطاب"، ص: 10.

منه مختصة بالخطاب النقدي ما بعد البنيوي؟ أسئلة ربما لا يجوز أن تطرحها صحافية ناقدة تودُّ أن تُحلّل الخطاب عند عملاقين غربيين أدبا وفلسفة ولغة ونقدا... بخطابها الخاص غير أنها اكتشفت وللتّو أننا لا زلنا أطفالا في المعرفة طبعا ولازلنا نحبُو للّحاق بهذه النماذج الغربية الفذة. ولا يعني هذا أنه لا صوت لنا ولا حوار ولا رأي ولا خطاب على العكس نملك من النماذج الإبداعية والعبقرية الكثير غير أنها تنطق بصوت مكتوم في صمت ولا مُكبِّر لأصواتها.

ولْتَكُن البداية مع "**يورغن هابرماس Habermas**"[71] العلامة الغارق في الحياة الفلسفية واللغوية الألمانية المعاصرة – كما قيل عنه – وربما لأنه الصوت المميز بفعالية والمؤثر بشدة على الحياة الثقافية الألمانية منذ أكثر من خمسين عاما فقد عُدّ رائدا للخطاب النقدي – وهو المهم لدينا– ثم في الخطاب الفلسفي[72] – سنتجاوزه – .

لقّبه وزير الخارجية الألماني **يوشكا فيشر** ولقبه بـ "**فيلسوف الجمهورية الألمانية الجديدة**" فهو ذو نزعة نقدية وليدة الطفولة والظروف السياسية آنذاك تأثير فضيع على تنشئته الاجتماعية، دفعته إلى وصف نفسه بأنه: "**نتاج إعادة التربية**" وقد تعلقت نظرته النقدية "بالدفاع العقلاني عن قيم وانجازات عصر التنوير وتحرير الذات الآدمية من العصبية القومية والتطرف والتعصب"[73].

وبما أنه احد أقطاب "**حركة الإصلاح الألماني النقدية" [1950 – 1973]** فإنه من المساهمين في تأسيس علم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس في الجامعات الألمانية من أجل حرية الذات الألمانية. ولربما أشد تأثيره أوجه من خلال أطروحته "الخطاب النقدي الخالي من الهيمنة"، وإن كانت فلسفية في معظمها إلا أنه يمكن استنباط منها نوع الخطاب الهابرماسي فهو فعل تواصلي حر بالدرجة الأولى قائم على سلطة العقل المتحررة بناء على قوله: "الفعل التواصلي يمثل في الوضع المثالي خطابا ناجحا حتى في حالة انعدام أي ممارسة لا تستند إلى أي إجماع"[74].

---

[71] – كارل أوتو آبل، "التفكير مع هابرماز ضد هابرماز"، ترجمة وتقديم: عمر معيبل، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ومنشورا الاختلاف، الجزائر، والمركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، ط1، 2005، ص:

[72] – لؤي المدهون، "هابرماس:أولية النقد في الدفاع عن قيم التنوير"، مجلة الحافة، 14-04-2007.

[73] – المرجع نفسه، بتصرف.

[74] –

وأعتقد أن **أولى** سمات خطاب"**هابرماس**" هي الدعوة إلى الحوار البناء التوافقي والمثمر وإيقاف آليات إنتاج الأفكار النمطية المهيمنة والمستبدة، فخطابه ديموقراطي ولغته ديموقراطية كيف ولا أساس النقد أن توجه إليك أصابع الإعجاب والاتهام كما توجهها أنت الآخر. وهذا ما أشار إليه في تصريحه: "لا يمكن الوصول إلى انفتاح للذهنيات إلاَّ عبر تحرير العلاقات والتعاطي الموضوعي مع الإشكاليات المقلقة"[75]. فإذن الثقة من شروط التواصل والنظر إلى الذات في مرآتها المنعكسة من الأولويات الخطابية النقدية البناءة والضرورية.

وتُعدّ كلا من نظرية الفاعلية التواصلية والأخلاق والتواصل كتبا للتأسيس للنظرية الهابرماسية، وهابرماس يتجنب استعمال العقل باعتباره جوهرا موضوعيا أو ذاتيا وإنما ينظر إليه بوصفه محمولا وبالتالي فإن ما يشغله نظريا ليس العقل في ذاته، بل ما هو عقلي أي أنه يختار الحديث عن العقلنة بدل العقل، وتتجسد عنده في الأشخاص والتعبيرات الرمزية، كأني بها مسألة إجرائية أو مسطرة (Procédure) ما معناه أن الأشخاص القادرين على الكلام والفعل، من خلال تعبيراتهم المطوقة داخل سياق تواصلي يستطيعون تبرير ونقد القضايا أو أفعال الكلام المتلفظة أو الملفوظة، وبالعكس فإن كل قضية أو فعل للكلام يرفض تقديم حججه ويقاوم النقد فإنه يطرد نفسه مما هو عقلي[76]. **ومن أهم ميزات خطاب هابرماس ما يلي:**

- يركز على اعتبار إعادة البناء (Reconstruction) في قراءته وتأويليه للتراث الفلسفي والسياسي والاجتماعي.
- نظرية الفاعلية التواصلية، نظرية ممكنة في كل السياقات والمجتمعات وإن انتمت إلى ما يطلق عليه "المجتمعات الصناعية الحديثة"، ولا يعني أبدا أن تحقيقها مقرون باكتمال تطبيقها داخل عالم معيش معقلن.
- تركز نظرية الفعل التواصلي على اللغة، المنطق، الخطاب وتحمل في طياتها فلسفة اللغة.
- مفهوم العقلانية التواصلية، ينطلق ويرجع إلى التجربة المركزية لقوة الخطاب البرهاني القادر على خلق اتفاق وإجماع بدون ضغوط.

[75] – عمر مهيبل، "إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة"، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005.

[76] – كارل أوتو آبل، "التفكير مع هابرماز ضد هابرماز"، ترجمة وتقديم: عمر معيبل.

وانطلاقا مما سبق فإن إشكالية التواصل في منظومة هابرماس الخطابية، تتبلور من خلال مفاتيح نظرية متعددة تعد بمثابة استكشاف للبنية الفكرية، وهي تعاني إرهاصات تشكلها الأولي. وهو ما يسميه "التكامل الجدلي" وهو يهدف من ورائه إلى إظهار الأدوار المتبادلة بين "النحن" و"الآخر"[77].

خطاب هابرماس التواصلي هو علاقة حوارية حرة بين فئات المجتمع المحددة (...) تجعل التقدم التقني والمعرفة في خدمة الإنسان[78]. ونقده للعقلانية المعاصرة يبرره بأن العقل ليس جوهرا موضوعيا أو ذاتيا، ولكنه فاعلية قائمة بذاتها، وهذا ما أعطى مفهوم التواصل عنده كل أهميته المعرفية والمنهجية.

ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال تجاوز الحقيقة التي مفادها أن **الناقد الفرنسي (R. Barthes)**[79] يأتي في طليعة التفكيكيين وإن عرفت آراؤه تقلبا واضحا على ضفاف مناهج عدة، وأفضل ما يمثل مرحلته التفكيكية مقاله عن "**موت المؤلف**" عام **1968**، وقد توجه في كتابه "**الكتابة في الدرجة الصفر**" **سنة 1953**، ونحو فك أغلال الكلمة لتنطلق حرة حتى تصل إلى درجة اللامعنى، وتناول غفي كتابه **(s/z)** الصادر عام **1970** (وهو عبارة عن دراسة لرواية قصيرة غير مشهورة وقد قسمها إلى 561 وحدة قرائية) وضمنها كتابه الذي بلغ 200 صفحة ونيف، وكان هذا الكتاب هو العمل الذي اشتهر به خارج فرنسا[80]، وتحدث في كتابه "لذة النص **1973** عن النص باعتباره تفكيكا للأسماء وفيه فرق بين "المتعة واللذة"[81].

كما اهتم جدا بجمالية القراءة وما تثيره من رغبة واشتهاء، فالنص دافع للافتتان والتلذذ والانجذاب لسحره، ونقد بارث هو خطاب موازٍ للنص، أماتَ المؤلف وأحيَا القارئ فلا وجود لحدود الدلالات النصية ولا لحدود القراءات والتأويلات في أفق القراءة البارثية التي تولد علاقة تصوفية "إيروسية"[82].

---

[77] – عمر مهيبل، "إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة"، ص: 376.

[78] - Voir: Jürgen HABERMAS, La modernité projet inachevé, Critique, N°413, pp 980 – 985.

[79] – بشير تاوريريت، "رواج التفكيكية في التجربة النقدية المعاصرة"، عرض ونقد.

[80] – يُنظر: جون ستروك، "البنيوية وما بعدها: من ليفي شتراوس إلى ديريدا"، ترجمة: مُحَمَّد عصفور، المجلس الوطني الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 1996، ص: 103.

[81] – المرجع نفسه، ص: 100.

[82] – مُحَمَّد خرماش، "فعل القراءة وإشكالية التلقي"، مجلة علامات، العدد 10، 1998، بتصرف.

خطاب الهسهسة:

الدراسة التطبيقية: تطبيق الخطابات

1- شكل يوضح آلية الاتصال والتواصل والتحليل:

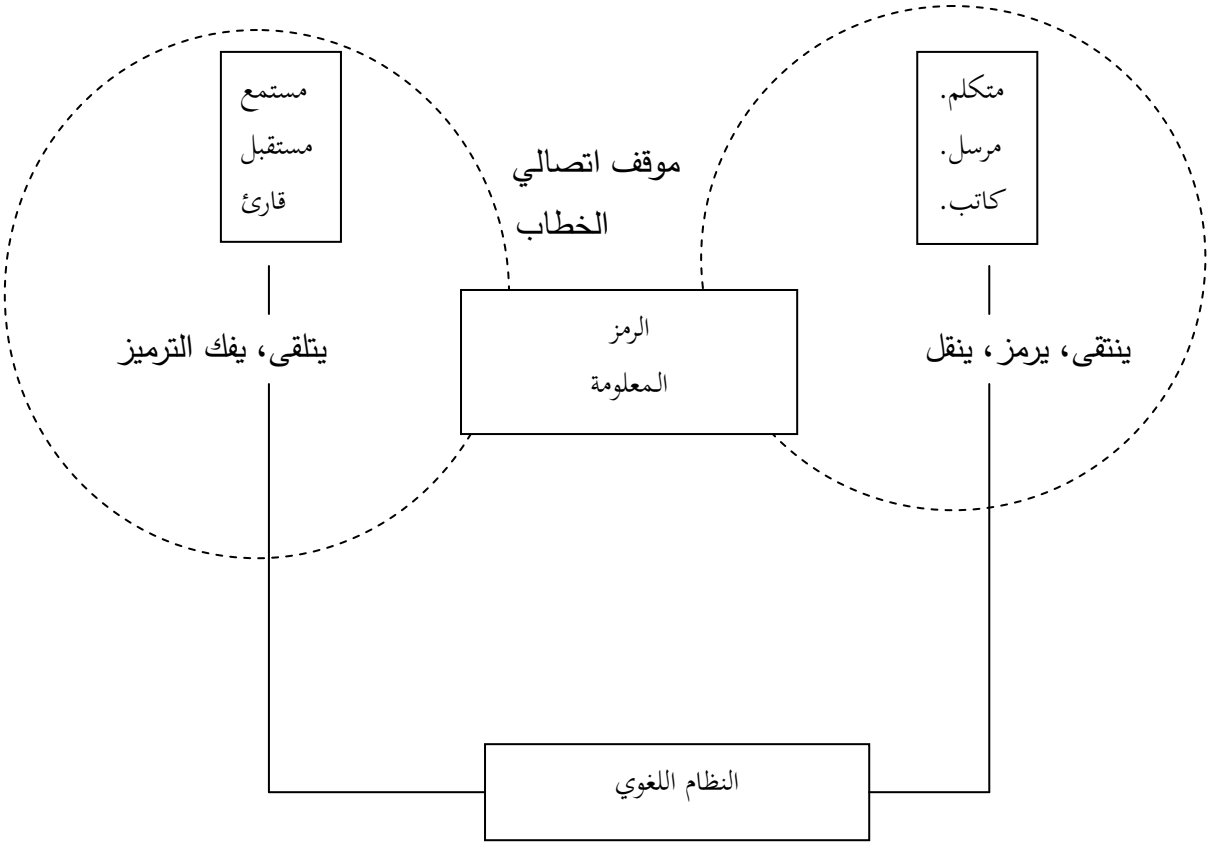

2- مفهوم النقد عند رولان بارث[83]:

خصص "بارث" لتحديد مفهومه للنقد مقالا نشر عام 1963 في " Times litterary supplement" بعنوان "ما النقد؟" وهو المقال الذي أعاد نشره ضمن كتابه "مقالات نقدية Essais critique" الصادر سنة 1964، إلى جانب كتابه "نقد وحقيقة Critique et vérité" الصادر سنة 1964. وقد حدد النقد بقوله: "النقد هو حطاب حول خطاب، لغة ثانية أو لغة

[83] - يُنظر: حليمة الشيخ، "مفهوم النقد الأدبي عند رولان بارث"، الموقف الأدبي.

واصـفة (Métalangage)* كمـا يعرفهـا المناطقـة يتنـاول اللغـة الأولـى أو اللغـة– الموضـوع "Langage objet"[84].

وتجدر الإشارة إلى أن بارث، وهو يعيد التفكير في النقد، قام بمراجعة للنقد القديم ومفهوم النقد نفسه وكذا قواعد كتابته، كما حصر القواعد التي تحدد عمل الناقد والبارزة في المخطط الآتي في ثلاث نقاط: 1– الموضوعية.

2– الذوق.

3– الوضوح.

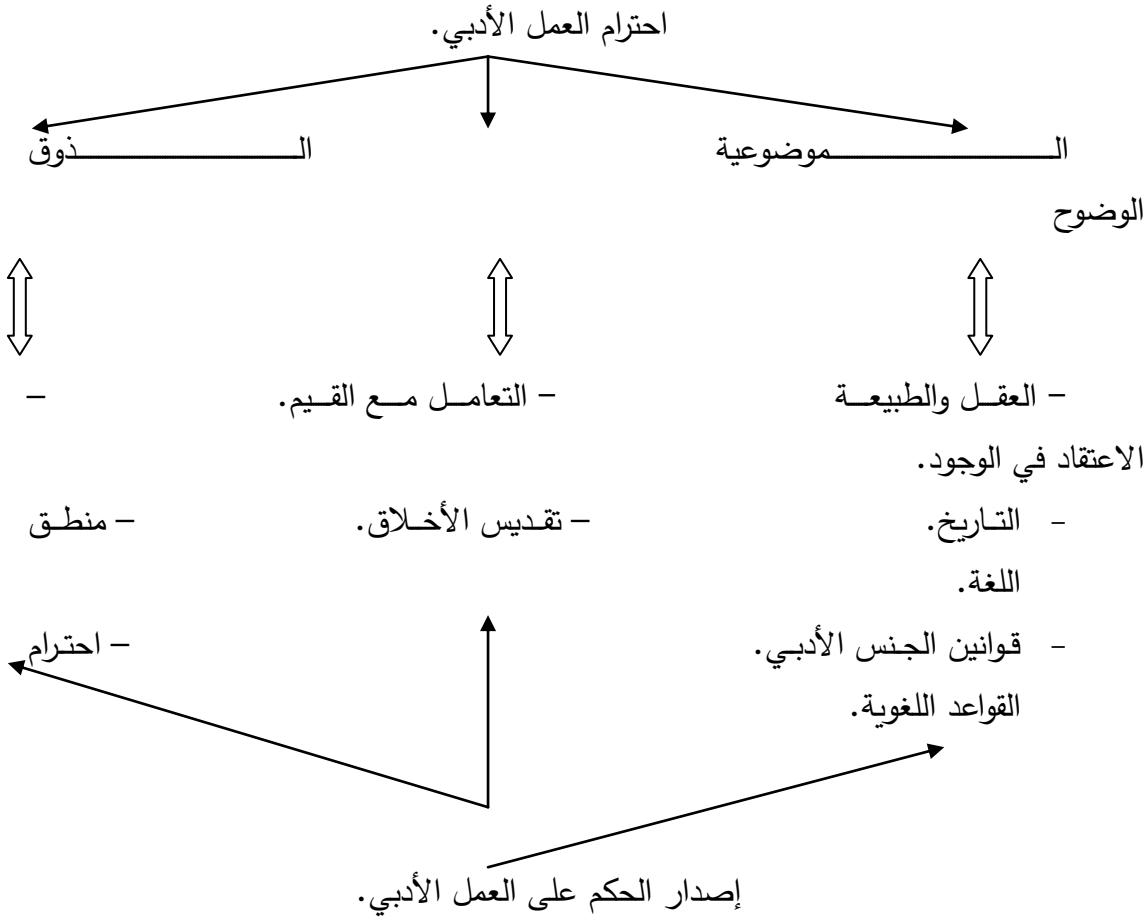

ويرى بارث أن الموضوعية والذوق والوضوح، هي أقانيم ثلاثة مقدسة يتعلق بأهدافها الناقد الكلاسيكي، ويتناول على أساسها العمل الأدبي، كما يعد النقد عملية صعبة، تقوم في جوهرها على حل الشفرة الموجودة داخل النص.

* – هناك من يترجمها لغة اللغة.

[84] - Roland Barthes, *Essais Critiques*, coll, "tel quel", Seuil, Paris, 1964, p: 225.

3- أنواع الخطابات عند بارث:

1- اللذة والاشتهاء.

2- هسهسة اللغة.

3- خطاب العشق.

أدب وتراث

لا حياة هنا

مقتبسة من مجموعة قصصية

للروائية الإفريقية آما آتا عيدو، ترجمة: عمارة زينب

كـان جمـيلا، إلا أن هـذا لـيس مهمـا.لا يلعـب الجمـال دورا حيويـا فـي حيـاة الرجـل كمـا هـي الحـال عنـد المـرأة ، هـذا مـا يعتقـده النـاس. إذا كـان جمـال الرجـل ممزوجـا بفضاضـة

، فإن الناس سيتجاهلون ذلك الجمال.فقط فتاة مثلي، قليلة التواضع يمكن أن تتجرأ وتقدم تعليقا على جمال فتى."(كويزي) فتى وسيم جدا"، كنت أقول هذا دائما لأمه " إذا غادرت هذا المكان يوما ما وانتقلت فإني سأخطفه"، كنت أحب أن أمازح تلك المرأة الطيبة كما كانت هي أيضا تحب أن أمازحها به. تبدو وكأنها خجولة، سعيدة وعلى وشك البكاء، كل هذا في لحظة واحدة.

" إيه (شيشا)لا يجدر بك أن تقولي هذا. الفتى ليس وسيما حقا".لكنها تعرف أنها تكذب " على كل (شيشا) من يهتم إذا كان الفتى وسيما أم لا؟" مرة أخرى هي تعرف أنه على الأقل هي تهتم لذلك، على كل، ألا تسلط هذه الشخصية المحببة لهذا الفتى الضوء على حيوية أمه على الرغم من أن وجهها شاحب؟ تصرح بعدها بخوفها باهتمام فائق وبطريقة واضحة " أرجوك (شيشا) أعرف أنك تحبين مداعبتي، لكن عديني من فضلك ألا تأخذي (كويزي) بعيدا عني" بعدها وفي الآن ذاته حركت فمها الصغير وتحت ملابسها خبأت عينيها كأنها خجلة من حبها وخوفها الكبيرين على ابنها. لكنني فهمت."أه (مامي) لا تبكي، تعرفين أنني لا أقصد ذلك".

رفعت عينيها الجميلتين وهما تشعان بالدموع "أنا آسفة (شيشا)، أنا أثق بك . لكنني لا أستطيع جمح خوفي، ماذا يمكنني فعله(شيشا)؟ ماذا يمكنني فعله إذا ما حدث شيء لابني؟"

" لاشيء سيحدث له، أنا أؤكد لك ذلك.إنه فتى جيد، إنه لا يفتعل المشاكل لذلك فهو لا يعطي لأي أحد فرصة التغلب عليه.إنه ليس مضجرا، أو على الأقل ليس مضجرا جدا. ما يعني أنه لن يتعرض للعقاب كبقية أقرانه".

تعلق (مامي) دون تفكير: " (شيشا) أنا لن أعترض على معاقبته إذا كانت نتائجه ضعيفة".

" لا تكوني مضحكة، قليل من الماء الساخن في صباح بارد لن يضره.لكن إذا وافقت فلن أعترض على ضرب بشرتك الملساء".في هذه اللحظة خفض الضغط وبدأت كلتانا بالضحك.بعدها كان علي أن أغادر وفي ذاكرتي صورة فمها الصغير ودموعها المتلألئة.

(مامي أما) تحب ابنها، هذا غباء، بل إنه الغباء بحد ذاته.(مامي أما) امرأة أي أم لا تحب ولدها . في خضم هذه القصة كان عمره عشر سنوات فقط، كان في الصف الابتدائي.بشرته كانت رقيقة وطرية طراوة الزبدة، وداكنة كالفحم، شعره الأسود كان ناعما

كشعر أمه، عيناه كانتا من النوع الذي يذكر دائما بحلم طويل في عشية دافئة.إنه لمن الغريب أن أهتم إلى هذا الحد بالمظهر الجسدي لهذا الفتى، إلا أن جمال (كويزي) كان غريبا.

لم يحن المساء بعد، كانت ساعتي تشير إلى 4:15 ذاك الوقت الغامض من اليوم، الذي يصعب على هؤلاء الناس تحديده على الرغم من معرفتهم القديمة بعلم الفلك. بالنسبة للصغار والكبار كان من المؤكد أنه المساء، أما بالنسبة للماكثين في البيت طوال النهار فإنهم يقنعون أنفسهم بأن اليوم قد انتهى، مستاءون من شركائهم الهائمين في الأسواق أو المتكئين على حيطانها، في حين يبدأ الأطفال بإزعاج أمهاتهم لأنهم تعبوا من اللعب. إنهم جياع، عائدون إلى البيت ليلتهموا ما تبقى من طعام الغداء، لكنهم يأملون أن تعود أمهاتهم بما يسد رمقهم من المزرعة لاحقا. الكبار منهم لا يعودون إلى البيت لتناول الغداء لكنهم يتناولون بعض الطعام الطازج عند العاشرة.

قال العجوز (كوفي): " قلت،(كوام)، كما قلت لك في الصباح، زوجتي الأولى كانت من أجمل النساء".

" أه !أجل، أجل، كانت فتاة غير عادية، أتذكرها جيدا." هز العجوز (كوام) رأسه، لكنه في الواقع كان متعبا فغلبه النعاس." إن الوقت متأخر، هل عاد الشباب من المزرعة؟ ".

كنت معلمة، وكنت أنهج نهج الرجل الأبيض. المدرسة كانت مغلقة.خيمة (مامي أما) كانت في إحدى نهايات القرية والمدرسة كانت في الجهة الأخرى.على الرغم من ذلك فالمسافة بين المدرسة وخيمتها غير بعيدة لأن (باماسو) ليست قرية كبيرة. تركت كتبي ل(أسون) ليأخذها لي إلى البيت.أخذت معي ساعة يدي الصغيرة وبدأت أسير في طريق خالية. مررت على شيوخ كانوا قد ألقوا التحية علي.كانت تحية خاصة بقريتهم.

(كودومينو شيشا) كان ينبغي أن أجيب (كودومين، نانا) عندما ألقيت التحية لأول مرة كان الرد" تانشيو" .

" شيشا، كيف حالك؟"

" أنا بخير، نانا "

" وكيف حال الأولاد"

" إنهم بخير، نانا "

" أه، هذا جيد.عندما يشعر رجل عجوز برغبة في الثرثرة، لاسيما إذا كان ما في جعبته يفوق ما عندي ليقدمه للجمهور، عليه أن يجاملني فيما أقوم به، بعدها عليه أن يحث على قيمة التربية، بخاصة التربية النسائية ويختمها بعبارة د.(أقراي). "

تأخرت ذلك المساء أيضا، إلا أن التوقيت كان مناسبا، فعند وصولي إلى خيمة (مامي أما) كانت هي قد وصلت للتو من المزرعة. كان الباب مفتوحا، يقابل القرية، كنت أستطيع رؤيتها.أوه، تلك الصورة بقيت حية في ذهني، كانت جالسة على مقعد صغير مع أشيائها، وكانت باقي النسوة يحملن من المزارع إلى بيوتهن، حمولة ملونة ومتنوعة. عند أصغر جزء من الغابة الواسعة كانت أزهار "cassava" وجذور شجرة "yam" الغنية والملساء ذات اللون البني كلون التربة. في الجهة المجاورة ينتشر (plantain) ذو اللون الأخضر كلون الخشب الذي تفرع عنه. بعدها توجد الخضراوات، الفلفل الأحمر، الطماطم الحمراء، حديقة للدجاج. إلى هذه الألوان المتنوعة انتصبت عيون النسوة، في حين تقطف الأيدي الصغيرة الفلفل برفق. طرقت الباب، تفقدت الأمر وابتسمت. ابتسامتها كانت ناصعة البياض إلى حد الدهشة.

" أه شيشا، لقد وصلت للتو"

" أنا أرى ذلك. أيكو"

" كيف حالك، بنيتي؟"

" بخير أمي، وأنت"

" تانشيو،اجلسي، هناك مقعد في تلك الزاوية، اجلسي.اه...الحياة معركة. ماذا يمكن أن نفعل؟ إننا نحاول فقط، يا ابنتي"

" لماذا قضيت وقتا طويلا في المزرعة هذا اليوم؟"

" بعد صرف هذا الأمر سأخبرك عن الأسبوع الماضي، فكرت في الذهاب لجلب (yam) واحد أو اثنين."

صحت، آه!

" تعرفين، غدا إنه (آهوبا). حتى وإن لم يكن المرء سعيدا لكن يجب أن يحضر بعض ال(yam) لأجل (آهور) العظيم."

"أجل.أفهم ذلك. المنقذ الكبير يستحقه ، على كل حال لا يوجد دائما رجل يضحي بنفسه للآلهة من أجل إنقاذ شعبه من العقاب."

" لا شيشا، كنا جد محضوضين"

" لكن (مامي آما) لم تبدين حزينة؟ إن (yam) كبير جدا . نظرت إلي باسمة " انظري إلى ال(yam) ليس لديه فرع في تلك الزاوية."

" تعتقدين ذلك؟حسنا! إنها الأفضل بين الكثير". " ابنتي عندما تهزمنا الحياة فإنها تهزمنا بقوة. مثل هذه ال(yam) يعكس ثمن مثل هذه الحياة. وحياتي أنا بائسة بما فيه الكفاية."

"أوه، (مامي) لماذا تتحدثين دائما بهذه الطريقة؟ أنظري إلى (كويزي) أي أم ستفخر بابن مثله ؟ على الرغم من أنه طفلك الوحيد،انظري إلى الذين لم يرزقوا حتى بواحد. ربما بعض النسوة الآن جالسات في إحدى الزوايا يحسدنك"

ابتسمت قائلة" أية امرأة بائسة يمكن أن تحسد (آما)! لكن شكرا لك، يجب أن أكون ممتنة ل(كويزي)".

بعد ذلك صمتنا لوقت. لطالما أحببت أن أراقب حركاتها البطيئة وهي منهمكة في العمل. بعد انتهائها من ترتيب البيت، نظفت الأواني وبدأت بإشعال النار لإعداد وجبة العشاء وهي ترتل أنشودة دينية.

" إننا نصارع"

" إننا نصارع"

" إننا نصارع"

" إننا نصارع من أجل(كنان) مملكة الفردوس الرفيعة".

كنت أنظر إليها وفي نفسي رغبة بالبكاء، إنها تشبه كثيرا أمي.أثناء ذلك طفقت النارتدخن. دارت نحوي وقالت" شيشا "!

"(مامي آما)"

" تعلمين أنني غدا سأطلق من زوجي"

"آوه". لم أستطع إخفاء خيبة الأمل في صوتي.

لقد سمعت لاحقا بعد وصولي إلى القرية، أن والدي ذلك الفتى الجميل على وشك الطلاق. كنت آمل أن يصلا إلى اتفاق يضع في الحسبان مصلحة ذلك الفتى. و بعد أن تعرفت إلى أمه رغبت في ذلك لمصلحتها هي أيضا، لكن مع مضي الوقت تحققت أن ذلك أمر بعيد المنال أو لم يكن وردا حتى. (كوجوفي) كان رجلا أنانيا وجائرا لدرجة أن أي امرأة عاقلة لن تقبل الارتباط به. إنه يعامل زوجتيه الأخريين جيدا، لكنهن كنا ثلاثا. على كل، كنت جد متأسفة لسماعي أن (مامي آما) ستضع حدا لزواجها.

" نعم أنا كذلك. أنا مضطرة.لأجل ماذا سأتحمل كل هذا؟ ماذا يقاوم الإنسان بعد؟ سبع سنوات، فترة طويلة لتتحمل سوء المعاملة من رجل متزوج، وتتقبل الإهانة والشتائم من قبل زوجاته. ماذا فعلت لاستحق الشتائم من أخواته؟ ومن أمه؟".

"هل كانت تشتمك هي أيضا !".

" ولم لا ؟ ألا تعتقدين أنه بإمكانها ذلك؟ إنها تظن أنني لا اشتري لها ثيابا ثمينة من السوق وأنني لا أعطيها أفضل السمك في حسائي كما تفعل بنات بناتها"

ضحكت."معنى الساحرة العجوز"

" شيشا لا تضحكي. أنا على ثقة تامة أنها أرادت أن تأكل (كويزي) لكنني منعت ذلك بإقامة حفلة تسميته قبل أن تتمكن من ذلك".

" آه ! لا تقولي ذلك (مامي) أنا متأكدة أن الجميع هنا يحبك، أنت فقط لا تعرفين ذلك"

" ابنتي، إنهم ليسوا كذلك، إنهم يكرهونني"

" لكن ماذا حدث؟" استفسرت عن الأمر، كنت أود ذلك منذ وقت طويل.

"اسألي شيشا ! لست أدري. لقد بدؤوا فجأة يمقتونني عندما كان(كويزي) في الثانية من العمر. (كوجوفي) قلص مصروف البيت وكثيرا ما كان يرفض إعطائي أي شيء على الإطلاق. وكان أيضا لا يأكل طعامي. في البداية سألته عن السبب، كان دائما يجيبني (لاشيء). لو لم أكن امرأة قليلة الحظ، لوقفت أمه وأخواته إلى جانبي، لكنني لم أجد أحدا منهن.على الرغم من أنني كنت زوجته الأولى إلا أنه كان يقابلني بالشوك (أو الشكوك) والاستصغار

" آه ! ماذا يمكنك القول بشأنه؟"

" ماذا يمكنني القول ؟ في ذلك الوقت كانت أمي على قيد الحياة، في حين توفي والدي منذ فترة قصيرة. عندما كنت اشكي لها سوء معاملة زوجي لي كانت دائما تقول لي إنه على المرأة أن تكون ساذجة في زواجها. لكنني كنت ساذجة لوقت طويل".

" أوه" غضبت.

" أمي ماتت وتركتني، كنت طفلتها الوحيدة. أعمامي كانوا مشغولين بمشاكل بناتهم. لقد أخبرت أخوالي عدة مرات لكنهم لم يأخذوا الأمر بمحض الجد. كانوا يعتقدون أنني امرأة غير قنوعة".

سألتها بدهشة " أنت؟".

" ربما أنت لا تصدقين ، لكن هناك الكثير ممن يعتقدون ذلك في هذه القرية"

صمتت للحظة وعيونها مشدودة إلى الأرض.

" أنت لا تعرفين، كنت موضوعا للقيل والقال لسنوات عدة، الآن أريد فقط أن أعيش لنفسي وأن أهتم بولدي. لا أعتقد أنني سأنجب مرة أخرى.(شيشا) الناس هنا يقولون إن الزواج السيئ يقتل الروح. وروحي أنا جاهزة للدفن" .

" مامي لا تحزني ".

" بنيتي، أمي وأبي الذان (اللذان) أتيا بي إلى هذه الدنيا تركاني وحدي، وقد توقفت عن الحزن عليهما. عندما جاءهما الموت، كانا سعيدين لوضع أدواتهما والالتحاق بوالديهما. أجل. كانا يحباني، هذا صحيح، وعلى الرغم من ذلك تركاني. لماذا أحزن على رجل توقفت عن الوجود بالنسبة له منذ وقت طويل؟" .

ذهبت إلى القفة الكبيرة، وأخذت بعض زهور (cassava) و(plantain) وبدأت بتقشيرها. لتتذكر أن عليها إحضار صحن الخشب الذي ستضع فيه الطعام، في حين واصلت الحديث معها .

" ماذا سيحدث ل(كويزي) ؟ "

أجابتني مستغربة " ماذا سيحدث له؟ هذا ليس بمشكلة. ربما قد يعرضون علي أن أتركه مع والده " .

" وهل ستفعلين "

" لا لن أفعل "

" وهل ستنجحين في الحفاظ عليه إذا ما أصر والده على أخذه؟ "

" حسنا، يجب أن أقاوم. بالنسبة لطفلي إنه ابن والده أيضا لكنه ينتمي إلى عائلتي"

بقيت هناك استمع بدهشة إلى تلك الخلفيات القديمة لتقاليد كنت أجهلها.

نظفت الطعام وقطعته إلى قطع ووضعته في القدر، أضافت عليه الماء ووضعته على النار.

" مامي آما، إن زوجك لا يملك الحق ليأخذ منك كويزي؟ "

" أفترض أنه يملك الحق لذلك، لكن ليس بشكل نهائي.لا عليك، إذا طلب مني الشيوخ الذين سيعقدون الطلاق أن أتركه مع والده فلن أمانع."

" أنت امرأة شجاعة ".

" لقد علمتني الحياة أن أكون شجاعة." رمقتني بنظرة وابتسمت وسألتني كم الساعة؟.

أخبرتها " إنها السادسة إلا ست دقائق "

علقت قائلة " وكويزي لم يعد بعد إلى المنزل؟ "

صوت مرتفع يقول " ماما، أنا هنا ".

" زوجي، أخي، أبي، كل ما أملك في الكل، أين أنت؟ " كان هو، الكل في واحد. بالنسبة لهذه القروية المنهكة، فإن الشمس يجب أن تشرق من الشرق على الرغم من وقوفها خلف شجرة (جوز الهند) أل(coconut). عيونها كانت تلمع. ألقى علي (كويزي) التحية وبعدها على أمه. بدا الخجل على محياه، ركض إلى الغرفة الداخلية أحدث صوتا مزعجا ما يعني أنه أسقط كتبه على الأرض.

نادته أمه" (كويزي) لطالما قلت لك أن تضع كتبك بعناية. لم أشترها بالرمل يجدر بك أن تكون حذرا"

عاد إلى حيث كنا، نظرت إليه، كان متسخا جدا. اتسخ رأسه وأذناه وعيناه بالرمل. ملابسه كانت ملطخة بالطين والطبشور والعصير، وأكمامه مبتلة. نظرت أمه إليه نظرة غضب ممزوجة بالحنان." كويزي، أنت متسخ جدا، أنظر ماذا فعلت بنفسك، أنت تحرجني. أي شخص سيظن أن أمك لا تعتني بك جيدا." ضحكت لأنني أعرف أنها كانت تقصدني بكلامها ذاك.

عاتبته قائلة " ألا يمكنك اللعب دون أن توسخ شعرك بالرمل؟"

لم يكترث لذلك " أنا جائع " . ضحكت.

" نادم، نادم، وشيشا هنا، أترين شيشا؟ إنه لم يجلب لي الماء، ولم يجلب الحطب للنار، ولم يقلع الأعشاب الضارة في المزرعة كما يفعل الأطفال لأمهاتهم كل يوم سبت. إنه يأكل، يأكل فقط."

نظرت إليه، فهرب مرة أخرى إلى الغرفة الداخلية. بدأنا بالضحك عليه أنا وأمه، وبعد وقت قليل همت بالمغادرة. (مامي آما) حاولت منعي " شيشا أريدك أن تبقي معنا لتناول الطعام، لهذا أنا أسرع في تحضيره "

"أوه، لا عليك. تعرفين أنني آكل هنا عند مجيئي، لكنني اليوم مضطرة للذهاب، عليا تصحيح كراريس التلاميذ".

" حسنا، لا يجب أن أعطلك عن عملك "

"غدا سآتي لزيارتك.أعدك بذلك "

"آه، شكرا لك"

" نامي جيدا مامي "

" نامي جيدا أنت أيضا بابنتي "

مشيت إلى الباب، كانت الشمس على وشك الغروب.كنت أسير ببطء. قبل أن أبتعد، لحقت بي(مامي) ونادتني" تذكري، إذا لم يتحصل (كويزي) على علامات جيدة، سآتي إلى المدرسة وأستلم كشف نقاطه، إذا أخبرتني بذلك "

صرخت " آوه" ثم واصلت طريقي.

اليوم التالي كان (اهوبادا) إنه يوم الفرح للجميع. في الصباح يردد الجميع عادات العائلات العريقة. كان كل شيء طبيعيا في عائلة (مامي آما). خالاتها تصالحن _ أو كن يعتقدن_ مع أنفسهن لأنه عندما كانت والدة(مامي آما) تحتضر أوصت بكل مجوهراتها لابنتها الوحيدة.هذا كان أحد الأسباب التي جعلت خالات وعمات(مامي آما) يقاطعنها. كنن دائما يرددن" لقد حصلت على كل أشياء أمها، ماذا تريد بعد؟". أما الآن، فيبدو أنهن قد تفهمن الأمر. (آهوبا) هو موسم الأماني السعيدة، لكن للأسف (مامي آما) على وشك الطلاق هذا اليوم...

لم ينص في أي مكان من قانون التربية بأن الأطفال سيمنحون عطلة أثناء المهرجانات المحلية. لذلك تعاطفت معهم ، لأنني لم أستطع إعطاءهم عطلة على الرغم من أن (أهوبا) مناسبة هامة جدا بالنسبة إليهم، لقد تركوها بطبيعة الحال وهم مستاءون لأنهم أرغموا على الذهاب إلى المدرسة. في حين أن أصدقاءهم الماكثين في البيت كانوا يأكلون الكثير من ال(yam) واللحم.لكنهم أخذوا بثأرهم مني، لقد كانوا يعبثون طيلة اليوم، والأسوأ أن القسم كان مجرد غرفة خشبية كبيرة. بدأ الجميع بالتشويش، عندما أدرت وجهي بدأ القسم الثاني والثالث بالصراخ.آوه ، كان الأمر مضحكا. في الظهيرة، وبعد العودة من البيت وتناول بعض ما تبقى من طعام المهرجان، كادوا يقودونني للجنون. لذلك أكملت الدرس عند الساعة الثالثة، وبدون أي إحساس بالذنب سمحت للجميع بفسحة للراحة واللعب. ركض الجميع مسرعا إلى الحقل ، كنت أنوي الذهاب لحضور مراسيم الطلاق التي بدأت عند الواحدة، ثم العودة عند الرابعة لتسريح الأطفال.حالات الطلاق هذه تستغرق ساعات لكي تتم، كنت آمل أن ألحق بعضا منها.

أثناء مرور بين الصفوف اصطدمت رجلي بإحدى الطاولات، فوقعت الكتب التي كانت عليها، عندما جمعتها لاحظت أنها ل(كويزي)،كانت الطاولة التي يتقاسمها مع فتاة

صغيرة.بدأت أفكر فيه. تذكرت كل كلمة من النقاش الذي دار بيني وبين أمه ظهيرة أمس.أصبحت حزينة لتوقع فراق محتمل بين الأم وابنها.في طفولته كانا يعرفاني بعضهما فقط، أم وحيدة، وابن وحيد. كانت تحمله على ظهرها تحت أشعة الشمس الحارة وهي تقتلع الأعشاب الضارة من الحقل. كانت تضطر إلى وضعه تحت شجرة في الظل عندما لا يوجد من يعتني به؟ النساء الأخريات لديهن أخواتهن الأصغر منهن أو أخوات أزواجهن ليساعدنهن في تربية الأولاد.لكن هي لم يكن لها أحد تعتمد عليه.الوجه الوحيد الذي يعرفه ذلك الصغير كان وجه أمه، والآن...

قلت " لكن، أنا متأكدة أن كل شيء سيكون بخير معه."

سألت نفسي " هل سيكون كذلك حقا؟ "

" لم لا؟ إنه طفل سعيد "

" هل سيحل هذا المشكلة "

" ليس كلية، لكن..."

" بدون لكن، يجب أن يفكر المرء أي بيت سيأخذه. فهو لن يكون صاحب الخيار هناك ."

إلا أن صوتي الأخر كان يقول لي، إن الطفل لا يحتاج لأن يكون صاحب الخيار ليكون سعيدا.

كان لابد أن أضع حدا لتخميناتي، يجب أن أسرع.عندما مررت بالحقل رأيت بعض الأطفال يلعبون كرة القدم.في المرمى، وفي النهاية البعيدة بدا لي شعر يلمع تحت شمس الظهيرة. كنت أعرف لأي جسم ينتمي، حارس المرمى شخصية مريبة في لعب كرة القدم عند الأطفال، من المحتمل أنه حارس جيد لهذا السبب هو في ذلك الموضع، إن الأطفال يعتقدون أن حراسة المرمى مهمة صعبة أو أن الحارس لاعب رديء، فإذا كان لاعبا رديئا عليه أن يكون في المرمى أفضل من أي مكان أخر.(كويزي) يحب كرة القدم. هذا أكيد كان دائما يشغل حراسة المرمى.

سواء كان جيدا أم لا لم يكن بوسعي رؤية ذلك.فقط عند مروري التقط كرة فصفق الجميع له.سمعته وهو يحدث ضجة صغيرة أثناء ضحكه.لا شك أنه طفل سعيد.

كان علي أن أجري نحو القرية.اتجهت في الحال إلى بيت(نانا كوم). سمعت صراخا حادا في الجهة المقابلة للبيت." لماذا يحتشد هذا الجمع من الناس هنا؟" تذكرت بعدها

أنها العطلة ومن الطبيعي أن يبقى الجميع في القرية هذا اليوم، فبعد أن أكلوا وشربوا في الصباح ومنتصف النهار، فإن مراسيم الطلاق تشكل بدون شك تغييرا رائعا لاسيما عندما يتعلق الأمر بأشخاص غيرنا.

كانت قاعة المحكمة طويلة، اندفعت حيث تجلس(مامي آما) تهافتت إلى مسامعي جملة من التعليقات قال أحدهم " من المؤكد أن الشيوخ سيحكمون بعدالة". قال آخر " لكن يبدو أن (كوجوفي) لايملك حججا مقنعة" قال ثالث " حسنا. كلاهما في موقف حساس.إذا أحس الرجل بأنه لا يستطيع العيش مع امرأة فعليه تطليقها. وأنا اكره المرأة التي تخاف زوجها " . وصلت أخيرا إلى جانبها، كان حولها عائلتها، خالتاها(إيزي وآما) عمتاها وخالاها.على اليمين يتواجد الشيوخ الذين سيحكمون. في الجهة المقابلة يجلس (كوجوفي) وعائلته.

" لقد جئت (مامي آما) " قلت لها.

نظرت إلي وقالت" يجدر بك أن تكوني هنا باكرا. المراسيم بدأت منذ وقت "

سألتها " وكيف تجري الأمور؟ "

" أنا امرأة مطلقة "

" ماذا كانت حجته لكي يطلقك؟"

" قال، إنني لم أفعل شيئا، إنه يريد فقط..."

" إيه! أنتما فقط من يعرف المشكلة." صرخت الخالة الصغرى بغضب قائلة" كان سيدفع نفقة الطلاق مقابل قبولك، لكنك أعطيته ما يريد الآن " .

احتجت مامي قائلة " لكن خالتي كيف يمكن أن أرفض الطلاق؟ "

" إن الأمر يخصكما أنتما الاثنان، أعرف أنها قضية خاصة، لا أريد فقط أن تعتقد روح أمك أننا تركناك وحيدة دون أن نعتني بك جيدا"

" أنا أوافقك " قالت الخالة الكبرى.

سألتها " مامي آما بكم يدين لك؟"

" إنه مبلغ كبير"

" آمل أن لك أيضا ما تحسبينه ضده ؟ "

" إنه يدين لي بالمهر وعشرة أثواب أعطاها لي"

قيل كل هذا على مسامع (كوجوفي) وعائلته وعاجلا أصبحنا قلقين بشأن هذا الأمر.

اندفعت أخته الصغيرة قائلة" كوجو، نسيت أن تحسب السكين "

رد عليها كوجوفي " لا، يا! لم أنس.ليس لديها إخوة لمن أعطي السكين "
أضافت أخته الثانية " حسنا إذن "
لكن باقي أقارب زوجاته استغلوا الفرصة لتعليقات أكثر.
صاحت إحدى الخالات " إنها امرأة سيئة وأنا أعتقد أنك أحسنت بالتخلص منها "
قالت الأخت الصغرى " أعتقد أنها مشعوذة "
" آه، إنها كذلك. على كل حال المشعوذات فقط من لا إخوة لهن. لقد أكلناهم في رحم أمهاتهم قبل أن يلدن بزمن طويل "
في حين لم تتفوه خالات وعمات (مامي آما) بكلمة لوقت، كأنهن اقتنعن بأن (مامي آما) هي حقا مشعوذة. لكن (مامي آما) بقيت جالسة، بعد أن خمدت تلك التعليقات لفترة لخصت لي ما حدث.
" كما قلت لك شيشا، لقد عدد أيضا ثمن الصندوق الذي أعطاه لي وكل النفقات الطبية التي دفعها لكي أحمل مرة أخرى، نفقات البيت فقط ما أملك لأحسبه ضده"
سألتها " هل تملكين المال لكي تدفعي الديون؟ "
" لا، لكن سيدفعها أخوالي وسيضعون الفواتير باسمي "
" أوه "
صرخت الخالة الكبرى لمامي قائلة " لكن أنت غبية" ألحت على ذلك " قلت إنك غبية"
بدأت مامي تحتج " لكن خالة...."
" أجل! وآمل أنك لن تجادليني. لقد ولدت قبل أمك، والآن بعد وفاتها، أنا بمثابة والدتك! إلى جانب ذلك، عندما كانت حية كان بإمكاني معاتبتها عندما ترتكب أي خطأ، والآن أقول لك، إنك غبية.صارعت لسبع سنوات من أجل طفل.سواء كان يأكل أم لا تلك كانت مسؤوليتك أنت.إن كان لديه ثياب أم لا كان أمرا لا يخص أحدا غيرك، عندما كان(كويزي) طفلا كان بدون أب، حين كان يحتضر بسبب إصابته بالبوحمرون لا جد التفت إليه.وبالنسبة لخالاته بدأ يعرفهن فقط عند دخوله إلى المدرسة.والآن أنت تسمحين لهم بإبعاده عنك، الآن وقد كبر قليلا بدأ يعد من الأحياء، تفطن الأب أن له ابنا"
صرخت أم (كوجوفي) في وجهها" حسنا، حسنا، ماذا تظنين؟ أن يقدم (كوجوفي) ولده لكم كهدية، إيه؟ الولد ينتمي إلى عائلته، وأبوه أحق به منكم "
سألت خالة(أما) المرأة العجوز" هل ذكرت إسمك؟ "

ردت عليها الأخت الصغرى ل(كوجوفي) " لم تذكر اسمها، لكنك تتكلمين ضد ابنها "ابنتي خالة (آما)علقت " ومن أنت لكي تجادلي أمي "

" انصرفوا، لكن من تكونون؟ "

" انصرفوا، لقد ثرثرتم كثيرا "

" أنتم من ثرثرتم أيها المشعوذون "

" أنتم تنادون الناس دائما بالمشعوذين. المشعوذة فقط من يمكن أن تعرف المشعوذة "

بدأ كل واحد يصرخ في وجه الآخر.الناس الذين حضروا هناك هموا بالانصراف إلى بيوتهم، فقط الفضوليون منهم من بقوا للاستماع.همست (مامي آما) شيئا تحت أنفاسها، لم استطع سماعه. أقنعتها بالذهاب معي، مر كل ذلك الوقت ولم تتبادل ولا كلمة مع زوجها السابق.أثناء تأهبنا للانصراف، صرخت أم (كوجوفي) في وجهها " أنت مجروحة.لكنك تستحقين ذلك. سنأخذ الطفل، سنأخذه! ماذا تريدين أن تفعلي به؟"

دارت (مامي آما) ونظرت إليها" ماذا تظنين نفسك لكي تثيري كل هذا ؟ عندما قال (نانا كوم) إن الطفل يجدر به البقاء مع والده، هل اعترضت على ذلك؟ إنه في المدرسة، اذهبي واحضريه.غدا يمكنك إرسال عمالك لجمع أشيائه من الخيمة"

قالت هذه الكلمات بسرعة كبيرة، تذكرت بعدها أنه لابد من الإسراع إلى المدرسة لتسريح الأطفال.قلت ل(مامي آما) أن تعود إلى البيت وبأنني سأحاول رؤيتها قبل حلول الظلام.

هذه المرة لن أمر بالطريق الرئيسي.سآخذ الباب الخلفي عبر الطريق الخلفي والمضيقات. كانت الساعة تشير إلى الرابعة تقريبا، في طريقي إلى المدرسة وأنا مسرعة، سمعت صرخة عالية وحادة، كنت أظنها صدى لشجار ما، لذلك تابعت طريقي.عندما وصلت إلى المدرسة، لم يعجبني ما رأيته. لم أجد أحدا هناك، إلا أن كتب الأطفال بقيت في مكانها. كانت الفوضى تعم المكان كما لم يحدث من قبل، وقد عمت حتى كتبي.بطبيعة الحال كنت أكثر من حائرة " كم أن هؤلاء الأطفال مشاغبون، كيف يجرؤون على عصياني، لقد قلت لهم أن ينتظروا حتى عودتي لتسريحهم ؟ " لم يكن هناك جدوى من البحث لأنهم ليسوا هناك.هددت وحدي في القاعة" أنهم يستحقون التأديب ".جمعت كتبي و ساعتي.ثم لاحظت أن طاولة (كويزي) خالية من كتبه، لاشيء يستدعي الاستغراب بهذا الشأن، من المحتمل أنهم أخذوها إلى البيت. أثناء هبوطي التلة للمرة الثانية هذا المساء، رأيت أن كل المدرسة كانت في النهاية الأخرى من الطريق الرئيس." ماذا يفعل الأطفال قرب مكان (مامي آما) ؟ أسرعت نحوهم.

لم أكن مستعدة لما رأيته، شكل الأطفال حلقة كأنها مقصودة، عندما رآني أحدهم بدأ الجميع يخبرونني بما حدث، لكنني لم أسمع كلمة. في وسط الدائرة، كان كويزي ممددا على ظهره، و قميصه مقطع، ذراعه اليمنى منتفخة بحجم رأسه.لم استوعب الأمر كنت واقفة هناك وفمي مفتوح.من جهة الساحة الخلفية صرخت (مامي آما) بأعلى صوتها " أنا أغرق يا أهل (بامسو)، تعالوا، انجدوني! " بعد وقت قصير احتشد جمع من الناس هناك.

" ما الأمر؟ ماذا حدث؟ (كويزي) لدغته حية. أين؟ أين؟ في المدرسة، كان يلعب كرة القدم، أين؟ ماذا حدث؟ لدغته حية. حية، حية...

أسئلة وأجوبة تتناقل من فم إلى فم في ذلك الجو المسائي المأساوي.بينما أعطى بعض الذين يعرفون عن لدغات الثعابين أسماء لبعض الأدوية . والد (كويزي) كان ينظر بخشية إلى ابنه.ذلك الأب الضخم القوي بدا في تلك اللحظة ساذجا من الصدمة والخوف.جرعة فجرعة أخرى ابتلعها بصعوبة، لكن لا شيء يبدو أنه ناجع.النساء في غدو ورواح حول الخيمة دون أن يكترث بأن وجبات المهرجان بقيت نصف محضرة.كل واحدة تحاول أن تتخيل كيف يمكن أن تتصرف لو أن (كويزي) كان ابنها، وفي الخيال، يتعذبن أكثر من الأم ذاتها " لتحمينا الآلهة وأرواح آبائنا من الكارثة ".

بعد الذي بدا أنه لا يطاق لوقت طويل، وصل الرسول الذي بعث إلى(سوردو) القرية المجاورة ل(بامسو) ليأتي بالممرض متبوعا بالطبيب الرئيس نفسه ، إنه معروف بعلاجه للدغات الثعابين. عندما ظهر، تنفس الجميع الصعداء، تذكروا شخصا ما، ربما أخا أو أبا أو زوجا انتشل من بين فكي الموت.عندما أعطى الطبيب دواءه للصبي كان في حالة حرجة.مرت ثلاثون دقيقة، ساعة، ساعتان ثلاث ، أربع ساعات مضت ولم يتقيأ أي شيء .قبل منتصف الليل توفي.في تلك الليلة لم ينم أحد في (بامسو). لقد كان (كويزي) أول طفل يموت منذ تدشين المدرسة قبل ست سنوات " كان الابن الوحيد لأمه، ليس لديها أحد الآن لا نفهمها الحياة ليست عادلة" هذا هو القدر.

كان الصباح جميلا جدا. يبدو كل شيء في القرية طبيعيا ويحتفظ بحيويته، كنت مرهقة. ذهبت إلى الفراش حوالي الساعة الخامسة صباحا. وبما أنه السبت بإمكاني أن أنام لوقت طويل. عند العاشرة استيقظت فجأة على صراخ. فتحت نافذتي لكنني لم استطيع رؤية المتحدثين، أثناء ذلك مر(كويكوسام) أحد الشباب في القرية وألقى التحية علي " صباح الخير شيشا ".

أجبته " صباح الخير(كويكو)، ماهذا الصراخ؟."

" إنهم يتشاجرون "

" وعلى ماذا يتشاجرون الآن؟ "

" كل واحد يتهم الآخر بأنه المسؤول عن وفاة الطفل "

" ماذا؟ "

تنهد وقال " شيشا، لا أعرف.النساء فقط من يحبن افتعال المشاكل، يبدو وكأنهن غير راضيات بالبقاء بهدوء، عليهن تبادل الشتائم فيما بينهن.ما حدث كان جديا ليكون موضوعا للشجار.ربما أغضبت القرية الآلهة بطريقة ما، لهذا السبب أخذن هذا الولد ".

لم استطع قول شيء في هذا، أو تفسير أي شيء، ثم إذا كان أهل القرية يعتقدون أن هناك أمرا في موت(كويزي) لا يستطيع العقل البشري تفسيره، من أكون أنا للاحتجاج".

" هل (مامي آما) هناك ؟"

" لا، لم أرها هناك "

صمتنا لوقت.

" شيشا، أعتقد أنه عليا المغادرة الآن.سمعت للتو أن أختي أنجبت طفلة ".

ابتسمت قائلة " حسنا، بلغها تهاني، واخبرها أنني سآتي لزيارتها غدا ".

غادر لتحية الابنة الجديدة لأخته. بقيت لمدة طويلة عند النافذة دون التركيز على أي شيء، عندما طرقت بعض الكلمات والجمل سمعي من الشجار، كانت ممزوجة بالبكاء. ابتعدت عن النافذة ونظرت إلى مرآة صغيرة كانت معلقة على الحائط، لم أتفاجأ لرؤية وجهي مغمورا بدموع لاشعورية. لم أكن أشعر برغبة في الذهاب إلى السرير. بل لم أشعر برغبة في القيام بأي شيء. راودتني فكرة الذهاب لرؤية(مامي آما) لكن أخيرا قررت عدم الذهاب، لن أتحمل مواجهتها، على الأقل في الوقت الراهن. جلست أفكر فيه. ذهب في حلم سري مرض لحسابه " كان علي أخذه بعيدا معي على الرغم من معارضة أمه. كان الطفل ولدا، لذا كان عليها أن تتعلم العيش بدونه عاجلا أم آجلا. كنت سآخذه معي عند مغادرتي القرية، سأعلمه النحو، ربما، من يعرف يوما ما قد يفوز بمنحة جامعية" لم احدد في أحلامي أي مهنة سيشغل، إلا أنني كنت متأكدة أنه سيكون ذا شأن.بهيئة مدهشة كان ليكون معبود النساء وغريم كل الرجال.كان ليزور بريطانيا وأمريكا وكل تلك البلدان التي لطالما سمعنا عنها الكثير. كان ليرى عجائب الدنيا السبع. مامي ستكون سعيدة في النهاية. قلت لنفسي" الناس سيتهافتون لرؤية أم هذا الرجل المشهور، مع أنها

لم ترزق بغيره، إلا أنها ستكون محاطة بأولاده. في كل هذا المجد، لا مكان لأبيه " لكن هناك أنا وهناك (مامي آما) وهناك أبوه، إلا أن مصدر الجدال بالنسبة لنا الثلاثة لم يعد مجودا، رأيت ذلك البرج العالي الذي بنيته ينهار في لمحة البصر ودون أن يحدث أية ضجة.

مراسيم الدفن تمت عند الرابعة. أخذت الأطفال لإلقاء النظرة الأخيرة عليه. عندما رأى أقرباؤه ذلك الوجه الصغير، نسى الجميع خلافاتهم وعمهم حزن شديد. خاطبتني جدته قائلة " شيشا، آه شيشا ماذا سأفعل الآن و(كويزي) مات ؟ كويزي جمالي، كويزي سيدي، كويزي حياتي، كويزي..." وكانت إحدى خالاته تنوح " وفاة أبي تكررت بألم ".

واصلت الجدة قائلة" شيشا، أيامي البيضاء انتهت، لأجل من سأسقى بالماء؟ طعام أيامي نفذ، لأجل من سأرزق بالطعام؟" وقفت هناك في صمت، تركت الأطفال يرددون عبارة " المسيح، بارك المسيح " وبعدها رافقناه إلى المقبرة.

بعد الجنازة ذهبت إلى منزل العزاء كما يفعل أهل القرية بعد الدفن. لا أحد افترض أن يبكي مرة أخرى فيما تبقى من اليوم، بقيت هناك استمع للزوار الذين جاءوا من القرى المجاورة.

قالت إحدى النساء" هذا أمر محزن حقا، وغريب جدا.أصبحت المدرسة مثل التجارة، الذين أسسوها قديما لأولادهم أكلوا من الأطفال أكثر مما درسوا .أن يكون لك صبي في عمر المدرسة ويختطف فجأة بين يديك أمر لا يحتمل حقا".

عقبت الأخت الصغرى لأبيه " آه، لا داعي للكلام، لقد فقدنا كنزا "

قالت الجدة مرة أخرى " ابنتي!(كويزي) قد رحل، رحل إلى الأبد، انضم إلى أجدادنا، ماذا يمكننا فعله؟ "

" ماذا يمكننا فعلا؟ عندما يتناثر الطحين في الرمل، من بإمكانه تصفيته؟ لكن هذا أحزن شيء سمعته، إنه وحيد أمه"

صاحت زائرة أخرى" هل هذا صحيح، كنت دائما أظن أن لها أطفالا آخرين. ماذا يمكن للمرء أن يفعل، عندما ينكسر الكأس الوحيد الذي يملكه". بقيت المسألة معلقة في الجو، لا أحد تجرأ على قول المزيد.

خرجت، لم أعرف كيف وصلت إلى هناك، وجدت نفسي أمام خيمة (مامي آما) كان الباب مفتوحا كالعادة، دخلت إلى الغرفة الخارجية، لم تكن هناك.وجدت بعض المعز من

القريــة كــانوا مشــغولين بالتهــام ال(cassava) وال(yams) . كانــت فــي الغرفــة الداخليــة، ظلـت بـالملابس التـي ارتـدتها فـي مراسـيم الطـلاق، لـم تكـن جالسـة، واقفـة أو مسـتلقية، كانـت سـاجدة وكـأي أحـد يغـرق يتشـبث بقشـة، كانـت تحتضـن كتـب (كـويزي) وأدواتـه المدرسـية إلـى صـدرها " مـامي آمـا، هـذه أنـا مـامي آمـا" ناديتهـا مـن الخـارج لكنهـا لـم تتحـرك. تركتهـا لوحـدها قـدت المعـز بعيـدا خرجـت وأغلقـت البـاب خلفـي" عليـا الـذهاب الآن " تحـدثت إلـى نفسي.

غربـت الشـمس خلـف شـجرة الـ(coconut) نظـرت إلـى سـاعتي، كانـت السادسـة لكـن هـذه المرة لن أجر.

حكمة الأجداد

(من تراث منطقة القبائل)

تعريب: أ د صالح بلعيد

استمعتُ هذه المرّة إلى مجموعة من المستجوبين حول موضوع الأصالة وما ينجرّ عنها من متعلّقات قديمة وحديثة، فدوّنتُ الكثير من الروايات والحكايات ومن مسموع الجدّ والجدات. لقد جلست مراراً إلى راويَيْن، ولازمتُهما تكراراً، واستمعت إلى حديثهما الطويل والعرض إمعاناً، وعن فعل الأجداد العتيد انبهاراً، وجاريتُهما لاستخلاص المبتغى، واستجلاء الذكرى، من فعل الأجداد الأولى وكانت جلساتي معهم جلسات الأُلْف في فعل السلف، ورُمْتُ بها نفعَ الخَلَف، بما يرفع عنّا الكَلف. والأهمّ فيها أنّني عقدتُ جلساتٍ لم تكن عَدَماً وبَيَاراً، بل كانت تصديقاً وتوثيقاً، ممّا جمعته من أهل التسبيق، بعد أن أخبرتُهما بأنّي أستهدف الكتابةَ في موضوع **الأصالة**، وألححتُ أطرحُ أسئلتي لحصر الحديث، وتوجيههما إلى الموضوع، فكتبتُ المفيد في ما رمتُ أن يكون سديداً، ويستفيد منه الطالب والمطلوب، فما ضاعَ علم وراءه باحثٌ مِعْناد، وما فسدت بضاعةٌ في سوق المزاد، ولا خاب من استزاد، وكذلك يحصل المُراد، في كلّ مطلوب غير مُعاد.

لقد وقع إصراري على أن يحدّثاني عن الأصالة **(تَّاچَادِيثْ)** ووجهتُ أسئلتي حول دلالاتها، وعن متعلّقاتها، وما ينجرّ عنها من قوانين وسنن، والتي وضعها أجدادنا في القديم، وساروا عليها محافظين وبقَوا يرسّخونها دائمين، وكانوا يوصون أخلافَهم مصرّين، وبضرورة اقتداء الأحفاد خُطى الأجداد وفي نيّتهم كذلك تكون النّجاة من الأحقاد، وكي يعتبر الداني من القاصي، والحاضر من

الماضي، ولكن يا للعجب كيف تغيّرت الأحوال والمَحال، وجاء الرجال تلو الرجال، فما بقيَ أثر لما تركه الأجداد وأصبحنا لا نعتبر بما قنّنوه من أفكار، وما صاغوه من أعمال، ولم نعد نهتمّ بما تركوه من إدبار وأنوار، رغم أنّ زمانهم ولّى، وليتَ زمانَنا ما تولّى، لكنّه أدبرَ واستدبرَ وولّى دون عبرة، وما أخذ الأمرَ على الميثاق، ولا أعمل الفكر في الآفاق، وبذلك أضاع كلّ الوفاق.

وانفلَتَ أحدُ الراويين واقفاً، وقال: قبل الدخول في الموضوع أقول: إنّ الحديث عن **(ثاچديث)** هو حديث عن الكلمة، فالرجل ثلاثة أنواع: رجل بنفسه، ورجل بلسانه، ورجل بماله، فالرجل بنفسه هو الرجل القوي الصحيح الذي يهابه الناس لأنّه لا يريد أن يردّ كلامه، والرجل بلسانه وهو الرجل السحّار الذي يأخذ بالألباب، والرجل بماله هو الكريم الجوّاد. ومن هو في مقام أحد الثلاثة هو ما يطلق عليه عندنا **(أرگاز نلهدرا)**. وبخاصة ذلك الذي يتوفّر على اللسان الذلق، ونسميه كذلك **(أحدّاذ أَيَاوال)** والأصالة هو الرجل الذي يجسّد أفعاله من لسانه، فالرجل يُقبض من لسانه، وليس مثل الحمار الذي يُقاد من أذنه. الأصالة ماضٍ رَحَلَ مع الأجداد بحلاوته، ولكنّه حاضر مع الأبناء بقساوته، فأبناؤنا اليوم يُخدعون مراراً ولا يرتدعون فالمثل يقول: إنْ خَدَعَك أحدُهم مرة فأنتَ طيّب، وإذا كرّر خداعَه فأنت أحمقُ، ومن هنا نرى أولادنا سُذّجاً فليسوا في مستوى أجدادهم، فأنّى لهم أن ينتبهوا إلى حماقاتهم، فلقد أضاعوا كلّ شيء، فهل ينفع الآن ما يُكتب لهذا الجيل الذي يَنْظُر إلى الماضي على أنّه من سقط المتاع، وهل يقرؤون عنكم ما تكتبون، وعيونهم ملتصقة في الحيطان، على التلفاز الرنّان، وليس للأصالة عندهم مكان. إنّ أولادَنا ينظرون إلينا على أنّنا مُتحفيون، ولا يجب أن نُشاور، فنحن منقرضون؛ حيث نعيش الحاضر بأفكار ماضي قارون، فماذا تنفع هذه الوريقات إذا لم تتغيّر العقليات وتسود النيّات. ومع إصراري امتثلَ هذا الراوي الواقف للموضوع بمشاركة صاحبه فقالا:

إنّ **الأصالة** لها معانٍ عدّة، والسياق هو الذي يحدّد المعنى بدقّة، ومع ذلك فالأصالة هي **(ثاقپيليث)** الجدّ والجدّة، بمعنى أنّ الأصيل هو من يكون في خدمة غيره في همّة، ويكون حاضراً في الشأن العام بفكره وماله وفي يده النّعمة، فلا يتأخّر عن الوفاق ولا عن مجموعة الرفاق، ولا يكون من الهاربين عن الناس زراية ودراية أو على خناق، حيث لا يعرف إلاّ نفسه ولو كان في السباق، وهذا النوع يطلق عليه **(ثيرذليث)** بمعنى المتأخّر المتخلّف البخيل الشحيح الذي لا يظهر أمام الناس إلاّ في هيئة النفاق. فالأصالة أن تكون **(أرگاز)** وأن تقف على نيفك وحرمة دارك، وتبدأ تصلح أهلك وأولادك وتعمل للمصلحة العامة بجسدك وفكرك ومالك، فقليل من مالك يزيّن حالك، والرجل هو من يكون حيث يكون الناس، دون أن يملك الأموال والأحلاس، ولهذا يقال: ليس كلّ

من لبس السروالَ رجلاً، وليس الثورُ الأبيض كلّه شحماً، فالرجل يعني **(ثيرُوگْزَا)** مثله مثل الحديد ينقرم ولا يلين، وكذلك الرجل الأصيل يَنكسر ولا يَنحني.

الأصالة هي الصدق والأخلاق والفحولة وكلّها تعكس اللغة، وبذا فالأصالة تعني حفظ اللغة من الاندثار باعتبارها **(ذاوال)** الذي يحفظ للأجيال المازيغيين ما يملكونه من حكمة وتجربة ومعرفة وأدب وتقاليد وأعراف، مكتوبه في الكرّاس، ومحفوظه في الرّاس. والأصالة تاريخ الأجداد الحافل بعظائم الأعمال وجليل التراث المنهال. الأصالة تاريخ تَمَيَّز بالعمق والقوّة مهما اختلفت مشاربه. قال أحدهما لقد سمعت أسليمان أوگعلي يقول: إنّ الأصالة أن تتكلّم قليلاً وتسمع كثيراً، فمن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول، فالله أعطى لنا فماً واحداً، وأعطى لنا أذنين اثنين، فلنسمع أكثر ممّا نقول، وتِلْكُم هي **(ثاقپاياليث)** وأما **(ثامازيغيث)** أن تسكتَ حيث يجب أن تسكتَ، وتتكلّمَ حيث يجب أن تتكلّمَ، وقديماً كانوا يقولون: هناك رجل يُغرم إذا تكلّمَ، وهناك رجل يُغرم إذا سكتَ، فالحكمة هنا أنّ من له الدِراية كان عليه أن يتكلّمَ، فإذا سكتَ حيث يجب أن يتكلّمَ ليستفيدَ منه الناس فهنا يُغرم، وهناك من يتكلّم ولكنّه يُغرم، فهو الرجل الذي لا يعرف ماذا يتكلّم، فإذا تكلّم يخطئ ويتلعثم، فهذا يُغرم عندما يتكلّم، ومن هنا قالوا: تكلّمْ حيث يجب أن تتكلّم، واسكتْ حيث يجب أن تسكتْ، وهذه هي الرجولة والفحولة والأصالة. وهكذا نجد كلام الأجداد كنزاً لا ينفذ ولا يُقدّر بثمن، ولكن من يحفظه في القلب، ويصونه من الضياع وينقله إلى كلّ الرباع، ليكون في فكر كلّ السباع، وكان يجب أنّه حين يحكي الأجداد يصمت كلّ شيء إلاّ الذكرى. وقال الآخر: الأصالة أن تبقى وفياً، ولا تكون صورة لغيرك، فأنتَ لستَ الآخر، ولا يجب أن تذوب فيه، والشخص عليه أن يتميّز بما أُعطيَ من خصائص عقلية، فليس مصنّفاً في مملكة الحيوان، تلك هي الأصالة بما يملك الإنسان من انفراد.

وقلتُ: أرى أنّنا استوفينا الآن موضوع الأصالة تفسيراً، وندعِ الأمرَ تيسيراً، ونمرّ إلى الحديث عن أخلاق القرية في باب الأصالة تصويراً، فقالاً: اكتبْ عنّا واستوعبْ، وما نقوله لك حديث عن أخلاق القرية، أو ما يسمّى عند أجدادك المازيغيين بـ (ثَلاستْ ج ثيليسَا) الحدّ ج الحدود، وكيف خطّطوا لأنفسهم سلوكاً عاماً، والذي تجسّد في شكل آداب القرية وهي من آداب المجتمع، بوضعهم للسلوك الاجتماعي الذي يقتدي به أفرادُ القرية ليعيشوا في سلام؛ حيث لا يعتدي أحد على الآخر، ولا يَظْلِم الأخُ أخاه، ولا يَسْفِك الجارُ دمَ جاره.

اكتبْ عنّا يا شيخ: إنّ أجدادنا حدّدوا حدوداً مَدَنِية قبل أن يعرفوا أخلاق الديانات، ووضعوا المحاسبين على تطبيقها؛ بإقامة هيكل مدني سمّوه (ثاڤْماعيثْ ج ثيڤمُوعَا) وسنّوا غرامات ردعية لكلّ من يُخلّ بأخلاق القرية، وباتَ مكانُ تَجَمُّعِهم مَهاباً مَرهوباً خوف المحاسبة والعقاب، بل إنّ

تلك الجماعات أضحت مدرسة أخلاقية تدرّس الأخلاق والحقوق والواجبات وتردّ المظالم، وما كانوا يعرفون للمحاكم باباً، فكلّما نُصّبت جماعة كان يعني فتْح مدرسة، أو غَلْق سجن. ولقد كان ذلك زمن الجهل العلمي، ولكنّه كان زمن الأخلاق العالية والآداب والمعاني الرفيعة، ونرى اليوم تلك السنن التي ثبَّتَها أجدادنا تجسّدت في أخلاق الإسلام الذي هو ديننا الحنيف.

لقد سنّ أجدادنا قوانين صارمة سمّوها (ثيليسَا) تُحترم من أفراد القبيلة/ العرش/ البطون؛ لأنّ أفراد القبائل والبطون والعروش تجمع بينها روابط قبلية، وبينها روابط شعبية وقومية أو دينية، وكان لا بدّ من احترام هذه القوانين/ الحدود وإلاّ سوف يَضيع عرشُهم، وتحصل عليهم الغارات، ويبقون في أفواه العروش لباناً تتكلّم عليهم بالسوء.

ولنبدأ على بركة الله، وسوف نقدّم لك المعالم التي كانت سائدة في المجتمع المازيغي، وما تزال تحافظ عليها بعض القبائل إلى الآن أو على بعض قَسَماتها، وإن كان زمان الأجداد غير زماننا، ولكن الأخلاق يجب أن تتطوّر ولا تهدّم، أن تتكيّف ولا تُمحى، وتلك سمّة الأصالة (ثاچاديثْ) التي نعتزّ بها.

1. ثاڤْمَاعيثْ: مفرد ثيڤَمُوعَا: وهي سلطة تشريعية ضبطية تنفيذية رقابية ردعية، وقد وضع هذا الجهاز من أجل:

. تأطير المجتمع وتطويره أدباً وتكتلاً؛

. سنّ القوانين والتشريعات؛

. محاربة التعدّي وردّ المظالم؛

. التآزر والتآلف والتعاون؛

. التكتّل وراء قوانين تحمي الجميع.

إنّ القبائل كانوا أقليّة، ولهذا وضعوا هذه الجمعيات التي تسنّ القوانين، وتحافظ على وَحْدَتهم خوف الذوبان، وخوف دخول الأجنبي في مجتمعهم البسيط، وهذه البساطة هي التي جعلتهم يتكتّلون ويتوحّدون. **والأجنبي:** عندما يدخل القرية أول مرّة، فإنّه يسند إلى بطن من البطون (أَذْرُومْ) وإلاّ لا يُقبل مُقامه في القرية، فيبقى دون حماية، ومع ذلك فإذا احتمى سيكون بعد سنة مثله مثل الساكنة الأخرى، له ما له من حقوق، وعليه واجبات، والأهمّ أن ينتمي للبطن الذي احتمى به إثر دخوله أول مرّة، أو يحتمي لبطن الشخص الذي استقدمه، وتسري عليه القوانين التي تسري على الآخرين بعد أن يخيّر بين البقاء ضمن عادات قريته القديمة، أو ينتمي إلى عادات وأعراف المجتمع الجديد، فكان عليه الخيار. كما نشير بأنّ القوانين والأحكام لا تسري على الأجنبي

إلاّ إذا تخلّى عن عادات قريته، وعند ذلك يُدمج في قوانين القرية ويصبح فرداً منها. ولا تطلق كلمة (الأجنبي) إلاّ من له إقامة تقلّ عن سنة فهذا لا يحسب له من الصدقة التي يقيمها العرش، ولكن لا يُمْنَع اللحمَ بتاتاً؛ حيث يُعطى من اللحم الإضافي. وإنّ الجماعة سمّة امتيازية عن الأغيار، فهي عند المازيغيين تحافظ على المكتسبات الخيرية وتعمل على تنميتها. وللجماعة أعضاء، ويشترط في عضو الجماعة ما يلي:

1. **كِبَر السنّ:** أهمّ شرط في الانتماء لهذه الجماعة، لأنّ العمر يعمل دائماً على كبح النزوات والأهواء، وعدم الخروج على رأي الجماعة، أو إثارة الفتن؛
2. **التعقّل:** من عوامل الاحترام والرجحان؛
3. **الغِنى:** لأنّ الغني يعمل دائماً على العطاء لا على الأخذ؛
4. **الكفاف:** أي أنّ لا يمدّ يده لغير حقه، ومن مشهود له بالخير؛
5. **العِفَّة:** يتدخل جانب الأخلاق الكريمة التي كان يتحلّى بها سابقاً؛
6. **النباهة:** وهي سمة تظهر في الراشد أثناء مناقشة المسائل؛
7. **التضحية:** ويعني التخلّي عن الذاتية وعن قضاء المصالح الخاصة من أجل مصلحة الجماعة التي يمثّلها العضو، ويؤدّي به أحياناً إلى ترك أعماله الخاصة من أجل المشاركة في عمل خيري باعتباره يمثّل بطن قبيلة فلان، ولا يمكن أن يغيب. وتعزل الجماعة ذلك العضو الذي تكثر غياباته. ومن شروط العضوية ما يلي:

1. أن يكون العضو ممثّلاً لبطن من البطون (أذروم)؛
2. أن يكون ممثّل البطن ذا أخلاق عالية؛
3. أن يكون مشهوداً له بالصدق؛
4. أن يكون ذا جاه أو مال؛
5. أن يكون ذا فصاحة؛
6. أن يكون صاحبَ رأي صائب؛
7. أن يكون كبيرَ السنّ.

تعمل الجماعة على تقنين القوانين، وسنّ التشريعات، وجمع الأموال من البطون والعروش. فقلتُ لهما: وماذا تفعل الجماعة بهذه الأموال؟ قالا: في العادة تبقى الأموال في رصيد الجماعة نقداً عند الغني/ صاحب جاه ومال، بوضع ضبط كتابي لكلّ (دُورُو) تدخل الرصيد، وتتصرّف الجماعة في هذه الأموال عند: الصدقات العامة/ شقّ الطريق/ شقّ الترعة/ حفر الآبار/ سدّ غرامات العرش/

استرداد أراضي مغتصبة/ تخليص مساجين من عرش يَطْلُب الفدية/ دفع الديّة عن أفراد ضعاف مادياً.

وفي تأكيد صارم لمقام المكان بهيبة الجماعة، قال أحد الراويين: أصدقكم القول بأنّ الجماعة لها هيبة كبيرة، وهيبتها تبدأ من مكان تجمعها الذي يحمل الاحترام والمهابة، فمكان تجمّع الجماعة كان محترماً مُهاباً؛ بحيث ما يمرّ به أحد إلاّ ويتجنّب المكان احتراماً وخوفاً من التعزيز الذي تستعمله الجماعة، فمن يُستدعى لذلك المكان يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى، فما إن يصل المكان إلاّ ويقول: الرأي ما تراه الجماعة، وأنا فرد من أفراد القرية، فلا أخالف الجماعة، وأنا مُسَلّم مكتّف للجماعة. وقال أحدهما: إنّ بعض العامة من الناس لا يأتون المكان نهاراً خوف الوصول إليه ذات يوم، بَلْهَ الحديث عن المرور بقربه ليلاً فهو من باب المحال؛ حيث تخرج منه الأغوال.

إنّ روح الجماعة في تراثنا من المسائل المؤكّدة والمشجّع عليها، وتعني في ما تعني أنّ الفرد لا ينقطع عن الجماعة، ولا ينقطع عن تجسيد صوَر فِعْل الخير من مثل: الأمر بالمعروف/ فضّ النزاعات/ رفع الحيف والظلم/ مراقبة وحراسة الدُشُر... ولذا فالفرد عندما يكون منضوياً تحت رأي الجماعة يأخذ عنها هذه الأفكار، ويعمل على توريثها أولادَه، وبذلك يسعد الناس جميعاً، ويعيشون في سلام وأمن، وعلى رأي واحد مطمئنين.

وعوداً على مسألة **ثاچمعيث** أو **ثاجماعث** أو **تاجماعت** فهي أداءات مختلفة لمصطلح واحد يعنى به: مجموعة من الناس العقلاء وكبار السنّ الذين يقومون على فعل الخير في قرية أو في ضاحية أو دوّار أو عرش. وتعني الكلمة في معناها العام: الجماعة والجمع هو الضمّ على طريقة مخصوصة. ومنها في اللغة مصطلح الجمع الذي يتجاوز العدد فيه ثلاثة فما فوق. ولهذا يُقال عند القبائل أچماع ليمان. وهو قسم عظيم لو تعلمونه، وكل من يتقدّم أمام الجماعة لا يمكنه إلا أن يقول الحقّ صاغراً ودون شعور، وهذا أمام الملأ.

كما تعزل الجماعة كلّ من لا يحترم آراءها، أو لا يطبق تعليماتها، ونجد المعزول مثل الحمار الأجرب، فلا يكلّمه أحد، وبهذا الردع الأخلاقي يمتثل لرأي الجماعة، ويخضع صاغراً، وقد يغرم بغرامة مالية إذا تاب عن غيّه.

ظهرت **(ثاجماعيث)** في الوقت الذي كانت المجتمعات البربرية لا تشكّل كثافة سكانية معتبرة وكانت وسيلة من وسائل التأسيس للقوانين الضابطة للمجتمع المازيغي، وقد زكّاها الإسلام باعتبارها تسلك مسلكاً أخلاقياً فيه الدفاع عن الحقّ وردّ المظالم ونصرة المظلوم، ولهذا لا تخلو

ثاجمعيث من وجود فقيه (شيخ) ويكون من المرابطين، وقد يكون عضواً أو يُستشار في الأحكام، ويكون من الحافظين للقرآن الكريم.

أنكرتْ جبهة التحرير الوطني هذا النظام، واعتبرته من النظام البالي، لأن الجبهة تنظر إليها على أنّ من الجمعيات التي يقودها رجال الدين الذين لا يفعّلون في المحيط من أجل التغيير، حيث تسود النظرية الدينية المتسلّطة والتي ترفض الثورة، باعتبار أنّ الثورة عند بعض المشايخ هي تسليط وعذاب من الله، فعلينا التزام الصبر حيث الفرج، ولا يجب أن يُثار على الاستعمار، ولهذا عملت الثورة على تحديد صيت الجماعة، كما أنّ الحزب الحاكم بعد الاستقلال منع عقد جلسات ثاجماعيث.

وبالنسبة لبعض الخصوصيات ذات العلاقة بثاجماعيث فإنّه لا تحضّر صغار السنّ في اجتماعاتها ولا يقبلون للأعضاء استصحاب أولادهم، وكانت اجتماعاتهم أسبوعية وعلانية بعد صلاة الجمعة في رواق المسجد أو تحت شجرة زيتون قريبة من المسجد، أو في سقيفة مشتركة هي مقرّ الجماعة. وتعمل الجماعة على مناقشة مختلف القضايا بصورة علنية، ولا تفصل في مسألة ما إلاّ بعد البرهان والحجّة والدليل، ويكون الفصل بصورة جماعية وبالتراضي مع جميع الأطراف.

اكتبْ عنّا ما نقول: لقد سنّ المجتمع المازيغي لقاءين سنويين هامين يلتقي فيه العرش للنظر في أحواله ومشاريعه، ويتّخذ من الصدقة (الوزيعة) سبباً للاجتماع، وهذان اللقاءان هما:

أ . لقاء الخريف: هو لقاء عام كبير تُذبَح فيه الثيرانُ تيمّناً بموسم تساقط المطر والثلوج، وفألاً بعام فلاحي مثمر. وهذا اللقاء يُعتبر فاتحةَ الدعوة للخير والتفاؤل، ويَدعى الناس إلى امتثال الأخلاق الكريمة، وبخاصة التسامح ونبذ العنف، والتآزر في الملمّات والأفراح. وفي هذا اللقاء تُعرض المشاريع المستقبلية ذات الشأن العام مثل: شقّ الطريق، حفر الآبار، حفر مجاري السواقي، ترميم المباني، بناء الأكواخ، تهيئة الأراضي الغابية لصالح الأراضي الفلاحية...

ب . لقاء الربيع: يكون هذا اللقاء أقلّ من لقاء الخريف في العدد والعدّة، وغالباً أنّه ليس في الرزنامة الدائمة التي لا بدّ أن يجري مثل لقاء الخريف الذي هو مقدّس إجراؤه. هذا اللقاء الربيعي يحصل عندما يطيب أَلْمَرْمَزْ وهي نذير بداية ظهور الثمار والخيرات، وبداية قطف الخيرات من خلال التّعب الذي أضنى الفلاحين في فصل الشتاء. في هذا اللقاء تُذبح الضأنُ فقط، ويتمّ توزيع اللحم على (ثيخامِينْ/ إزكارَنْ) وقبل الدعوات؛ تجلس الجماعة للتداول حول القضايا العالقة من مثل: علاج قضايا الوراثة/ أخذ القرار في النّساء المعلّقات/ معالجة الخصومات/ اقتراح المشاريع... ويتمّ البتّ في كثير من القضايا قبل توزيع اللحوم، ثمّ تتلو الدعوات، وسبق للحم أن توزّع فوق فروع شجيرات النبق في الأرض في شكل كُتَل حمراء، وتوزّع على البطون حسب عدد

أفراد كلّ بطن. فكلّ ثلاثة (3) نفر يعدّون **أزگار**، وإذا وصل العدد إلى ستّة (6) يعدّون **ثونت**. وبعملية بسيطة يكون التوزيع العادل بحسب عدد أفراد كلّ بيت.

وما يخرج من هذين اللقاءين (الخريف والربيع) لا بدّ أن يكون موضع تقدير واحترام وتطبيق فقلتُ: فإذا خرج من لم يراعِ حرمةَ هذه السُّنة، ولم يحترمْ هذه القوانين فما عاقبته؟ قالا: اعلمْ بأنّها حدود وُضعت في مجتمع رعوي ضيّق، وقد تحصل فيه بعض الإكراهات والتجاوزات أحياناً، فتقوم الجماعة على إصلاحها قبل استفحالها، وذلك بسلسلة من القوانين التعزيرية، وعلى هذا التراتب:

1. التنبيه: ينبّه المعتدي لبعض الهَنَات التي أحدثها، على ألاّ يعود إلى فعلها مرة أخرى، من مثل الرعي في أرض غير أرضه، فيقرّ بعدم تكرار فعلته؛

2. التغريم: تقوم الجماعة بتغريم المعتدي بقيمة مالية رمزية، وهي تعبير عن التعزير كي لا يتكرّر الفعل، فيقوم (الطَّامَنْ) بدفع تلك القيمة عن ممثله، وبدوره يستخلصها من صاحبه؛

3. إعطاؤه مهلة مراجعة نفسه والامتثال لرأي الجماعة، ودعوته لإعادة النظر في ما ارتكبَ من خطأ ويطلب السماح؛

4. من حقّه الطعن في رأي الجماعة على أن يأتي إلى الجماعة للدفاع عن رأيه، ومن ثمّ يقع التداول مرّة أخرى، وما تخرج به الجماعة غير قابل للنقض بتاتاً، بل يخضع للتطبيق والامتثال؛

5. العَزْلُ: هو نوع من القوانين الردعية إذا تجاوز المعتدي حدوده، فتعزله الجماعة بعد تنبيهه وإشعار (الطَّامَن/ البطن) وعند تطبيق القانون/ ثيليسا يلتزم كلّ الناس بها. والعزل يكون بالعديد من الطرائق؛ حيث لا يردّ عليه الناس السلام/ لا يُجالس/ لا يُسلّم عليه/ لا يزوّج/ لا يُركب/ لا تُتَبادل معه المصالح المرسلة...

إنّ هذه العقوبات هي عقوبات نفسية أكثر منها مادية، وتجعل الشخص لا يخرج عن النظام الذي سنّته الجماعة، وهذا خوف الضياع؛ لأنّ المجتمعَ المازيغي في تلك العصور صغيرٌ وبسيطٌ، فإذا لم يضع تلك الحدود فسوف يذوب في جماعات أخرى، بل لا تبقى له خصوصياته.

2. الصَّدَقَة: وتسمى في الدارجة (لَوْزِيَعة) وهي نوع من التضامن البيني الذي تقيمه العروش من خلال اللقاءين المذكورين سلفاً، لقاء الخريف أو بداية الحرث؛ وهو الأول، ثمّ لقاء بداية الصيف وهو الثاني، وتقام لَوْزِيعة في اللقاءين، وهذا بغرض معالجة المصالح العامة واللحم وَسْمَة، ولا يقام اللقاءان بغرض أكل اللحم؛ لأنّ المجتمع في أصله رعوي، فهو مشبع من جانب أكل اللحم، ولكن القضية في استعجال الوزيعة واستلذاذ طعامها، وما تسفر عنها من قوانين ونتائج وتقديم حلول

للمشاكل، وفضّ للنزاعات، ونشر الطمأنينة. ولهذا يتنادى لهذا المحفل مرتين في العام ليعالج قضايا شائكة لا يستطيع حلّها إلاّ العرش من مثل: الفصل في مسائل النّساء المعلّقات، النظر في التعدية على المصالح المشتركة/ ردّ المظالم/ مناقشة التعدّي على العادات القبلية/ النظر في الخصومات... يتنادى الناس للصَّدَقة، وهي غير محدودة، ويحصل فيها أن يتحمّل الغني الفقير، وكلّ الناس يأخذون من لحم الصدقة ممّا قلّ منه أو كَثُرَ. تضع الجماعة نصيباً إضافياً لسدّ النسيان أو تقديمها للغرباء، فإذا بقيَ اللحمُ الإضافي يُباع قليله بعد أن يوزّع أكثره على الغرباء والنُفَسَاء والفقراء وعابري السبيل. كما تقسم الجماعة اللحم على فرعين: . أزگار: فيه ثلاثة (3) أفراد . ثُونْت: فيها ستّة (6) أفراد.

وهكذا نعلم أنّ الصّدقة لها وقتان: الوقت الأول أن تكون في نهاية الخريف ويسمّونه: (ثبورث أوسگاس) ويسمّون هذا اليوم **(أَوْجَب)** وهو أول يوم يكون فيه إخراج المحراث؛ حيث يعدّ الناس في ذلك اليوم أكلاً مميّزاً، وفيه يقدّم (أَعَبُّوزْ) والتين والرمان للأولاد احتفاءً ببداية موسم الحرث. والوقت الثاني أن تكون في أواخر الربيع، وفي شهر مايو وهو موسم قطف (أَرْكُول) وفيه البداية لجمع الأرزاق (أَلْمَرْمَز) أو ما تسميه العامة الآن (لَفْرِيك).

3. ثيمَشْرَطْ: وهي غير الصدقة، وتعدّ من الصَّدَقَة من وجه أنّه يتمّ فيها توزيع اللحم على المشتركين وبنفس الإجراء الذي تتّخذه الصَّدَقَة، ولكن بأقلّ عدد بشراً وعدّة واستنفاراً. وعلى العموم فثيمَشْرَط تعني شراء الذبيحة بقيمة معيّنة بسيطة تُوزّع على المشتركين فقط، حيث يتمّ ذبح الذبيحة للاستفادة من لحمها الرخيص لأنّه بيع بما يشبه بيع لجملة. وتكون ثيمشرط خاصة وضيّقة، ويمكن أن تكون في حيّ واحد أو بين قبيلة واحدة فقط، أو عائلة واحدة، هدفها أكل اللحم، فلا تطرح فيها قضايا العرش، وليس لها وقت معيّن. والفرق بينها وبين الصدقة أنّ ثيمشرط ليست صدقة، بل خيار واتّفاق بين مجموعة من الناس بمناسبة ما، حيث يشترون ما يذبحونه بسعر رخيص، ولما توّزع تحسب القيمة الإجمالية على عدد المشتركين، وكلّ يدفع حصّته بالتساوي. وأما الصَّدَقَة فإنّ الغني يتحمّل الفقير، وكلّ الساكنة يستفيدون من اللحم، إضافة إلى الأجانب والفقراء وعابري السبيل، والذين انقطعت به السبل.

4. الحُبُوس: الحبوس لغة يعني الوقف، وقف الرجل ماءً بمعنى حبسه وجعله موقوفاً في سُبُل الخير. وفي العموم ما أوقفه صاحبه من أرض أو زيتون أو كروم، فيحبس أصله، ويسبل غلّته على الجماعة وهي مخصّصات أو هبة أبدية لخدمة عامة، تخرج من ذمة صاحبها، وليس له أولوية الشَّفْعَة، بقدر ما له أولوية الشراء إذا أعملت الجماعة في الحُبوس البيعَ. والحُبوس بالمعنى العام أن شخصاً أو جماعة يحبسون أرضهم أو أشجارهم عن كلّ حقّ لغيرهم، وترصد منافعها

لجهة أو جماعة. والحُبوس لا يحتاج إلى قبول الموقوف عليه، ولا سيّما أنّ الموقوف عليه قد يكون جهة برّ وإحسان.

اهتمّ المازيغيون بظاهرة الحُبوس (الوقف) باعتباره تضامناً وتعاوناً وتراحُماً، لأنّ الجماعة هي التي تقوم بعبء الأعمال الاجتماعية، وتنشئ المؤسّسات، كما كان الحُبوس المصدر الأساس لقوّة المجتمع وكان يمثّل الاستغلال المتجدّد اللامتناهي لمجمل الفعاليات النفعية اجتماعياً، وازدادت ظاهرة تقديم الحُبوس انتشاراً في العصر العثماني، واستحدثت فيه آليات جديدة، ولا تزال قائمة في بلاد القبائل إلى يومنا هذا، رُغم ما تشهده في الوقت المعاصر من انحصار بسبب نقص العقار الذي يعرف انحصاراً حيث إنّ المجتمع المازيغي اتّخذ من الجبال بيوتاً وسكناً، فليس له ممّا يهبّ الآن من مزيد؛ لقلّة الأراضي.

نشأ الحُبوس في أصله لرفع الحرج عن عدم إنشاء المشاريع المشتركة، وكان يشمل بالخصوص: وقْف الأراضي، وقْف الأشجار، وإنشاء السقايات، وتسبيل الماء، وقف أماكن الأسواق، وقف أراضي للحمامات، وقف الحظائر، وقف المسالك... وعلى العموم كان كلّ ما يدخل في المصالح المرسلة يحتاج إلى وقف، حيث تعمل الجماعة على تخصيص قطعة له من الوقف الذي دخل في سجل الجماعة، وكان الخير كثيراً آنذاك.

ولقد اعتبر الحُبوس أملاكاً مقدّسة لا يجوز استعادتها، وأحياناً لا يجوز بيعها إلاّ لضرورة خاصة وجوّزوا تبديلها بما يلبّي الضرورات والمنافع المشتركة. لم تقبل الجماعة قديماً وضع شروط للواهب الواقف، وما دام الوقفُ تمّ على الخيار فبطل الشرط وصحّ الوقف، ولا تقبل الجماعة الحُبوس الإكراهي، كما لا تقبله عن شخص لا يملك الوَهْب، أو عمّن له زراية مع الجماعة، أو عن شخص له مشاكل مع الإخوة أو الجيران، أو عمّن يوصف بالمتردّد.

وإذا حدث أن تغيّرت وظيفة الأرض المحبوسة فتبقى في صالح الجماعة، تتصرّف فيها بحسب ما يقع الاتّفاق على تغيير خدماتها، وتبقى الحبوس دائماً في خدمة الشأن العام دائماً، مهما تغيّرت وظيفتها ومن هنا فإنّ المازيغيين سنّوا قوانين تحمي الحُبوس؛ حيث يجب تدبيرها تدبيراً جيّداً، واستغلالها للشأن العام، وهو واجب الجماعة وجوباً عينياً؛ حيث تسهر الساكنة على تنمية الحبوس، وعدم التسامح في التفريط فيها، وبخاصة إذا وقع الطلب على استرجاعها، فتردع الجماعة الواهب المسترجع بما لها من قوانين ردعية صارمة؛ حيث ينظر إلى الحُبوس على أنّها من الأشياء المقدّسة التي تعلو على كلّ الناس، ولا يحقّ للواهب استرجاعها أو التراجع عمّا أعطاه رضا لا

إجباراً، وإذا حدث أنّ الواهب خرج عن طوع الجماعة حيث استردّ أرضه فرطاً وقوّة، تطبّق عليه قوانين العزل.

5. أَقَانْدُوا[85]: اعلم يا أنّ شجرات الزيتون المسماة بـ (أقاندوا) لها ما لها من حقوق وواجبات فَعَلَى من يوجد في أرضه (أقاندوا) أن يتفهّم الطرف الثاني، ويكون التعامل بالحُسنى، بتبادل المصالح تنازلاً أو بيعاً، وإذا استعصى طرفٌ على طرف آخر، فهاكِ هذه الحدود التي حدّدها أجدادُك.

فلصاحب الزيتون حقوق على صاحب الأرض كما يلي:

1. يسمح لصاحب الزيتون الدخول في الشتاء لقطف زيتونه، فيُعطى له حقّ الطريق؛

2. أن لا يطيل إقامته ولا يقطع عمله على أيام، وصاحب الأرض ينتظره، وبخاصة إذا كان أقاندوا في موضع الحشمة أو في المكان المسيّج؛

3. يجوز لصاحب الزيتون نزع متعلّقات الشجرة وتشذيب أشجاره، ويرمي بالمقطوع خارج أرض صاحبه، كما يسمح له بحرث ما تحت أشجاره دون تجاوز ظلّ الشجر؛

4. يمكن أن يجري عليها صاحبها نقشاً داخليا للتهوية في انتظار سقي ماء السماء؛

5. يجري لها مجرى مائياً من مطر طبيعي، شرط ألاّ يلحق مضرّة، وعلى أن يُعْلَم صاحبُ الأرض؛

6. لا يحقّ لصاحب الأشجار جلب ماء السقي أو حفر محبس ماء في أرض ليست له، إلاّ إذا كانت الزيتونة على طرف الطريق؛ فيمكن لصاحبها أن يحفر لها مجرى مائياً في الشتاء؛

7. إذا كانت أشجار أقاندوا بها ساقية سابقة، وكانت تسقى، فتبقى الساقية والمجرى المائي كما هو دون تغيير في أصل الأرض.

وأما ما على صاحب الأرض هو ما يلي:

1. يحقّ له أن يبدلها بأشجار بعيدة خارج تلك الأرض/ الضيعة؛

---

1. **هي شجرة/ شجرات زيتون يملكها شخص في أرض ليست له.** وإنّ المازيغيين كانوا يقدّسون هذه الشجرة لأنّهم يتعالجون بمنتوجها (الزيت) وعند اقتسام الأخوة للأراضي المشتركة، كلّ يأخذ أشجار الزيتون في أرضه، وفي حالة أنّ أحد الإخوة كانت في أرضه (حصّته) عدد أشجار الزيتون أكثر من حصّة أخيه، هنا تضطرّ الجماعة إلى إعطاء الأخ حصّته بالتساوي؛ مقطعين من شجرات أرض الأخ الذي أخذ أشجارا أكثر. فتكون الأرض للأخ، وبعض أشجار الزيتون للأخ... وهذا ما يسمى عند القبايل **(أَقَانْدُوا).**

2. يحقّ له أن يشتريها بثمن تحدّده الجماعة، حالة ما إذا أراد بناء سكن أو توسيعه، أو تسييج أرضه كما لا يحقّ للأخ البائع فرض قيمة بدعوى (التحصين) وهذا مرفوض قطعاً. فيتنازل الأخ/ صاحب الشجرات أقاندوا بقيمتها الحقيقية دون الأخذ والردّ؛

3. يحقّ لصاحب الأرض شراء الأشجار حالة ما إذا ثبت نزاع بين الطرفين قد يؤدّي إلى حوادث لاحقة بسببها، كون أحدهما يأتي أرض خصمه في موسم الشتاء؛

4. يحقّ لصاحب الأرض قطع الفروع التي يراها مسبّبة لصعوبات الرؤية/ البناء/ الوسخ/ التهوية... بعد إعلام صاحب الأشجار.

6. ثِيوِيزِي: عادة قديمة عند القبائل، وهي إجبارية على كلّ الناس، ومن الأمور التي يظهر فيها التعاون والروح الجماعية، تُقام للأعمال الكبرى التي لا يستطيع فرد أو أفراد قلائل إنجازها، فلا بدّ من جهد بشري كبير، وهذا من أجل بناء المنازل/ بناء المحابس المائية/ بناء القناطر/ تمهيد الطرق والأزقة/ نقل الحجر المستعمل لصفائح القبور/ تسقيف الدُور/ جلب العَتَلات/ شقّ الطريق/ حفر الآبار/ مساعدة الفقير في بناء الدار/ بناء المسكن المتهدم/ تحريف مجرى الوادي/ تغيير مجرى الساقية/ حفر الساقية... وبالنسبة لجلب العتلات مثلاً يضع صاحب الحاجة الحبال مساءً في مقرّ الجماعة، ويُسأل عن صاحبه، ففي الصباح تهبّ الناس إلى الغابة لقطع العَتَلات المطلوبة. هذا ولا تزال (التويزة) إلى الآن مظهراً من أنبل المظاهر وأشرفها في ميدان الاقتصاد العام، رغم ما لُوحظ عليها من تقهقر في السنوات الأخيرة؛ حيث إنّ أغلب ما يُنجز الآن من الأعمال يكون بواسطة الأجر ذات التكلفة الباهظة ولذا أصبحت ظاهرة التويزة تقريباً في (كانت عند الأجداد). وعلى العموم فإنّ هذا العمل الجماعي (تويزة) فإنّه نوع من التضامن بين الساكنة، وهذا يعني أنّ الجماعة يمكن أن تُعْلِيَ من شأن الفرد والفرد ليس له دور إلاّ داخل الجماعة، يعني في ما يعني (الجماعة تغني الفرد، والفرد لا يستغني عن الجماعة) ومن هنا نعلم لماذا أبدع المازيغيون في العمل الجماعي الذي هو نوع من تخفيف الحمولة على غير القادرين، وأنّهم يقولون: ارزقْ عبدي من عبدي.

7. أَسْقّفْ: التسقيف عمل جماعي يدخل في إطار التويزة، حيث يأتي صاحب الشأن بالقِفاف إلى مقرّ الجماعة، ويُسأل عن صاحبها، وفي الغد يهبّ الناس باكرين، فترى فرقة تبدأ في قطع العَتَلات وإخراجها من الأحراش، وفرقة أخرى تعمل على شدّ الحبال لحمل العتلات، وفرقة ثالثة تبدأ في نسج القصب، وفرقة رابعة تخلّط التراب بالماء، وفرقة خامسة تستعد لحمله/ رميه على السقف، وفرقة سادسة جاهزة لوضع القرميد، وهكذا. وما إن ينتهي التسقيف ينال المعاونون حقّهم من الأكل

بشبع. فيقدّم لهم التين والسمن والكسكس والرائب والزيت وما يتبع هذا من الثريد، وهذا حسب طبيعة الأكل والثمار المتوفّرة في ذلك الموسم. وفي العادة فإنّ صاحب السقف يقوم بالتويزة، فيقدّم أجود وأفضل ما لديه من أكل، وبخاصة ما تعلّق باللحم المذبوح الجديد، أو القديد، وكذلك ما يملك في بيته من مخزون غذائي لمثل هذا اليوم. وكان المفقود آنذاك هو القمح، ولذا لا يقدّم إلاّ الشعير ومشتقاته، كما لا تقدّم القهوة لأنّها كانت عزيزة على كلّ الناس، فلا يشربها إلاّ الأغنياء، فحتى عند الأغنياء لا تشربها النسوة.

وتتواصل علمية التسقيف حتى النهاية، وفي وقت الغداء يتمّ تقديم الغداء، وفي المساء يقدّم لهم العشاء بصفة عفوية ودون تكليف، ويعدّ ذلك اليوم بالنسبة لصاحب السقف يوم فرح؛ حيث يسيل الدم؛ بأن يذبح عجلاً أو ماشية، ويطعم في المساء كلّ من يمرّ على بابه.

8. الجنائز: قلتُ للراويَيْن: لماذا يتعطّل كلّ الناس يوم الجنازة؟ ويُمنع البيعُ والشراءُ حتى يتمّ الدفنُ؟ أجابا: إنّ الجنازة تأتي بغتةً، وكانت الأمور آنذاك غير ميسّرة، فلهذا يتجنّد البطن وربّما القبيلة من أجل: جلب الماء/ الاحتطاب/ طحن الشعير/ توزيع المهام بحسب مقتضيات الجنازة/ الاستعداد لمقابلة المعزّين... أضف إلى ذلك أنّ القبائل كانوا أقليّة، فإذا تغيّب أحدهم يظهر غيابه، فمن يسدّ مكانه، ولذا كان حضور الجنازات إجبارياً، وغلق المحال واجباً، والتجنّد مع صاحب المصاب ضرورياً، فيوم لك ويوم عليك. ولكن هناك بعض الأمور التي تراعى من مثل الشخص الذي تغيّب بعذر قاهر فله ذلك، ومن كان مسافراً فمقبول غيابه، ومن علم وسافر أو اشتغل في ذلك اليوم، فعليه أن يدفع أجر اليوم غرامة للجماعة. وإذا لم يدفع سوف يُنبّه طامنه بأن يغرمه إجباراً. وفي العادة يقوم الجار القريب/ أو الإخوة مقام الجار في تحمّل المعزّين أو تقديم الأكل، أو تفريغ داره، وهذه سنّة قديمة بأنّ الإخوة أو الجيران يقومون بتحمّل جزء كبير من مصاب أخيهم أو جارهم، وهذا ما يسمى: يا شاري دالة.

9. حقوق الجار: أول الحقوق الاحترام وعدم الإضرار، والوقوف معه في المناسبات المحزنة والمفرحة، ومن ثمّ يكون التسامح الذي هو عماد التعايش في كلّ الأحوال. ومع ذلك فإنّ المازيغيين وضعوا بعض المحدّدات التي يفترض أن تُحترم بين الجيران خوف عاقبة الأمور، وهي عدم غرس الجار الزيتونة على حدود جاره، وعليه أن يغرسها بمسافة لا تقلّ عن 4 متر، وإذا بنى الجار بيتاً عليه أن يترك حقّ الساقية، ولا يفتح نافذة إلاّ إذا بَعُدَ عن حدود جاره بمسافة لا تقلّ عن 4 متر، وفي الطابق الأول لا يحقّ له فتح نافذة مهما كانت، اللهم إلاّ كوّة صغير في الأعلى للتنفّس أو كوّة المطبخ حيث لا يُرى منها شيء.

وإذا حدث أنّ الجار يريد أن يبيع أرضه، فالشفعة تعود للإخوة بالدم، شرط أن لا تتجاوز مدة الشفعة الوقت المسموع، أي الوقت المشهّر بها في القرية، وإذا لم يشفع أهل الدم فللجار حقّ الشَفْعَة كما أنّ الجار ذي الجنب تكون له أولوية الشراء بعد الإخوة في الدم، على ألا يحصل البيع بالتحصين؛ حيث الجماعة هي التي تسعّر، وعلى الجار أن يمتثل دون مرافعة أو مزايدة.

10. أَلْحَمْگا: ما يلحق الماشية بكلّ أنواعها (الضأن/ الماعز/ البقر) من فَجاءة الموت، ويلحق بها قبل الموت، أو الخنق؛ بحيث يحلّلها بإسالة دمها. والحمگا نوع من المعين أو الحَتْم والإجبار على العائلة/ الأقرباء/ الجيران/ البطن/ القبيلة. وتتحمّل هذه الأفخاذ الخسارة التي حصلت لشخص ما في القبيلة نتيجة موت فجائي لماشية لها قيمة. ويشترط أن تذبح ذبحاً طبيعياً بإسالة دمها دون غشّ، ثمّ يُعلِن صاحبُها عن الحمگا. وبعد الذبح يحصل توزيع اللحم على حصص (ثيخامين/ إزگارن) ويأخذ كلّ بيت حصّته من هذا اللحم بالرضا أو بالإجبار؛ فيوم لك ويوم عليك. وللحمگا شروط هي:

1. أن يكون صاحب الماشية قد ذَبَحَ ماشيته ذبحاً طبيعياً؛
2. أن يكون ثقة ولا يكذب وله مصداقية؛
3. أن يقبل بثمن الحمگا التي تحدّدها الجماعة بنصف قيمتها أو بثلثها فقط؛
4. أن يجمع أمواله بعد مدّة حتى استيفاء الناس للمعلوم.

وبالتنصيص على ذلك فإنّ صاحب الحمگا عليه أن يكون أميناً حيث لا يجعل الماشية غير المذبوحة حمگاً، أو التي اختنقت، أو التي لم يلحق بها ذبحاً. فتروي رواية أنّ شخصاً من قبيلة (أَعَلاوا) في عرش (أَثْواعْيان) بعين الحمام، له جماعة من البقر، فذات يوم ماتت له بقرة في شقّ الجبل، فذبحها بعد موتها، ورآه شخص عندما كان يجرّها من الشقّ وهي ميّتة، وتنادى صاحب الماشية على القوم بالحمگا. ولما أعملت القبيلة ملازم تقسيم اللحم، أنشد ذلك الشخص الذي رأى فعل صاحب الماشية فقال:

أَيَذَفَّلْ يَوْثان ذا أَگذورارْ سَنيگ أثعبـاسْ
يَرْزاد أسيسنو يَرْنَاد أكوروشْ أَزْگار أكـي ذا مُورْذوسْ
مَدان نَفْقَنْد ذا أكـضـلاعْ نك نفقغد ذو أكـپرنوسْ

وعند ذلك فَهِمَت القبيلة/ الجماعة أنّ البقرة ماتت قبل أن يلحق بها صاحبها، وغير جائزة للأكل لأنّها غير مسفوكة الدم، وأُغْرِم صاحب الحمگا باستقدام ثوريين للذبح تكفيراً عن هذه المحاولة غير الأخلاقية.

11. حقّ الطريق: طريق القرية ملك مشاع، يحترمه كلّ الناس، ويحافظون على دوامه واتّساعه وعدم الإضرار به. وكلّ من رأى منكراً في الشأن العام ينبّه الجماعة بالأمر، والجماعة هي التي تتحرّى بعد ذلك. سنّت وتسنّ الجماعة حقّ الطريق وحقّ المسالك العامة بما لا يقلّ عن مترين (2) عرضاً، فإذا غرست غرساً تحترم قواعد الغرس؛ حيث تبعد الشجرة المغروسة بما لا يقلّ عن أربعة 4 مترات عن أرض الجار، أو عن الطريق العام، كما أنّ الطريق لا تردّ عليه الجداول أو ساقية الشتاء. إنّ حقّ الطريق والمسالك الاتّساع؛ بحيث تمرّ البغلة بحمولة (أَلْمَضْلَقْ)[86] وكان الأجداد يقيسون هذا العرض على حمل المرحوم؛ حيث لا يجوز أن يُلوّى المرحوم/ الميّت عندما يحمل نعشه على ظهر الدابة بالعرض، ولا يجب أن يكون الطريق عائقاً أمام كلّ ما يخلّ بآداب القرية.

وللطريق احترامه؛ حيث لا تُرمى فيه الأوساخ، ولا تُخرج إليه روث الحيوانات أو مجاريها، ولا يُحفر فيه، ولا تُوضع له المطبّات أو الممهّلات، بل يحرس كلّ الناس على تهيئته وتصليحه كلّما حدث فيه انجراف. وتدعو الجماعةُ الساكنةَ مرّة بعد موسم الأمطار لإصلاح الطريق العام الذي أفسدته الأمطار، فيهبّ الناس بما لديهم من وسائل وأموال لتصليح الطريق؛ باعتباره من الشأن العام.

وهناك طرق أخرى ومسالك عديدة؛ فكلّ واحد له تسميته حسب وظيفته، فنجد طريق (البايلك) وهو الطريق الذي أقامته الدولة قديماً، وهو الطريق العام الذي تسلكه الجرارات وما تسحبه الحيوانات من مقطورات، ويسمى (أڤريذ أُوكَرُوسْ) وهناك طريق الجهة؛ وهو طريق بين القرى يضعه العقال بتهيئته وإقامة جوانبه، وهو عبارة عن مسلك ضيّق لكنّه لا يقلّ عن مترين (2) ويتحوّل بالتقادم إلى طريق عام، وهناك طريق القوافل؛ حيث تمرّ منها القوافل الوافدة من الصحراء، وتسلكها مرّة أو مرّتين خلال السنة، وفي هذه الطريق أماكن للتوقّف والتزّود بالماء. وهنا طريق المحجّبات: هو طريق للنّساء دون الرجال، ويكون بين الديار والأزقة الضيّقة، ولا يرتاده الرجال بتاتاً. وعلى ذكر طريق المحجّبات فإنّ المرأة يُخصّص لها صباح كلّ يوم للذهاب إلى العين للغسل وجلب ماء الشرب، وهي لا تخالط الرجال إلاّ الأقرباء الذين تربطهم بها قرابة الدم، وإذا مَشَيَت المرأة بمفردها لا يكلّمها أحد، ولا يُنظر إلى وجهها، بل يوسّع لها الطريق احتراماً، ويفسح لها لتمرّ إكباراً، ويكون غضّ البصر إجباراً، والبُعد عن الطريق إجلالاً. وإنّ أكثر الأماكن التي تردها النّساء هي الينابيع فتأتيها من أجل ملء القلل والجرار ونقف قليلاً في هذه النقطة لنرى أنّ المرأة تحمل الماء على رأسها مراراً وتكراراً، وتقوم بغسل الثياب والأواني في أوقات محدودة، وأثناء تواجدها في العين ينبغي عليها ألاّ يُسمع صوتها، وألاّ تلبس الخلخال في طريقها، كما لا يجب أن يشتمّ منها

[86]. شبيكة بَـِعَرْض مِتْرَيْن (2م) تُصنع من الحبال، يُوضع فيها الحصادُ عند نقله إلى البيدر للدّرس.

الطيب، لأنّها تتّجه أو تتواجد في مكان شبه عمومي. وإنّ كلّ متعلقات الزينة تلبسه في الأعراس ومناسبات الفرح، وقد تتكحّل أمام النّساء فقط، وربّما تأخذ بلباب امرأة أو عجوز تريدها عروساً لابنها.

12. عدم توريث المرأة: إنّ المازيغيين سنّوا طريقة في أنّهم لا يورّثون المرأة في العقار، وهذا بعدما زُوّجت إحدى بناتهم إلى غريب؛ حيث استولى على أرضها وباعها، ثمّ طلّق المرأة، وعادت إلى بيت أبيها منكسرة. ولذا احتاط القبائل من هذه المسألة؛ فأفتوا عُرفاً بأنّه لا تورث المرأة العقار، فأصبح ذلك من القوّة الملزمة بالعُرف، وأضحى اتّخاذ الثابت بالعرف كالثابت بالشرط.

صحيح إنّ المرأة عند المازيغيين لا يُعطى لها حقّها من العقار، ولكنّها مُصانة وشريفة بامتياز، لما لها من احترام في البيت وفي المجتمع، وتبقى كذلك عن طريق حفظ حقّها عند إخوتها الذكور، فإذا تكسّرت بها الدنيا وتغيّرت الأحوال للسوء فتجد بيتَ الأب ملاذاً، هذا البيت الذي يُستثنى دائماً من تقسيمه على الورثة، فهو البيت الذي تعود إليه النساء المنكسّرات (بنات الدم) وتعيش فيه القواعد من البنات. والمهمّ أنّ المرأة/ الأخت تجد حقّها من الأرض عند إخوتها الذكور مَصوناً، وإذا أتت بأولادها فتعيش في ميراثها هي وأولادها معزّزة مخدومة، وبمساعدة عينية من إخوتها الذين يتحمّلون النفقة عليها وعلى أولادها إلى أن يكبر أولادها ويشتدّون، وعند ذلك تصبح الأخت في حلّ من إخوتها، وهي في بيت أبيها، هذا البيت الذي يسمى (بيت العائلة) الذي لا يقسم بين الورثة. وعلى العموم فإنّ حقّ الأخت محفوظٌ عند الإخوة؛ حيث تأخذه طيّباً وعيناً من الزيت والغلال والمال. كما أنّ من حقّها أن تُزار في كلّ المناسبات من قبل أخواتها الذكور وجوباً، وتُدعى في كلّ ما يحصل من جديد إلى بيت أبيها أو إخوتها، وبخاصة الأخ الأكبر، ولا يحصل أن يتغيّر العشاء للأفضل، أو يكون هناك ذبح أو تقديم لحم عند إخوتها إلاّ وتُدعى كلّ الأخوات، وبخاصة الأخت الكبرى، وهذا لما لها من قيمة تقديرية في بيت أبيها وعند إخوتها؛ فهي ممثّلة الأمّ في حياتها أو في موتها.

13. أَرْهِينة: يقال له بالعربية (الرَّهْن) وهو نوع من استغلال الموقف الصعب، يحصل عند حدوث أزمة مالية عند المُرْهِن/ المرتهِن؛ أو في حالة وفاة في عائلة، وهو بحاجة إلى النفقة على الجنازة، أو في حالة التغريم أو دفع الفدية، أو التخليص من السجن، وفي كلّ الحالات التي يقع فيها صاحب الرّهن مجبراً على رهن أرضه إلى ساعة الفرج، وأحياناً يضطّر في الحالات القصوى إلى عرض أرضه للبيع، ولكن هذه الحالة قليلة؛ لأنّ الأرض عند المازيغيين مثل العرض فلا يُتسامح فيه أبداً.

يشتدّ البحث عن المستدين، وقد يظهر أحدهم، ويكون من المستغلين للوضع، يدلي بخدماته، ولكن بشروط قاسية، وهي رهن عقار أو شجر... ذلك ما كان في القديم، وكانت جاهلية جهلاء؛ حيث يُستغلّ الظرف الصعب، فيُشترَط على صاحب الحاجة رهن أرضه أو أشجاره مدّة من الزمن، مقابل دَيْنٍ عيني، على أن تعود الأرض/ الأشجار إلى صاحبها حالة استيفاء الدَّيْن. علماً أنّ تلك الأموال التي استلفها المرتهِن تحسب من الخراج (العُشر) الذي تأتي به الأرض/ الأشجار، فيقتطع المُرتهَن لحسابه حتى يأخذ حقّه كاملاً، وإذا انتهت المدّة ولم يستوفِ المُرتهَن حقّه كاملاً هنا يتغيّر الموقف؛ حيث تُصبح الأرض/ الأشجار مِلْكاً له، إن لم يدفع له الباقي والدين في الوقت المتّفق عليه. ومع ما في الرّهن من إجحاف في حقّ الراهن، فقد وضع الأجداد شروطاً بينية محدّدة تؤطّر عملية الرّهن، وهي:

1. حضور الشهود؛
2. تحديد مدّة استغلال الرهن؛
3. كلّ نمو في العقار يعود للمالك الراهن؛
4. استرجاع الأرض/ الأشجار يكون بعد الإبراء من دفع الدَّيْن؛
5. يجوز للراهن أن يعقد اتّفاقاً مع المرتهَن على بيع الرّهن لفض كلّ تنازع؛
6. في حالة عدم دفع الدّيْن بعد انتهاء المدة، يشتري المرتهَن الأرضَ/ الأشجارَ بسعر تحدّده الجماعة وتُصبح مِلْكاً له.

توقّف الراويان عند هذا البيان والتفصيل، فقالا: لقد أعييتنا بأسئلة مِلحاح، ولا بدّ أن نتوقّف عن الكلام المُباحْ، لنسترجع ماضي الأجداد في لقاء الصباحْ، بعون الله والفلاح.

الراويان: الحاج محمد أمزيان ماني + يحيى بوخرباب.

سكتَ الراويان عن الكلام المُباح، وبقي لي الكلام المُتاح الذي ألخصّ به العمل في ارتياح، عن فعل الأجداد المِلاح، وبَصُرتُ بأنّ هذه القضايا والحدود تدخل في العادات والأعراف التي اعتاد عليها المازيغيون منذ الأسلاف، وحافظتْ عليها الأجيال بالنقل بلا خلاف، فأصبحت مظهراً اجتماعياً يدخل في باب القيَم والعادات والأخلاق ذات الأهداف، وتلعب دوراً مهمّاً في تمتين القبائل وتوحيد صفوفها المخلاف، وتقوم مقام القوانين في الصحاف. وبصُرتُ بأنّ انتزاع العادة من سلوك الناس من المحال وليس من السهل تغيير الطبيعة الثانية في البشر على كلّ حال، فما كان قديماً لا يتغيّر في كلّ الأحوال ويتطلّب الترويض حتى يتحقّق المنال.

ولقد عملتُ على جمع المعطيات الموضوعية والمعرفية المتواترة الصحيحة من أفواه الشيوخ والعارفين وأصحاب الدِراية والرِواية والمتمرّسين، وكلّ من اكتسب تجربة أو عايش الأحداث المتّصلة بالموضوع أو أخذها عن رُواتها، كما عملتُ على التركيز على هذا المتواتر من أجل العناية بتقاليدنا وعاداتنا، وإبقائها محفوظة مكتوبة يعود إليها الباحثون والدارسون. والآن يجب الإقرار بأنّ التقاليد والعادات هي ذاكرة الماضي، وتذكرٌ ووفاء لمن ولّى من الآباء والأجداد، وعبرة واستشراف للأبناء الأجواد، فهل يجب إحداث قطيعة مع تراثنا بحجّة التغيير والتجديد، أم نتقوقع في داخل ذواتنا بحجّة الحفاظ على هذا التراث.

وبناء على ما أراه أقول: هناك تراث زاخر في عادات الأولين، وكان على هذا الجيل المحافظة عليه والعمل على تطويره بما يتلاءم ومعطيات العصر، والتخلّي عن العادات الضارة، لأنّه صار الارتباط بين العادة والتقليد مسألةً حتميةً، ولذا علينا أن نوازن بين استقرار العادات وهو غير ممكن وأنّ أيّ تمنيع للعادة أو أيّ قهر للذات كذلك غير ممكن، وعلينا أن نكون حيث يجب أن تكون النفعية التي تفرضها طبيعة المصالح المرسلة، وكلّ مصلحة تراعي فائدة المجتمع فهي مصلحة منشودة.

وإنّ المازيغيين سنّوا هذه الأعراف (إزَرْفَانْ) كمكوّنات قانونية للمحافظة على النظام القبلي، وكانت تعبّر عن إرادة الجماعة لتسوية الخلافات، وتقديم التسامح على التعارك، وتقنين الوقائع بالعُرف والتراضي عن طريق وسائل قانونية من أجل المحافظة على التوازن المجتمعي البسيط، وعن طريق المحافظة عليها يحصل السِّلْم الداخلي، وتعدّ قانوناً وضعياً ينظّم شؤون القبيلة التي لا يمكن وسمها بالفوضى أو اللانظام، وباتَ مطلوباً من المازيغيين أن يكونوا ذوي قِيَم إنسانية تنويرية مع محيطهم. وبهذه القيَم برهنوا كيف يتجاوزون الفراغ القانوني، ويُجسّدون مفهوم التعاون والتآزر والتضامن ويتفادون أيّ شيء يؤدّي إلى العُنف، ولقد كانوا وما يزالون وراء كلّ مبادرة تنسجم والقيَم الأخلاقية وطبيعتها الأصلية طاعة الجماعة فوق كلّ اعتبار.

ويجب أن نفهم بأنّ هذه الأعراف لم تأتِ عبثاً، بل استُمدّت من العادات اليومية المألوفة لدى الناس وتكوّنت بشكل تلقائي، ثمّ تحوّلت إلى نوع من الإلزام الأخلاقي والقانوني، وحَظِيَت بالاحترام وأصبحت لها قوّة تطبيقية. والأعراف هي نوع من القيَم الأخلاقية التي تخصّ العمل الجيّد والمستحسن وما استقرّ في النفوس من جهة العقول، وتلقفته الطباع السليمة بالقبول، ويمكن عدّها ميثاق شرف جماعي مجبول، تمثّل إرادة جماعية تحمي كلّ الناس في الفروع والأصول، وهذه القيَم والأعراف هي التي وَحّدت القبائل، وجمعت الشملَ لدى الأوائل، وسجّلت بطولاتٍ ومفاخرَ، وظلّت

دستوراً عُرفياً مؤطّراً لحياتهم في جميع مناحي الحياة، هدفه الإنصاف والعدل والعيش الكريم، وكانت العقد القوى المتين، الذي يلبّي حاجة المجتمع المكين، كلّما دعت الضرورة إلى اليقين.

وختماً أقول: إنّ العُرف بما يحمله من قيَم وعدل وتسامح وأصالة واستقامة وتدبير، وكلّ ما يشير إلى عمل الخير هي من الموروث المتجذّر في سلطة الجماعة المازيغية، فحياتهم هي أعرافهم وهي التي جعلتهم يتجاوزون الفراغ وقانون الغاب؛ حيث الأعرافُ تنطلق من مرجعية محلية ومن ميراث متجذّر له مشروعيته التاريخية. فتاريخ المازيغيين في عوائدهم وأعرافهم في سلوكهم، وهي التي تمثّل جوهر فلسفة المنطلقات الثقافية التي بقيت عبر العصور دون نسيان أو إهمال، وظلّت منفتحة وحداثية كونها قيَماً مجتمعية تعمل من أجل مسح نهائي لمعايير يمليها عقل المجتمع بحسب ما يعيشه من معطيات قارّة، وما يميّزهم من إثبات الخصوصية، والبرهان على الأصالة بما لها من قيمة وامتثال لقانون موجود بقيَمه لا بجسده، وامتثال الفرد لقانون الجماعة الذي هو سلطة القرار الجماعي. وكان لزاماً على كلّ مازيغي الانضباط والالتزام وتفعيل العُرف؛ باعتباره عمقَ المرجعية وعنصرَ الوجود ومنطقَ الفكر القبلي أو العروشي. ولو لم يكن ذلك كذلك لحصل التفتّت في هذا المجتمع الذي نقل لنا أعرافَه وسلوكَه عبر الأجيال، وما حدث فيها إلاّ بعض التكسير الذي يمكن ردمه بالجَبْر؛ لأنّها كانت تعبّر عن التكامل المجتمعي في صورة رأي الفرد داخل الجماعة، ورأي الجماعة لا يكون ضلالاً أبداً.

متابعات

كتب مترجمة

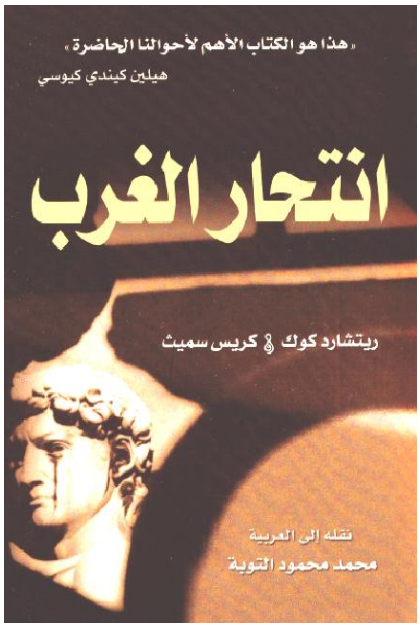

انتحار الغرب

يطرح المؤلفان ريتشارد كوك وكريس سميث كتابهما المعنون (THE SUICIDE OF THE WEST أو انتحار الغرب)، أربعة أسئلة يتمحور حولها الكتاب هي:

هل هناك خصيصة تنفرد بها الحضارة الغربية؟

لماذا نجحت على هذا النحو الكبير؟

ولماذا تواجه الآن المهددات؟

وهل ستستمر في البقاء؟.

ويقدم المؤلفان للكتاب بمدخل ذي دلالة بهذه الكلمات: "**إن الاعتزاز والفخر الذي شعر به الأوروبيون والأمريكيون والكنديون والنيوزيلنديون عام1900م، نتيجة انتمائهم لحضارة متقدمة ومثيرة، قد انتهى الآن، ليس بسبب الأحداث والعوامل الخارجية، وإنما لأسباب داخلية تتمثل في انهيار الغرب وانعدام الثقة بالنفس**".

يؤكد المؤلفان على أن الحضارة الغربية مهددة تهديداً فادحاً، لأن معظم الأوروبيين لم يبقوا الآن مؤمنين بالأفكار التي جعلت الغرب ناجحاً إلى هذه الدرجة، فإن انهيار الثقة بالنفس لدى الإنسان الغربي لا يرتبط إلا قليلا بالعدو الخارجي، ويرتبط بصورة أساسية بالتحولات المزلزلة في الأفكار والمواقف الغربية.

ويفسر المؤلفان ما يعنياه بكلمة "انتحار" بأنها الإخفاق في حل التناقضات في المجتمع الغربي بطريقة تحفظ معها المثل العليا، وبتعبير أدق، تحول المجتمع الغربي إلى حضارة أخرى لا تقوم على عوامل النجاح الرئيسية الست (المسيحية، العلم، التفاؤل، الليبرالية، النمو، الفردية)،

فهناك اتجاهات في المجتمع الغربي استمرت في النمو طوال القرن الماضي، ولكنها لم تكن واضحة وضوحاً جلياً إلا في السنوات العشرين أو الثلاثين الأخيرة، وهي اتجاهات إن استمرت، فسوف تجعل المجتمع مختلفاً تماماً عن أهدافه التاريخية، ومختلفاً عن الحقيقة الواقعة التي كانت تقترب أكثر فأكثر طوال عدة مئات من السنين، وهي باختصار تتمثل في إنكار المسؤولية الشخصية لتحسين الإنسان لنفسه وللمجتمع، وإنكار كل ما يسير مع المثل العليا الليبرالية.

- **مشكلة الهوية:**

إن أخطر القضايا التي تواجه كل غربي اليوم، وأصعبها ليست قضية البقاء الاقتصادي، ولكنها قضية الهوية، التي صارت باختصار متعددة، لا مركزية، عابرة وخاصية غريبة، وهويتنا نرتقها معاً من أنفسنا نحن بوصفنا أفراداً، ولكن على مدى العقود القليلة القادمة، يحتمل أن يختار الغربيون اختياراً جماعياً واحداً من أشكال الهوية المهيمنة الآتية:

- تراجع إلى العديد من الأشكال المحلية المحضة والاشكال الشخصية المحضة من الهوية، من دون أي إحساس سائد أوسع من المجتمع.
- إحساس من الهوية المحلية والشخصية، مقرون مع إحياء الهوية القومية مثل الأمريكيين والألمان والاستراليين وهكذا.
- أن تتشعب الهوية الغربية بشكل رئيس إلى ولائي "أمريكيين" و"أوروبيين".

– إحساس من الهوية المحلية والشخصية، مقروناً مع رأي يرى أننا كلنا دوليون ومواطنون في العالم.

– إحساس من الهوية المحلية، والشخصية والقومية، مع إدراك عام بأننا مواطنو الغرب بهوية ومصالح مشتركة مهمة.

إن فكرة الغرب التي تدمج فكرة أوروبا وفكرة أمريكا أعادت صنع خريطة العالم أثناء القرن الأخير، فبتكلفة ضخمة، محيت إلى حد كبيرة القومية المدمرة التي كانت تهيج الأوروبيين ضد الأوروبيين، وكذلك فقد تلاشت الإيديولوجيات المناوئة للغرب من النازية والشيوعية.

ومن الناحية السياسية وصل الغرب إلى مجموعة متنوعة من الأمم الأوروبية الحرة المستقلة، فهي ما زالت تحتفظ ببرلمانتها الخاصة وبهويتها القومية، ولكنها موحدة من الناحية

الاقتصادية وإلى درجة معينة من الناحية السياسية، وفي تحالف واسع مع الولايات المتحدة، لكن هناك في بعض الأحيان توترات خطيرة في بعض العلاقات فيما يتعلق بالسلام والازدهار والحرية.

- **سقوط الليبرالية:**

منذ العام 1900م واجهت الليبرالية والمجتمع الغربي ثلاث مجموعات خطيرة من التحديات :

1- التهديد القادم من الايدولوجيا المنافسة التي كان لديها في بعض الأوقات دعم شعبي ضخم داخل الغرب.

2- التهديد القادم من الأعداء الخارجيين المرتبطين بايدولوجيات تحظى بدعم غربي ضعيف.

3- التهديدات القادمة من داخل المجتمع الليبرالي نفسه.

إن الأطروحة التي ناقشها عالم العلوم السياسية فرنسيس فوكوياما، التي ترى أن الليبرالية قد انتصرت مرة وإلى الأبد، هي أطروحة غير صحيحة لا تصمد للاختبار، فالليبرالية اليوم أقل تجذراً قوياً في المعتقدات الغربية، والمواقف الغربية مما كانت عليه في العام 1950 أو العام 1900.

إن أوضح خطر هو دائرة من الإرهاب والاستبداد المحلي يعزز أحدهما بشكل متبادل، فالحرب عدو القيم الليبرالية، فإذا كانت الحروب المستمرة والشديدة ضرورية لهزيمة الإرهاب والتهديدات الخارجية الموجهة للغرب، فإن القيم الليبرالية سوف تخفق، فلقد أدخلت إدارة حزب العمال البريطاني قانوناً لمكافحة الإرهاب يعطيها السلطة لسجن المواطنين إلى أجل غير محدد من دون توجيه تهمة أو محاكمة، وعلق اللورد هوفمان وزير العدل السابق بالقول: " إن التهديد الحقيقي لحياة الأمة، بمعنى الشعب الذي يعيش وفقاً لقوانينه التقليدية وقيمه السياسية، يأتي لا من الإرهاب، بل من قوانين من أمثال هذه"، ولقد كان محقاً في أن يقول ذلك، إذ أن الإرهابيين يربحون، حين نتخلى نحن عن مبادئ العدل والديمقراطية نفسها التي نسعى إلى الدفاع عنها.

ويأتي خطر آخر في المظهر الجديد لما يسمى "الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي"، وهو فرض الديمقراطية بالقوة، الذي آذى أمريكا الليبرالية إذاءًا كبيرًا، وأضر بصورة الولايات المتحدة في

الخارج "بوصفها التجسيد العظيم للحرية والأمل للإنسانية"، كانت دائماً قوة من قواها العظيمة، ومصدراً من مصادر القوة الناعمة للدبلوماسية الأمريكية، لكن هذا الاستعمار لطخ الصورة الكونية لأمريكا، وقد اغتصبت وسائل الإعلام المسرح السياسي وقلصته وجعلته ضئيلاً، وبذلك فقد الليبراليون الثقة بالنفس وفقدوا العاطفة.

والمشكلة الثالثة لليبرالية: هي تزايد انفصالها الكامل عن قاعدتها الأخلاقية، والالتزام الذي يزداد ضعفاً نحو الجماعة، وفقدان العاطفة الحقيقية من ناحية الليبراليين، وفقدانها للمثل العليا السامية والخواء العاطفي في قلبها.

إن بذور سقوط الليبرالية تكمن في نجاحها، فقد كان على الليبرالية لكي تصل إلى الإثمار الكامل أن تخلق مجتمعاً ثرياً ومعقداً واجتماعيا إلى درجة ملحوظة، لاسيما أن الليبرالية هي أكثر من الاستقلال الذاتي الوطني وأكثر من الديمقراطية، وأكثر من مجموعة أفكار سياسية مزدهرة ومؤسسات وأحزاب وأكثر من حكم القانون.

هناك دافع قوي داخلي لليبرالية نحو تدمير الذات، وإذا ما أخذ ذلك الدافع إلى الطرف غير المنطقي، ولكنه المُرضي عاطفياً، فإن الليبرالية تنكر تفوقها الخاص، وإن السعي نحو المساواة الدقيقة في النتيجة الحاصلة يستطيع أن يدمر المساواة في الفرص، ففي الوقت الذي تبقى فيه المعركة ضد عدم المساواة قضية رئيسية لمعظم الليبراليين، فإنها تستطيع أن تنزلق بسهولة إلى قمع الفردية، وإن الاعتقاد الخاطئ بما هو . صحيح سياسياً . يميل إلى إهمال النتائج غير المريحة للبحث العلمي، وخصوصاً في علم النفس وفي علم الحياة.

- **آلام النمو الغربي:**

إن الرأسمالية حالياً هي التي تقف أمام إعادة توحيد التقدم الاجتماعي والشخصي مع التقدم الاقتصادي، باعتبارها انحرافا وشذوذاً، ففي حين صنعت أوروبا ولاحقاً أمريكا التقدم طوال 800 سنة من خلال التوسع ومن خلال طاقات الطبقات الوسطى الحضرية الصاعدة، وأدى ذلك في النتيجة إلى النمو الاقتصادي وتقدم الحرية الشخصية والسياسية، فإن الرأسمالية الصناعية مزقت هذه الوحدة أجزاء، فلقد جاءت الرأسمالية بتقدمات اقتصادية ضخمة، لكنها همشت المنتِج الفرد، وجعلت الاقتصاد والمجتمع مركزيين، وإن الاقتصاد المشخصن يعود إلى اتجاه غربي طويل الأمد متمثل في تقديم الثروة والحرية معاً، وإن تقدم الاقتصاد المشخصن في الغرب لا عودة منه، لذا يمكن التأكيد على أن هذه التطورات الاقتصادية هي أرحم مؤشر معاكس لانتحار الغرب.

- **الغرب وما ليس غربا:**

يقف المؤلفان عند سؤال العلاقة بين الغرب وباقي الدول غير غربية، والمعتقدات التي تدفع السياسة الخارجية الغربية؟

ويجيب المؤلفان أن كل صانع سياسة غربي، يميل إلى العمل ضمنياً أو بصراحة واضحة، بواحد من ستة نماذج عقلية هي:

1- الشمولية الغربية : وهو الرأي الذي يرى أن الغرب يمثل الحداثة، وأن كل المناطق المهمة في العالم سوق تتحول إلى الليبرالية والرأسمالية حسب النموذج الغربي.

2- الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي: أي الاعتقاد بأن على الغرب أن يدفع بالديمقراطية وبالرأسمالية إلى الأمام في كل انحاء العالم، وبالقوة إذا دعت الضرورة.

3- المدخل الذي نسميه العالم . أمريكا: وهو الذي يرى أن العالم سيكون أسعد وآمن إذا فرضت أمريكا وحلفاءها سلاماً شاملاً، وسياسات اقتصادية مشتركة من دون القلق كثيراً حول زخارف الديمقراطية.

4- الغرب . القلعة: وفي هذا النموذج يتراجع الغرب إلى نفسه، ليحمي حضارته ويتخلى تخلياً فعالاً بشأن بقية العالم.

5- الرأي الدولي (Cosmopolitique): وهو الذي يرى أن الغرب والبقية سوف يلتقون لقاء طبيعياً نحو قيم ومؤسسات مشتركة.

6- إستراتيجية التعايش والجاذبية : وهذه لها أربع شعب، وهي : احترام تنوع الحضارات الأخرى، وأن تكون راغباً في التعايش معها، وإعطاء حياة جديدة للمثل العليا الغربية واجتذاب البقية إلى الغرب.

ويؤكد المؤلفان على أن العالم لن يكون بوتقة انصهار، ولا سيتبنى القيم الغربية تبنياً طبيعياً، ومحاولة فرض هذه النتيجة بالقوة، أو تقديمها عن طريق القسر بشكل جوهري، هو عمل غير ليبرالي، وغير عملي وغير مجد.

وبالتأكيد تستطيع أمريكا أن تفرض إمبراطوريتها بلا رحمة على الكثير من العالم، ومن الممكن على كل العالم، ولكن الحرية والأجزاء الجذابة من الحضارة الغربية سوف تفشل بالاستمرار وتنسحب، والنتيجة نفسها سوف تتبع أي محاولة جادة من الغرب للتراجع إلى معسكره.

إن البديل الوحيد العملي المعقول بالنسبة إلى الغرب هو أن يحترم الاختلافات الثقافية وأن يمارس الصبر وطول الأناة، وأن يؤمن بأفضل أفكاره وأن ينشر نفوذه بالقدوة، وأن يترك الأفكار ونتائجها تتكلم عن نفسها، وأن ينزع سلاح الأعداء بالتدريج ويجتذب الأنصار المشايعين.

- **الانتحار، هل هو محتوم؟**

إن الحضارة الغربية قد وصلت إلى مَفرَق على أحد شعبتيه، يحمل الطريق حالياً المزيد من المرور، ويوجد فيه الارتياب، والأنانية غير الملطفة، واللامبالاة، وإعادة المركزية والعدوان، وهي صفات دعت لها ومارستها معاً عناصر مختلفة في المجتمع.

ومع ذلك فهم يساندون مساندة كلية خصومهم الظاهرين، ويمكن لهذا الطريق أن يأخذ أشكالاً عديدة، من الفوضى السياسية إلى الفاشية الجديدة، والانهيار البيئي، إلى الإمبراطورية الأمريكية الجديدة، ومثل هذه الأشكال كلها، سوف تشير إلى نهاية الحضارة الغربية، بوصفها المثل الأعلى الديمقراطي والفردي الذي تخيله الأوروبيون والأمريكيون، وغذوه واجتذبوا إليه، ليقتربوا اقتراباً أكثر طوال مئات السنين، والحضارة الغربية لن يدمرها أعداؤنا، ولكنها قد تُدَمَّر بأيدنا نحن أنفسنا.

وعلى الشعبة الأخرى من الطريق توجد استعادة الشجاعة والثقة بأنفسنا وبثقافتنا وبالوحدة العاطفية داخل أمريكا وداخل أوروبا، وبين أوروبا وأمريكا ومع العناصر الأوروبية الأخرى، يوجد مجتمع وحضارة يضمان بليوناً من الأفراد المسؤولين، مرتبطين معاً لا بالسلطة أو بالقسر أو بالمعتقدات التقليدية التي لا تخضع للمناقشة، ولكن بالمواقف المكتشفة والموثقة ذاتياً من الكفاح الشخصي، والتفاؤل والعقل والرحمة والمساواة والفردية والهوية المشتركة، وهذا الطريق معبداً والارتحال فيه ليس صعباً، ولكنه يتطلب تغييراً في الاتجاه.

وسواء أُكمل أم لم يستكمل، فإن مصير الغرب هو أن يخلق حضارة رحيمة بالإنسانية على نحو كامل، وحرة وثرية، بفضل إطلاق الآمال، وأهم من ذلك، إطلاق الصفات الكامنة الممكنة

والأخلاقية لجميع شعبها، وحسب المتصور تماماً وفي الوقت المناسب، لتكون نموذجاً جذاباً جاذبية كافية، لتستنهض معظم البشرية.

معلومات عن الكتاب

تأليف : ريتشارد كوك (الكاتب والمفكر الأمريكي الشهير) وكريس سميث (وزير شئون الثقافة البريطاني الأسبق)

- ترجمة : محمد محمود التوبة
- دار النشر : العبيكان للنشر والتوزيع
- عدد الصفحات: 330 صفحة
- العنوان الأصلي للكتاب:

Suicide of the West: An Essay on the Meaning and Destiny of Liberalism

- دار النشر: Unabridged LIBRARY edition (August 1, 1997)

" هل يستطيع الآسيويون أن يفكِّروا؟"

تأليف: كيشور محبوباني

ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني

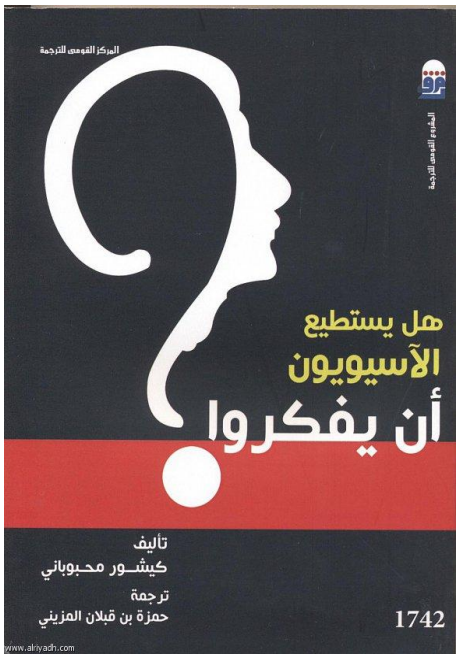

صدر هذا الكتاب أول مرة في العام 1998، باللغة الانجليزية، ومؤلفه هو الدبلوماسي والمفكر السنغافوري ذي الأصول الهندية "كيشوري محبوباني" والمعروف في كثير من الأوساط بـ"توينبي آسيا" وربما نعته آخرون بـ"ماكس فيبر الأخلاقيات الكونفوشوسية الجديدة".

وأهمية الكتاب إذن، جاءت بسبب هذا الثقل المعنوي لمؤلفه أولا، وثانيا بسبب ثقل المنطقة المعنية بالتحليل (آسيا) خاصة وأنه يحمل هذا العنوان الاستفزازي؛ واستقطب الكتاب لأجل ذلك اهتمام الكثيرين من المتابعين.

وقام الدكتور "حمزة بن قبلان المزيني"، أستاذ اللسانيات بجامعة الملك سعود بالرياض، بترجمته إلى العربية، وهو عمل مشكور لأن فيه خدمة للمكتبة العربية التي تحتاج إلى أكثر من دراسة وأكثر من بحث يتعلق بشؤون آسيا سواء أتعلق الأمر بتركيبتها الجيوسكانية أو السياسية أو الاقتصادية، بالنظر لما حققته بعض بلدان هذه القارة الشاسعة في العقود الأخيرة من قفزات في مختلف الميادين، وما قدمته من نماذج زاهية في الإدارة والتنمية والتعليم والصناعة والخدمات الاجتماعية.

الكتاب دسم المادة، عميق المضمون بل أن قضاياه كثيرة ومتشعبة، ولعل عنوانه المستفز وما يحمله من دلالات ورسائل وأهداف، يحتاج إلى أكثر من وقفة، ويرى الدكتور المزيني في تقديم ترجمته أن الكتاب يهدف إلى إرسال رسالة إلى الآسيويين عموما، والآسيويين من شرق القارة وجنوبها تحديدا؛ وملخص الرسالة "أنه حان الوقت لآسيا أن تقوم بالدور الذي قام به الغرب طوال القرون الخمسة الماضية في قيادة التقدم العالمي علميا وصناعيا"، وأن هذا الدور ممكن إذا ما توفرت بعض الشروط الضرورية كتلك التي تحققت في اليابان وسنغافورة وماليزيا وكوريا الجنوبية وتايوان والصين والهند.

وبحسب الدكتور المزيني فإن عنوان الكتاب يوحي بشيء من التأنيب لسكان هذه القارة الشاسعة التي تراجعت في الخمسمائة سنة الماضية تراجعا خلف الغرب الذي كان يقبع خلف الآسيويين بأشواط بعيدة في مختلف المجالات، إلى أن تمكنت بعض الأقطار الآسيوية من الخروج من عباءة التخلف والظلام، ووضع أقدامها على عتبات التنوير وعلوم العصر وأسس التقدم.

وفي مكان آخر من مقدمته يضيف الدكتور المزيني فيقول: «إنه يمكن توجيه السؤال نفسه بصيغة أخرى، كما أقترح المؤلف، أي هل يستطيع العرب أن يفكروا؟ خاصة وأنه لم تستطع دولة واحدة من دولهم تحقيق شيء قريب مما حققه الغرب من حيث التقدم العلمي والصناعي. كما يمكن توجيه السؤال نفسه للمسلمين الذين لم تحقق إلا دولة واحدة من دولهم هي ماليزيا مثل ذلك الإنجاز، علما بأن الحضارة العربية الإسلامية كانت قبل خمسة قرون متقدمة كثيرا على الغرب.

كما يُوجب هذا السؤال التفكير في ما لاحظه المؤلف من أنه لو كان المسلمون يفكرون لما استطاع عدد قليل من القوى الغربية أن يحتل هذه المساحة الشاسعة، دون أن تُواجه إلا بالإذعان طوال أكثر من قرنين "ويُعتبر كتاب محبوباني مهما من ناحية أخرى هي أنه يدخل ضمن الحوار والجدل الدائرين اليوم عن إمكانية تحول ميزان القوى من الغرب إلى الشرق الآسيوي، في ظل نجاح قطبي آسيا الكبيرين (الهند والصين) في تحرير أنفسهما ومقدراتهما من المركزية والوصاية الغربية، ناهيك عما حققاه من ريادة اقتصادية وصناعية وعلمية وتنموية مشهودة، وإن كان هناك ما يستدعي جهودا مضاعفة لبلوغهما قمة الهرم العالمي.

لقد نشرت في السنوات القليلة الماضية دراسات وأبحاث كثيرة مصدرها الغرب حول احتمالات تنامي قوة ونفوذ العملاقين الآسيويين خلال السنوات الخمسين القادمة، بحيث تحتلان المكانة التي تحتلها الولايات المتحدة حاليا (خصوصا إذا ما قررا أن يضعا خلافاتهما البينية وتنافسهما الشرس جانبا وينصرفا إلى بناء علاقات تكاملية)، غير أن الحقيقة التي يجب أن تُقال هي ان الزمن المحدد بنصف قرن ليس كافيا لكي تتخلص الهند والصين نهائيا من مشاكلاتهما وأزماتهما الداخلية. ذلك أن المطلوب أولا، وقبل الإعلان عن بلوغهما مراتب القوى العظمى الحالية المؤثرة في صناعة القرار الدولي، هو أن تجد الدولتان حلولا دائمة وجذرية للكثير من التحديات التي تواجههما، وعلى رأس هذه التحديات الفقر والأمية وسوء توزيع الثروة والفساد الإداري و الفساد السياسي والنزعات الانفصالية والسلم الأهلي.

الأمر الآخر الجدير بالتوقف عنده مليئا هو ما ذكره محبوباني حول الديمقراطية! فهو يقول، بلغة تكاد أن تكون حاسمة **أن تحقيق الديمقراطية ربما لا يحقق التقدم الذي تتطلع إليه بلدان شرق آسيا وجنوبها**، ويضيف قائلا ما خلاصته **أن على أي مجتمع نام أن ينجح أولا في التنمية الاقتصادية قبل تحقيقه للحريات الاجتماعية والسياسية المماثلة لما هو قائم في المجتمعات الغربية المتقدمة.**

وهنا يبدو محبوباني كما لو أنه يطرح النموذج السنغافوري كمثال، فالأخيرة لم تحقق ما حققته من إنجازات مشهودة على مختلف الصعد بالديمقراطية، وإنما حققته في ظل نظام شمولي قاده مؤسسها وباني نهضتها "لي كوان يو" الذي استطاع برؤيته الصائبة وسياساته الحكيمة الهادئة أن ينقل بلاده خلال نصف قرن من مستنقع فقير وكئيب ومنفر وموبوء بالأمراض إلى بلد متطور وجاذب لرؤوس الأموال ورجال المال والأعمال.

معلومات عن الكتاب

العنوان الأصلي للكتاب: Can Asians Think?

الناشر: دار التايمز في سنغافورة

الترجمة: صدرت عن المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010 م، وتقع في 297 صفحة

طبعت هذه المجلة في دار الشمسية

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام

العنوان: حي بوسحاقي 113 (د) باب الزوار الجزائر

الهاتف / الفاكس: 021.24.59.51

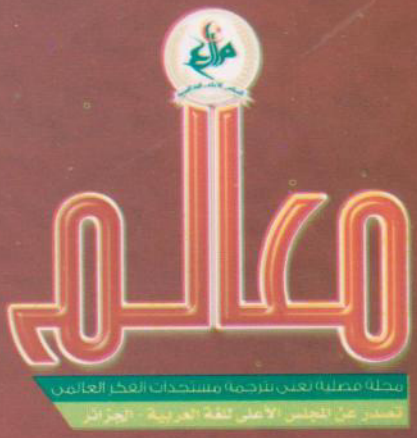

في هذا العدد

- **نخبة التنمية**
  د. محمد قماري
- **"مثلث ذهبي"**
  أضلاعه الجامعة والبحث العلمي والشركات
  "الاستثمار في بناء الثروات واقتصاد الغد"
  بقلم: باسكال بوريس. وارنوفيسيبه

■ **مـــذاهب واتجـــاهـــات**

- **الوضع ما بعد حداثي**
  بقلم كريستوفر بتلر / ترجمة: د. بوعلي كحال
- **المناهج التجريبية والجدلية في سوسيولوجيا الأدب الموضوعية والسوسيولوجيا التجريبية للأدب**
  بقلم: بييرزيما / ترجمة: أ. صليحة إمدوشن

■ **ترجمة ومناهج**

- **الترجمة الآلية**
  بقلم: ماري لوبير / ترجمة: د. عمر بلخير، أ. الجوهر خالف
- **الترجمة المتخصصة في أقسام ما بعد التدرج**
  بقلم: أ. عبد الكريم شريفي (جامعي)

■ **تعليميات وبيداغوجيا** "مقالات غير شعبية"

- **وظائف المعلم**
  بقلم: برتراند راسل / ترجمة: موسي زمولي
- **تعليم الكفاية التواصلية**
  بقلم: ايدي رولي / ترجمة: د. أحمد عزوز
- **المعنى والدلالة**
  بقلم: أ. شارودو / ترجمة: د. فاطمة ولد حسين
- **الخطاب بين رولان بارت وهابرماس**
  بقلم: حياة لصحف (ج. تلمسان)

■ **متـــابعـــات**

- **حكمـــة الأجـــداد "فن تراث منطقة القبائل"**

■ **كتب مترجمة:**

- **1 انتحار الغرب، تأليف: ريتشاردكوك وكريس سميت**
  ترجمة: محمد محمود التوبة
- **2 هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا؟**
  تأليف: كيشور محبوباني / ترجمة: حمزة بنّ قبلان المزيني